# أدب فناء المقربين

## شرح

## زيارة الجامعة الكبيرة

العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

الجزء الثاني

دار الإسراء للطباعة والنشر

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

أدب فناء المقرّبين

شرح زيارة الجامعة الكبيرة

# أدب فناء المقرّبين

## شرح زيارة الجامعة الكبيرة

العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

الجزء الثاني

دار الإسراء للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم


- إسم الكتاب ........................................ أدب فناء المقربين
شرح زيارة الجامعة الكبيرة
- تاليف ........................................ آية الله جوادي أملي
- تعريب ........................................ وجيه الهجري
- الطبعة ........................................ الثانية
- سنة الطبع ........................................ ٢٠١٣ م ـ ١٤٣٤ هـ


---


جميع الحقوق محفوظه للناشر


---


دار الإسراء للطباعة والنشر

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع دكاش

بناية الحسنين. ط ١. تلفون : ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨

# فهرس العناوين

## وَذَوِي النُّهىٰ وَأُولِي الحِجىٰ



## وَكَهْفِ الْوَرىٰ

## وَوَرَثَةِ الأنبِياءِ



## وَالمَثَلِ الأعْلىٰ



## وَالدَّعْوَةِ الحُسْنىٰ



## وَحُجَجِ اللهِ عَلىٰ أهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَالأُولىٰ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ

## السَّلامُ علىٰ مَحالِّ مَعرِفَةِ الله



## وَمَساكِنِ بَرَكَةِ الله



## وَمَعادِنِ حِكمَةِ الله

## وَحَفَظَةِ سِرِّ اللهِ



## وَحَمَلَةِ كِتابِ اللهِ

## وَأَوْصِيَاءِ نَبِيِّ اللهِ



## وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللهِ

## صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَرَحمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ



## السَّلامُ عَلىٰ الدُّعاةِ إِلى اللهِ

## وَالأَدِلاّءِ عَلى مَرْضاتِ اللهِ



## وَالمُسْتَقَرّينَ في أمْرِ اللهِ

## وَالتّامّينَ فِي مَحَبَّةِ اللهِ



## وَالمُخلَصِينَ فِي تَوحِيدِ اللهِ

## الفهارس

# وَذَوِي النُّهىٰ وَأُولِي الحِجىٰ

كلمة «ذو» جمعها «ذوون»، وفي حالة الجرّ يقال: «ذوين»[1]. ومعناها الصاحب والمالك.

وكلمة «نُهىٰ» جمع «نُهية» مشتقّة من مادة «نهي»، ومعناها العقل؛ لأنّه ينهىٰ عن القبيح.

و «أولوا» بمعنىٰ الصاحب والمالك أيضاً، ولا مفردَ لها من مادّتها، وفي المفرد تستعمل كلمة «ذو».

وكلمة «حِجىٰ» الأصل فيها «حجو»، فهو ناقص واوي، بحسب قول الفيروز آبادي في «القاموس المحيط».

وذكرت كتب اللغة أنّها تأتي بمعنىٰ العقل. وذكر أحمد بن فارس معنيين أصليين لهذه الكلمة:

---

١ . لكنّها غالباً ما تكون مضافة فتُحذف منها النون.

أحدهما: إطافةُ الشيءِ بالشيء وملازمتُه، يقال لحدقة العين: «حجوة» لأنّها مِن أَحْدَقَ بالشيء. ويقال لنواحي البلاد وأطرافِها المحيطةِ بها: أَحْجاءٌ.

والآخر: القصد والتعمُّد، يقال: تحجَّيت الشيءَ، إذا تحرَّيْتَه وتعمّدتَه[١].

ويقال لمن أقام في مكان: «حجا بالمكان»، ومرجعه إلى القصد المذكور، وكلّ المعاني المذكورة في كتب اللغة لهذه المادة يمكن إرجاعها إلى هذين المعنيين الأصليين.

وما ذكره في «معجم مقاييس اللغة» من المعنيين المشار إليهما يمكن تطبيقه على «الحجى» بمعنى العقل؛ لأنّ:

١ ـ العقل محيط بكلّ قوى الإنسان، ومشرف عليها، وملازم لها.

٢ ـ العقل هو الوحيد من بين قوى الإنسان الجدير بالقصد والعناية الخاصّة وتحرّي متابعته في كلّ الأمور.

## ذوو العقل الكامل

العقل نعمة يتنّعم بها البشر كافّة في أصل خلقتهم، فهم أيضاً «أولوا حجى وذوو نُهى»؛ لكنّ غير المعصومين في مرمى القوى المخالفة، وهي هوى النفس والغريزة، وعرضة للائتمار بأوامرها في مجالي الفكر والعمل، وارتكاب الخطيئة بسببها. وأمّا الأئمة المعصومون عليهم السلام فهم في أمان من ذلك كلّه.

واختصّت هذه الفقرة من الزيارة بذكر إحدى أعظم كمالاتهم، وهي العقل الكامل الفريد من نوعه.

---

١ . معجم مقاييس اللغة، مادة «حجا»، بتصرف.

# إشارات

## ١ ـ أسماء العقل

قد يكون لحقيقة واحدة حيثيات وشؤون عديدة، وبتعدّد شؤونها تتعدّد أسماؤها؛ مثال ذلك ذات الباري المقدّسة، فهي «الله» بلحاظ شمولها لجميع صفات الكمال، وهي «الرازق» بلحاظ مصدريتها لأرزاق العباد، وهي «الخالق» بلحاظ خلقها الموجودات، وهي «الغافر» بلحاظ غفرانها ذنوبهم، وهكذا بالنسبة لبقيّة أسمائها.

والإنسان مزوّد بقوّة يدرك بها الحقائق ويتفوّق بها على سائر الحيوانات.

ولهذه القوّة مظاهر وشؤون مختلفة، ولكلّ منها اسم خاصّ، من ذلك:

العقل: سميّ بذلك لأنّه يعقل الإنسان ويمنعه من فعل القبائح، و «العقال» هو ما يُشدّ به مثل البعير الشموس لتذليله[1]. ومن هنا، أجاب النبيّ الأكرم ﷺ شمعون بن لاوي فقال:

«إنّ العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدوابّ، فإن لم تُعقل حارت؛ فالعقل عقال من الجهل...»[2].

القلب: سمّي بذلك لسرعة تحوّله وتقلّبه في تفاعله مع الأفكار والأطروحات، (وهذا حال القلب الماديّ الصنوبريّ أيضاً). وقد وصف القرآن الكريم القلب بالفهم وعدم الفهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[3]. فالقلب في القرآن

---

١. انظر: لسان العرب، مادة «عقل».

٢. بحار الأنوار، ج١، ص١١٧.

٣. الأعراف: ١٧٩.

يُراد به القوّة الدرّاكة.

النُهية: سميّت بذلك لنهيها الإنسان عن القبيح[١]، ومنعه من ارتكاب المنكر[٢].

قال أمين الإسلام الطبرسي: «وإنّما قيل لأولي العقول «أولوا النّهى» لأنّهم ينهون الناس عن القبائح»[٣].

وقال بعض: إنّ «النُّهية» اسم لكلّ شيء يؤدّي إلى ترك القبائح العقليّة والنقليّة، مثل العقل والعلم والعزم والبصيرة[٤].

وقيل: سمّي بذلك لأنّ الناس ينتهون في حلّ مشكلاتهم إلى ذوي العقول والرأي[٥].

وقال أبو هلال العسكري في الفرق بين العقل والنُهية:

«الفرق بين النّهى والعقل: أنّ النُّهى هو النهاية في المعارف التي لا يحتاج إليها في مفارقة الأطفال ومن يجري مجراهم، وهي جمع واحدها النُّهية، ويجوز أن يقال: إنها تفيد أنّ الموصوف بها يصلح أن ينتهي إلى رأيه»[٦].

وعليه فالنُهية مرتبة أعلى من العقل.

الحِجر: «وهو المنْع والإحاطة على الشيء»[٧]. وقد جرت العادة قديماً على إحاطة الأرض الموات بالحجارة؛ لمنع الآخرين من التصرّف فيها، بغرض إحيائها والانتفاع بها.

---

١. انظر: مفردات غريب القرآن، مادة «نهى».

٢. انظر: النهاية، ج٥، ص١٣٩؛ الصحاح، ج٤، ص٢٥١٧.

٣. مجمع البيان، مج٦ ـ ٧، ص٢١.

٤. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «نهي». بتصرف.

٥. مجمع البيان، مج٦ ـ ٧، ص٢١، ذيل الآية ٥٤ من سورة طه.

٦. الفروق اللغوية، ص٥٥٢.

٧. معجم مقاييس اللغة، مادة «حجر».

والعَقْل يسمَّىٰ «حِجْراً» لأنّه يمنع من إتيانِ ما لا ينبغي[1]. من هنا، سمّي صاحب العقل «ذا حجر»، كما في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[2].

وقال صاحب معجم مقاييس اللغة: «... والحَجَر معروف، وأحسَب أنَّ البابَ كلَّه محمولٌ عليه ومأخوذ منه؛ لشدَّته وصلابته».

فكأنّ العقل سمّي «حِجْراً» لصلابته ومقاومته وعدم نفوذ الباطل إليه.

الحجا: سمّي بذلك لإحاطته قوىٰ الإنسان وملازمته لها، وبالتالي تسلّطه عليها سلطة كاملة. قال أبو هلال العسكري: «إنّ الحجا هو ثبات العقل، من قولهم: «تحجّىٰ بالمكان» إذا قام به»[3].

وكيف كان، فإنّ الحجا مرتبة أعلىٰ وأكمل من العقل.

اللُّب: «لبُّ كلّ شيء ولبابه خالصه وخياره... ولبّ كلّ شيء من الثمار داخله الذي يطرح خارجه، نحو لبّ الجوز واللوز»[4].

والداعي الأول لزراعة الجوز وما شابهه هو لبّه، وأمّا بقيّة أجزاء الشجرة فالاستفادة منها تبعيّة.

وسُمّي العقل لبّاً لأنّه أنفس ما في الإنسان، فما عداه من الأجزاء كأنّها قشر لصيانته.

وقال بعضٌ: إنّ النسبة بين العقل واللبّ العموم والخصوص المطلق؛ لأنّ اللبّ العقل الخالص من الشوائب... وقيل: «هو ما زكىٰ من العقل، فكلّ لبّ عقل وليس كلّ عقل لبّاً»[5].

---

١. المصدر نفسه.

٢. الفجر: ٥.

٣. الفروق اللغوية، ص١٧٦.

٤. لسان العرب، مادة «لبب».

٥. مفردات غريب القرآن، مادة «لبّ».

وقيل في وجه التسمية: ولهذا علّق الله تعالىٰ فهم الأحكام والعلوم الدقيقة التي لا يدركها إلاّ العقول الزكية بأولي الألباب، نحو قوله: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1].

**ملاحظة**

قد يقال في الفرق بين «الحجىٰ والنُهىٰ»: إنّ «العقل» من حيث أمره للإنسان بالمعروف وحميد الفعال يسمّىٰ «حِجىٰ»، ومن حيث منعه له عن المنكر وذميم الفعال يسمّىٰ «نُهية و نُهىٰ».

ودرجات كمال هذه القوّة العقليّة ومراحل رشدها تتجلّىٰ في مراحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجالات الفقهيّة والأخلاقيّة والحقوقيّة.

## ٢ ـ المراد من العقل

يُبحث في العلوم الإسلاميّة عن العقل في مقامين:

١ ـ مقام علم الكون والوجود، فهُم في بحث مراحل الوجود يقولون: إنّنا نعيش في آخر مرحلة من مراحل الوجود، المسمّاة بعالم المادّة، وهي المرحلة المعبّر عنها بالمنعلة أو صفّ النعال؛ ولذا تسمّىٰ أيضاً بـ «الدُنيا»، فهي أحقر وأنزل مرحلة وجوديّة، وليس بعدها إلاّ العدم[2].

وهذه التسمية تفيد أنّ هناك مراحل وجوديّة أخرىٰ قبل هذه المرحلة.

وهذه المرحلة الوجوديّة لها خواصّ المادّة؛ بسبب مقارنتها لها وخضوعها لقوانينها.

---

١ . البقرة: ٢٦٩ . هذا المعنىٰ مأخوذ من مفردات الراغب بيسير تصرّف.

٢ . هذا بناءً علىٰ أنّ «الدنيا» هنا مشتقّ من «دني» بمعنىٰ الحقارة. ولكن بعضهم أرجع ذلك إلىٰ «الدنوّ» بمعنىٰ القرب، فيكون المعنىٰ أنّ هذه الدنيا هي أقرب مرحلة وجوديّة لمن يعيش فيها.

علىٰ أنّ كثيراً من أسباب اختلافات البشر ترجع إلىٰ ماديّة هذه النشأة وضيقها. قال بعض المفسّرين: إنّ الملائكة فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿فِي الأَرْضِ﴾[1] أنّ عالم المادّة هو محل حياة ونشوء آدم وبنيه، ولأنّهم يعلمون أنّ طبيعة الحياة في عالم المادّة تقترن عادةً بالفساد وإراقة الدماء، فقد سألوا الله تعالىٰ و﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[2].

والمرحلة الأرقىٰ من عالم المادّة مرحلة عالم المثال، وهي برزخٌ بين عالمي المادّة والعقل. فهي وإن كانت تتميّز بالتجرّد عن المادّة إلاّ أنّها غير خالية من آثار المادّة، كما يُشاهد في عالم الرؤيا، فإنّ الرؤيا وإن كانت من عالم ما وراء المادّة إلاّ أنّها ذات خواصّ ماديّة، مثل الجزئيّة والطول والعرض والعمق، وغير ذلك؛ لكنّ الجسميّة المثاليّة فيها متناسبة مع طبيعة ذلك العالم.

وعالم المثال يقسّم إلىٰ قسمين: متّصل ومنفصل، ولكلّ منهما حكم وأثر خاصّ.

والمرحلة الأرقىٰ من عالم المثال هي مرحلة عالم العقل، وهي مرحلة مجرّدة عن المادّة وخواصّها وآثارها، وما ورد في الروايات باسم عالم الملائكة ينطبق علىٰ عالم العقل.

ثمّ إنّ ترتّب هذه العوالم الثلاثة ليس عرضيّاً، بحيث تكون معاً في رتبة واحدة، بل هي مترتّبة طوليّاً، وبنحو العلّة والمعلول؛ فعالم العقل علّة لعالم المثال، وعالم المثال علّة لعالم المادّة، والمراد من العليّة هنا أنّ المرحلة الأعلىٰ مجرىٰ للفيض الإلهي للمرحلة الأدنىٰ، والله تعالىٰ هو المفيض بالذات والعلّة الأولىٰ.

١ ـ مقام علم الإنسان، فهُم في بحث القوىٰ الإدراكيّة للإنسان يقولون: إنّ ما يدركه الإنسان بحواسّه الماديّة متّصل مباشرةً بالمحسوسات، مثل رؤيته لمنظر ما، أو

---

١ . في آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠.

٢ . انظر: تفسير تسنيم، ج٢، ص٦٤.

سماعه لصوت، أو تذوّقه لطعم، أو شمّه لرائحة، أو لمسه لشيء ناعم أو خشن. وهذه النوع من الإدراك يسمّى بالإدراك الحسّي، واللذّة أو الألم الحاصل منه حسيّان، وكلّ معرفة تأتي عن طريق هذه الحواس هي معرفة حسيّة.

ولكنّه حينما يتصوّر مشهداً ذهنيّاً لا صلَة له بالمادّة وبلا استعانة بالحواس الماديّة؛ فهو يتفاعل مع الصورة الذهنيّة، وقد تحصل له بسببها معرفة أو لذّة أو ألم.

فإن كان الشيء الحاضر في ذهنه من سنخ المعاني، كالعداوة والحبّ الجزئيين، فالمعرفة الحاصلة معرفة وهميّة، ولذّة وألم القوّة الشهويّة والغضبيّة الحاصلان من ذلك الإدراك الجزئي أمران وهميّان أيضاً.

وإن كان الشيء الحاضر في ذهنه من سنخ الصور؛ فهو المسمّى «التخيّل»، واللذّة والألم الحاصلان من هكذا إدراك خياليّان، بمعنى أنّ الإدراك المذكور يحصل بسبب القوّة الوهميّة؛ ولكنّ اللذّة والألم تتجلّيان لقوتيّ الشهوة أو الغضب، واللذّة والألم الخياليان يسميّان بذلك تبعاً للإدراك التخيّلي.

وهذه الإدراكات الثلاثة (الحسّ والوهم والخيال) مجالها الجزئيات، وإذا ما تجاوز الإدراك هذه المراحل الثلاث إلى الإدراك الكلّي، كأن يغضّ النظر عن الأفراد كزيد وبكر، بأن يلغي الخصوصيّات الماديّة والمشخّصات الزمانيّة والمكانيّة للأفراد، ويركّز إدراكه الذهنيّ على «الإنسان الكلّي» وهو الحيوان الناطق، فهو بهذا قد بلغ مرحلة «التعقّل»، والقوّة الذهنيّة الدرّاكة للمعاني الكليّة في هذه المرحلة تسمّى «العقل»، وبلوغ هذه المرحلة من الإدراك صعبٌ جدّاً، وكثيرٌ ممّن يحسبون أنّهم بلغوا مرحلة «التعقّل» والإدراك العقليّ المحض مبتلون في الحقيقة بالوهم والخيال والحسّ. فليس بمقدور أيّ مفكّر بلوغ هذه المرحلة، بل لا بدّ أولاً من التوفّر على درجة وجوديّة عالية، وكلّما كانت درجته الوجوديّة أعلى كانت مرحلة تعقّله أكمل.

والمراد من «النُهىٰ والحِجىٰ» في هذه الفقرة من الزيارة هو المعنىٰ الثاني للعقل؛ لما يلي:

**أولاً**: إنّ المرحلة الوجوديّة الأرقىٰ من عالم المثال، تسمّىٰ «عالم العقل»، لا «عالم النُهية والحجىٰ»، كما ورد في لفظ الزيارة.

**ثانياً**: إنّ التعبير عن المرحلة الوجودية الأرقىٰ بعالم العقل أكثر ما يكون في بحوث الحكمة والفلسفة، ويقلّ ذلك في لسان الروايات والزيارات.

**ثالثاً**: إنّ الأئمّة عليهم السلام وإن كانوا هم معلّميّ الملائكة ورازقيهم، ولهم تسجد الملائكة لكمال إنسانيتهم؛ لكن ليس المراد من «النُهىٰ والحجىٰ» هنا العقل؛ لأنّه لا يعبّر عادةً بـ «ذي و أولي» عن أسياد الملائكة ومالكيهم[1].

**رابعاً**: إنّ المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ**﴾[2] قوله: «نحن والله أولوا النُهىٰ»[3]. ولا شكَّ في أنّ المراد بأولي النُهىٰ في الآية ذووا العقل واللبّ، ولا نظر لها إلىٰ «عالم العقل».

**ملاحظة**

هذه الرواية ليست سوىٰ مؤيّد لتطبيق الأئمّة عنوان «أولي النُهي» بمعنىٰ «ذوي العقل» علىٰ أنفسهم، ولا دلالةَ لها علىٰ نفي استعمال هذا العنوان في معانٍ أخرىٰ.

### ٣ ـ مكانة العقل

«العقل فضيلة الإنسان»[4] بل «غاية الفضائل العقل»[5]، و «العقل زين

---

١ . إشارة إلىٰ ما سبق من أنّ ما ورد في الروايات باسم عالم الملائكة ينطبق علىٰ عالم العقل.

٢ . طه: ٥٤.

٣ . نور الثقلين، ج٣، ص٣٨٢.

٤ . شرح غرر الحكم، ج١، ص٦٥.

٥ . المصدر نفسه، ج٤، ص٣٧٤.

والحمق شين»[١]، و «خير المواهب العقل»[٢]، بل «لا نعمة أفضل من عقل»[٣]؛ ذلك أنّ «بالعقل صلاح كلّ أمر»[٤]، ولا يتمّ الانتفاع بالقوىٰ إلاّ بقيادة العقل، ولولاه لعجزت القوىٰ كلّها عن النفع. بل العلم نفسه ـ وهو أعظم نعم الله تعالىٰ ـ إنّما يكون نافعاً ببركة العقل، وما دام العلم يراوح في مرحلة تعلّم المصطلحات؛ ولم يصل بعدُ إلىٰ مرحلة التعقّل؛ فهو ضلال، كما ورد في الرواية: «كلّ علم لا يؤيّده عقل مضلّة»[٥]؛ وسرّ ذلك أنّه ما زال في مرحلة الجهل[٦].

من هنا قال عليٌ عليه السلام: «ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه»[٧]. ولذا كان الشرط في التكليف الشرعي هو العقل، فلا يكلّف الإنسان ولا يحاسب علىٰ فعاله وأخلاقه وعقائده ما لم يكن حائزاً علىٰ هذه النعمة الإلهيّة العظيمة، وإن حاز ما حاز من قوىٰ أخرىٰ. وفي الرواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالا: «لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليَّ منك، ولا أكملك إلاّ فيمن أحبّ؛ أما إنّي إيّاك آمر، وإيّاك أنهىٰ،وإيّاك أثيب»[٨].

---

١ . شرح غرر الحكم، ج١، ص١٣.
٢ . المصدر نفسه، ج٣، ص٤٢٠.
٣ . المصدر نفسه، ج٦، ص٣٨٥.
٤ . المصدر نفسه ، ج٣، ص٢٣٤.
٥ . المصدر نفسه ، ج٤، ص٥٣٢.
٦ . يوجد في الكتب الروائية بابان مستقلان، هما: «كتاب العقل والجهل» و «كتاب العلم أو كتاب فضيلة العلم».
٧ . نهج البلاغة، الحكمة ١٠٧.
٨ . بحار الأنوار، ج١، ص٩٦.

وتصديق رسل الله تعالىٰ منوط أيضاً بالعقل، سأل ابن السكّيت[١] الإمام الرضا عليه السلام: ما الحجّة علىٰ الخلق اليوم؟ فقال: «العقل؛ يعرف به الصادق علىٰ الله فيصدّقه، والكاذب علىٰ الله فيكذّبه»[٢]. وفي بعض الروايات ورد: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ لمّا خلق العقل قال له: ... أؤيّد من أحببتُه بك»[٣]. وفي وصيّة الإمام الكاظم لهشام بن الحكم قال: «معرفة العالِم بالعقل». قال العلاّمة المجلسي: «والغرض أنّ احتياج العلم إلىٰ العقل من جهتين: لفهم ما يلقيه العالِم، ولمعرفة العالِم الذي ينبغي أخذ العلم عنه»[٤].

## ٤ ـ آثار العقل

لكلّ موجود أثر أو آثار، نعلم بواسطتها بوجود المؤثر، وبالآثار نعرف الفروق بين ذوي الآثار المؤثرة. وإذا كان وجود الشيء وجوداً عينياً واقعياً فلا بدّ أن تكون له آثار؛ اللهمّ إلاّ أن يكون ذا وجودٍ وهميّ أو ضعيفٍ، بحيث لا أثر له ولا تأثير، فيلحق حينئذٍ بالمعدوم.

١ . ابن السكّيت الأهوازي إيراني، وهو أحد خاصّة الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام، «وكان حامل لواء علم العربية والأدب والشعر واللغة والنحو... قتله المتوكل في خامس رجب سنة ٢٤٤، وسببه أن المتوكل قال له يوماً: أيّما أحبّ إليك ابناي هذان ـ أي المعتزّ والمؤيّد ـ أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكّيت: والله إن قنبراً خادم علي بن ابي طالب خير منك ومن ابنيك. فقال المتوكل للأتراك: سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات. نُقل عن المجلسي الأول آنه قال: «اعلم أنّ أمثال هؤلاء الأعلام كانوا يعلمون وجوب التقيّة، ولكنّهم يصيرون غضباً لله تعالىٰ بحيث لا يبقىٰ لهم الاختيار عند سماع هذه الأباطيل». (الكنىٰ والألقاب، ج١، ص٣٠٣).

٢ . تحف العقول، ص٤٥٠.

٣ . بحار الأنوار، ج١، ص٩٨.

٤ . المصدر نفسه، ج١، ص١٣٨.

وللعقل آثار وفوائد جمّة، وللجهل مضارّ وعواقب وخيمة. وقد ذكرت الآيات والروايات فوائد العقل وآثاره وعلاماته، نذكر منها:

١. اكتساب التجربة وأخذ الدروس منها، فـ «لا يُلسع العاقل من جحر مرّتين»[١]، وفي لفظ آخر: «إنّ المؤمن لا يُلدغ من جحر مرّتين»[٢]، وعن أمير المؤمنين أنّه قال: «العقل لا ينخدع»[٣]. وقال أيضاً: «حفظ التجارب رأس العقل»[٤].

٢. من فوائد العقل التوفيق لاتّباع الأحسن، قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٥].

٣. الإفادة من حقائق هذا الكون والتدبّر في آياته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٦].

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٢.

٢. المصدر نفسه، ج١٩، ص٣٢٦. قال ابن الأثير: «اللَّسْع واللَّدْغ سَوَاء» (النهاية، ج٤، ص٢٤٨، مادة «لسع»). وقال أبو هلال العسكري: «اللذغ: يقال لما يضرب بفيه كالحية... واللسع: يقال لكلّ ما يضرب بمؤخّره كالزنبور والعقرب... قال الحريري: وأكثر أهل اللغة لم يفرّقوا بينهما». (الفروق اللغوية، ص٤٦٣، رقم١٨٦٠). وانظر: أقرب الموارد، ج٢، ص١١٤١، مادة «لسع». وفي رواية عن الإمام الصادق في شدّة الموت على الكافر قال: «... وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب» (بحار الأنوار، ج٦، ص١٥٢)، فجعل اللسع لما يضرب بالفم، واللدغ لما يضرب بمؤخّره.

٣. شرح غرر الحكم، ج١، ص١١٦.

٤. المصدر نفسه، ج٣، ص٤٠٧.

٥. الزمر: ١٧ـ١٨.

٦. البقرة: ١٦٤.

٤. من يُعمل عقله يقبل الموعظة ويتفاعل معها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقال عليٌّ عليه السلام: «لا تكوننّ ممّن لا تنفعه الموعظة إلاّ إذا بالغتَ في إيلامه، فإنّ العاقل يتعّظ بالأدب، والبهائم لا ترتدع إلاّ بالضرب»[٣]. فعدّ العقلَ هو ما يمتاز به الإنسان عن البهائم.

وقال: «من قوي عقله أكثر من الاعتبار»[٤]، وقال: «إنّما العاقل من وعظته التجارب»[٥].

٥. الاتّعاظ بحال الغابرين، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٦]. ومن حِكم أمير المؤمنين: «من عقل اعتبر بأمسه»[٧]. وقال أيضاً: «في تصاريف القضاء عبرةٌ لأولي الألباب والنُهىٰ»[٨]، «العاقل من اتعّظ بغيره»[٩]، «ضروب الأمثال تُضرب لأولي النّهىٰ والألباب»[١٠]، وذلك كأمثال القرآن والكتب السماويّة الأخرىٰ، وما جرىٰ مجراها.

---

١. القصص: ٦٠.
٢. الأنعام: ٣٢.
٣. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٣١٠.
٤. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٦٩.
٥. المصدر نفسه، ج٣، ص٧٥.
٦. الصافات: ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨.
٧. شرح غرر الحكم، ج٥، ص٣٥٩.
٨. المصدر نفسه، ج٤، ص٣٩٨.
٩. المصدر نفسه، ج١، ص٣٣٩.
١٠. المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٩

٦. الخضوع للحقّ، وممّا جاء في هذا:

«لكلّ شيء مطيّة ومطيّة العاقل التواضع»[١].

«يا هشام! إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس»[٢].

«أعقل الناس من ذلّ للحقّ فأعطاه من نفسه، وعزّ بالحقّ فلم يُهن إقامته وحُسن العمل به»[٣].

«العاقل يضع نفسه فيرتفع» و «الجاهل يرفع نفسه فيتّضع»[٤].

٧. من معطيات العقل شكر الحلال والصبر عن الحرام: «ياهشام! إنّ العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره»[٥].

٨. ومن معطياته إحراز الدين والدنيا: «من هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه»[٦]، و «على قدر العقل يكون الدّين»[٧]، و «الدّين لا يصلحه إلاّ العقل»[٨].

٩. تزكية العمل ونموّه: «يا هشام! كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلتَ عقلك عن أمر ربّك، وأطعتَ هواك على غلبة عقلك»[٩].

١٠. من بركات العقل تحمّل الوحدة: «يا هشام! الصبر على الوحدة علامة قوّة العقل»[١٠].

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٦.

٢. المصدر نفسه، ج١، ص١٣٦.

٣. شرح غرر الحكم، ج٢، ص٤٧٧.

٤. المصدر نفسه، ج١، ص١٧٨.

٥. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٧.

٦. المصدر نفسه، ج١، ص١٣٧.

٧. شرح غرر الحكم، ج٤، ص٣١٣.

٨. المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٣.

٩. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٧.

١٠. المصدر نفسه، ج١، ص١٣٧.

١١ . اعتزال الدنيا وعبّادها: «فمن عقل عن الله تبارك وتعالىٰ اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنيسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومعزّه من غير عشيرة»[١]، و «حدّ العقل الانفصال عن الفاني والاتّصال بالباقي»[٢]، و «ردع العقل عن زخارف الدنيا ثمرة العقل»[٣]؛ لأنّ «الفرح بالدنيا حمقٌ»[٤].

١٢ . العقل سبب لقبول العمل ومضاعفته: «يا هشام! قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوىٰ والجهل مردود»[٥].

١٣ . العقل سبب لاستقرار العلم في أفق النفس: «العلم بالتعلّم والتعلّم بالعقل يعتقد»[٦]، و «بالعقول تُنال ذروة العلوم»[٧].

١٤ . حُسن الانتخاب: «يا هشام! إنّ العاقل رضي بالدّون من الدنيا مع الحكمة، ولم يرض بالدّون من الحكمة مع الدنيا؛ فلذلك ربحت تجارتهم»[٨]. و «الحمق يوجب الفضول»[٩]، فالأحمق يفشل في اختيار الطريق الهادي لما ينفع.

١٥ . العقل يورث القناعة: «فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنىٰ، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنىٰ أبداً»[١٠].

---

١ . بحار الأنوار، ج١، ص١٣٧.
٢ . شرح غرر الحكم، ج٣، ص٤٠٥.
٣ . المصدر نفسه، ج٤، ص٨٨.
٤ . المصدر نفسه، ج١، ص١٢٤.
٥ . بحار الأنوار، ج١، ص١٣٨.
٦ . المصدر نفسه، ج١، ص١٣٨.
٧ . شرح غرر الحكم، ج٣، ص٢٢١.
٨ . بحار الأنوار، ج١، ص١٣٨.
٩ . شرح غرر الحكم، ج١، ص٢٣٢.
١٠ . بحار الأنوار، ج١، ص١٣٩.

١٦. العقل يوجب الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة: «يـا هـشام! إنّ العقـلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة؛ لأنّهم علموا أنّ الدنيا طالبـة ومطلوبـة، فمـن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتىٰ يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة، فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته»[١]، و «من عمَر دار إقامتـه فهـو العاقـل»[٢]، و «سبب فساد العقل حبّ الدنيا»[٣]؛ لذا كانت «شيمة ذوي الألباب والنُهـىٰ الإقبـال علىٰ دار البقاء والإعراض عن دار الفناء والتولّه بجنّة المأوىٰ»[٤].

١٧. بالعقل يُخشىٰ الله: «إنّه لم يخَف الله من لم يعقل عن الله»[٥].

١٨. العقل قرين المروّة[٦]: «يا هشام! لا دين لمن لا مـروّة لـه، ولا مـروّة لمـن لا عقَل له»[٧]. و «لا تكمل المروّة إلاّ للّبيب»[٨].

١٩. بالعقل يعرف المرء قدره؛ لأنّ «الجاهل من جهل قدره»[٩]. وفي الرواية: «يا هشام! إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: لا يجلس في صدر المجلس إلاّ رجـل فيـه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكـلام، ويـشير بـالرأي الذي فيه صلاح أهله؛ فمن لم يكن فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمـق»[١٠]، و «أعظـم

---

١. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٩.
٢. شرح غرر الحكم، ج٥، ص٢٦٩.
٣. المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٥.
٤. المصدر نفسه، ص١٩٢.
٥. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٩.
٦. المروّة هي الإنسانيّة الجامعة لمكارم الأخلاق وجميل الآداب.
٧. بحار الأنوار، ج١، ص١٤١.
٨. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٣٧٧.
٩. المصدر نفسه، ج١، ص٢٨١.
١٠. بحار الأنوار، ج١، ص١٤١.

الجهل جهل الإنسان أمر نفسه»[١]، و «أحمق الناس من ظـنّ أنّـه أعقـل النـاس»[٢]، و «أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه»[٣].

٢٠. بالعقل تُحلّ المشكلات: «إذا طلبتم الحوائج فاطلبوهـا مـن أهلهـا، قيـل: يابن رسول الله! ومَن أهلها؟ قال: الذين قصّ الله في كتابه ذكـرهم، فقـال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٤]، قال عليه السلام: هم أولوا العقول»[٥].

٢١. بالعقل يقدّر المرء الأمور ويحسب خطواته، جاء في الرواية: «يا هـشام! إنّ العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعـد مـا لا يقـدر عليه، ولا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يتقدّم علىٰ ما يخاف العجز عنه»[٦].

٢٢. بالعقل يُتجنّب الكذب: «يا هـشام! إنّ العاقـل لا يكـذب وإن كـان فيـه هواه»[٧]؛ لأنّ «ثمرة العقل الصدق»[٨] و «ما كذب عاقل»[٩].

٢٣. العقل نعم العون علىٰ الصعاب، إذ «لا يُستعان علىٰ الدهر إلاّ بالعقل»[١٠].

٢٤. العقل منجاة من العذاب الإلهي: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[١١]. إنّ الناجي اثنان: عاقل وهو من يكون كالنبع يفـيض بـزلال

---

١. شرح غرر الحكم، ج٢، ص٣٨٧.
٢. المصدر نفسه، ص٤١٦.
٣. المصدر نفسه، ص٤٤٢.
٤. الرعد: ١٩.
٥. بحار الأنوار، ج١، ص١٤١.
٦. المصدر نفسه.
٧. بحار الأنوار، ج١، ص١٤٣.
٨. شرح غرر الحكم، ج٣، ص٣٣٣.
٩. المصدر نفسه، ج٦، ص٦٥.
١٠. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٧.
١١. الملك: ١٠.

المعرفة، وسامع وهو من يكون كمقراة تستمدّ مائها من النهر أو البحر؛ فمن لا معرفةَ لديه ولا يتّبع ذا معرفة ولا يصغي إليه فهو من الهالكين.

٢٥. العقل آمرٌ وناهٍ: «العقل منزِّه عن المنكر آمرٌ بالمعروف»[١]، و «العقل يوجب الحذر»[٢].

٢٦. العقل سلّم الكمال والرقيّ: «العقل رقيٌّ إلى علّيّين»[٣]؛ لأنّ «العاقل يطلب الكمال والجاهل يطلب المال»[٤].

٢٧. العقل مصلح للفكر: «العقل يُحسن الرويّة»[٥].

٢٨. بالعقل تثبت المعرفة في القلب: فـ «من لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ولم يجد حقيقتها في قلبه»[٦].

**ملاحظة**

ذكرنا فيما سبق من الكلام أنّ التربية الصالحة بحاجة إلى عقدين:

**الأول**: العقد والربط بين موضوع القضيّة ومحمولها؛ لأنّه ما لم يكن بينهما ربط محكم، سواء كان ذلك في الدليل العقلي أم النقلي، فلن يحصل يقين بالقضيّة؛ لأنّ العلم القطعي فرع العقد بين طرفي القضيّة؛ لذا يطلقون «العقد» على القضيّة نفسها.

**الثاني**: العقد بين خلاصة القضيّة والقلب، وهذا العقد الجديد هو ما يسمّى بـ «العقيدة» أو «الإيمان»، وما لم يحصل هذا العقد الجديد فلن يتجلّى العقل الخالص.

---

١. شرح غرر الحكم، ج١، ص٣٢٨.
٢. المصدر نفسه، ص٢٠٤.
٣. المصدر نفسه، ص٣٥٠.
٤. المصدر نفسه، ص١٥٣.
٥. المصدر نفسه، ص١٣٣.
٦. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٩.

وعليه فبالعقد الأول يحصل العلم، وبالثاني يتجلّى العقل، الذي يُعبد به الرحمن وتُكتسب به الجنان.

وإذا ما رأيتَ عِلماً ولم ترَ عدلاً ولا طاعةً لله تعالى و لا جنّة تُكتسب، فاعلم أنّ العقل مغيّب. قال أمير المؤمنين عليه‌السلام: «ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه»[1].

والأمر الخليق بالذكر هنا أنّ الملاك في العقد الثاني هو تمازج القلب بعصارة العلم وتلاحمهما، بحيث يكون القلب في طوع العلم، وليس العلم في طوع القلب؛ لأنّ العلم نورٌ متّصلٌ بـ ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2] وهو إله الكون. وبما أنّ الحقيقة علم، فهي تتجلّى في القرآن الكريم في صورة الدين، والقرآن الحكيم حبل الله المتين، والاعتصام بالحبل يكون منجياً حينما يكون الحبل متدلّياً وفي متناول اليد، وليس حينما يُلقى أرضاً، والعلم والدين في الحقيقة هما حبل الله، طرفٌ منه بيد الإنسان وطرفه الآخر بيد الله تعالى، فهذا الحبل متدلٍّ من عند الله، لا ملقى على الأرض، وحقيقة العلم مصونة من كلّ آفة، وإذا خالط قلبُ إنسانٍ صالحٍ هذه الحقيقةَ فسيصان من كلّ بائقة.

٢٩. العقل نعم المعين على العبادة: «يا هشام! كان أمير المؤمنين عليه‌السلام يقول: ما من شيء عُبد الله به أفضل من العقل»[3].

٣٠. من ثمرات العقل العفّة والقناعة: «يُستدلّ على عقل الرجل بالتحلّي بالعفّة والقناعة»[4]، و «من عقَل عفَّ»[5].

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ١٠٧.

٢. النور: ٣٥.

٣. بحار الأنوار، ج١، ص١٤٠.

٤. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٤٨.

٥. المصدر نفسه، ج٥، ص١٣٥.

٣١. ومن مظاهره الوقار وسعة الصدر: «يستدلّ علىٰ عقل الرجل بكثرة وقاره وحسن احتماله»[١].

٣٢. ومن نتاجه الوفاء بالعهود: «لا يوثق بعهد من لا عقلَ له»[٢].

٣٣. ومن خصال العاقل الرفق في التعليم وقبول الحقّ في التعلّم: «ينبغي للعاقل إذا علّم أن لا يعنّف، وإذا عُلّم أن لا يأنف»[٣].

٣٤. ومن خصاله الحلم: «لا يحلم عن السفيه إلاّ العاقل»[٤]؛ لأنّه «مع العقل يتوّفر الحلم»[٥]، و «من أحسن العقل التحلّي بالحلم»[٦]، و «الحلم تمام العقل»[٧].

٣٥. ومن خصاله التغافل وكظم الغيظ: «نصف العاقل احتمالٌ ونصفه تغافل»[٨]، و «لا عقلَ كالتجاهل»[٩].

**ملاحظة**

إنّ الغفلة والجهل والجهالة ليست من العقل في شيء، بل لها عواقب وخيمة؛ لكنّ التغافل والتغاضي في محلّه ـ مع شرح الصدر والحلم والصفح عن زلل الغافلين والجاهلين ـ أمرٌ نافعٌ وحكيم؛ لأنّه يمهّد لإصلاح حال أولئك.

---

١. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٥٣.
٢. المصدر نفسه، ج٥، ص٤٠٦.
٣. المصدر نفسه، ص٤٤٧.
٤. المصدر نفسه، ص٣٩٥.
٥. المصدر نفسه، ص١٢١.
٦. المصدر نفسه، ص٢٦.
٧. المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٤.
٨. المصدر نفسه، ج٦، ص١٧٣.
٩. المصدر نفسه، ص٣٥٦.

٣٦. بالعقل يتأهّل المرء للنصح: «لا تنتصح بمن فاته العقل... فإنّ من فاته العقل يغشّ من حيث ينصح»[١].

٣٧. بالعقل ينجو العاقل من المكر: «لا يُلفىٰ العاقل مغروراً»[٢]، و «الجهل يجلب الغرر»[٣]؛ من هنا كانت «العاجلة غرور الحمقىٰ»[٤] وكانت «الدنيا غنيمة الحمقىٰ»[٥].

٣٨. الغنىٰ غنىٰ العقل، فـ «لا غنىٰ كالعقل» و «لا فقر لعاقل»[٦].

٣٩. العقل أمان، و «مصاحبة العاقل مأمونة»[٧].

٤٠. لا نفع للأخلاق بلا عقل: «لن ينجع الأدب حتىٰ يقارنه العقل»[٨].

٤١. بالعقل يُزهد في الدنيا: «لو عقل أهل الدنيا لخربت الدنيا»[٩]، و «من سخت نفسه عن مواهب الدنيا فقد استكمل العقل»[١٠]، و «ثمرة العقل مقت الدنيا وقمع الهوىٰ»[١١].

٤٢. بالعقل تُغتنم الفرص: «لو صحّ العقل لاغتنم كلّ امرء مَهله»[١٢].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٣٣١.
٢. المصدر نفسه، ص٣٦٨.
٣. المصدر نفسه، ج١، ص٢٠٥.
٤. المصدر نفسه، ص٢٢٥.
٥. المصدر نفسه، ص٢٨٠.
٦. المصدر نفسه، ج٦، ص٣٥٢و ٣٤٨.
٧. المصدر نفسه، ص١٢٦.
٨. المصدر نفسه، ج٥، ص٦٣.
٩. المصدر نفسه، ص١١١.
١٠. المصدر نفسه، ص٣٩٤.
١١. المصدر نفسه، ج٣، ص٣٣٤.
١٢. المصدر نفسه، ج٥، ص١١٢.

٤٣. العقل شرط الفهم: «من عقل فهم»[١].

٤٤. العاقل يستصفح مَن أساء إليهم: «من عقل استقال»[٢].

٤٥. بالعقل يحصل الجود: «من عقل سمح»[٣].

٤٦. العقل داعٍ إلى الصمت عن اللغو: «من عقل صمت»[٤]، و «الصمت آية النبل وثمرة العقل»[٥]، و «إذا تمّ العقل نقص الكلام»[٦].

**ملاحظة**

إنّ للكلام الحكيم فضيلةً لا تكاد تجد عِدلاً لها، وفضيلة السكوت تُعلم من الكلام؛ لأنّ «الكلام» هو ما يبرز فضيلة السكوت الذي يكون في محلّه، وإعجاز القرآن دليلٌ على أنّ كمال الكلام يصل إلى حدّ الإعجاز، وليس للسكوت هذه القيمة أبداً.

٤٧. العقل دليل الطريق الصائب: «من استرفد العقل أرفده»[٧] و «من استعان بالعقل سدّده»[٨].

٤٨. ذو العقل موقّر، بل و «من صاحب العقلاء وُقِّر»[٩].

٤٩. بالعقل تُحكم الشهوات: «من كمل عقله استهان بالشهوات»[١]، و «العاقل

---

١. شرح غرر الحكم، ج٥، ص١٣٥.
٢. المصدر نفسه، ص١٤٠.
٣. المصدر نفسه، ص١٤٥.
٤. المصدر نفسه، ص١٥٤.
٥. المصدر نفسه، ص٣٥٤.
٦. نهج البلاغة، الحكمة٧١.
٧. شرح غرر الحكم، ج٥، ص١٥٥.
٨. المصدر نفسه، ص١٩٠.
٩. المصدر نفسه، ص١٨١.

«العاقل من أمات شهوته»[٢] و «ردع الهوىٰ شيمة العقلاء»[٣]، و «الجاهل من خدعته المطالب»[٤].

٥٠. بالعقل تُحمد المساعي: «من قدّم عقله علىٰ هواه حسنت مساعيه»[٥]، و «العاقل يجتهد في عمله ويقصّر من أمله»[٦].

٥١. بالعقل تكون الحكمة: «من ملك عقله كان حكيماً»[٧]، و «بالعقل يُستخرج غور الحكمة»[٨]، و «رغبة العاقل في الحكمة وهمّة الجاهل في الحماقة»[٩]؛ لذا كانت «ضالّة العاقل الحكمة فهو أحقّ بها حيث كانت»[١٠].

٥٢. بالعقل تكون العزّة: «من فاته العقل لم يَعدُه الذّلّ»[١١]، وأعقل الناس «أرفعهم درجةً في الدنيا والآخرة»[١٢].

٥٣. بالعقل تَحمد السيرة: «من غلب عقلُه شهوتَه وحلمُه غضبَه كان جديراً بحسن السيرة»[١٣].

---

١. شرح غرر الحكم، ج١، ص٣١٣.

٢. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٥٥.

٣. المصدر نفسه، ج٤، ص٨٩.

٤. المصدر نفسه، ج١، ص٣١٢.

٥. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٦٣.

٦. المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢.

٧. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٦٥.

٨. المصدر نفسه، ج٣، ص٤٠٤.

٩. المصدر نفسه، ج٤، ص٩٤.

١٠. المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٧.

١١. المصدر نفسه، ج٥، ص٣٥٠.

١٢. بحار الأنوار، ج١، ص١٣٧.

١٣. شرح غرر الحكم، ج٥، ص٣٨٩.

٥٤ . العاقل نعم المشير، فإنّ «رأي العاقل ينجي»[١]، و «من استشار ذوي النُهىٰ والألباب فاز بالحزم والسداد»[٢]، و «من استعان بذوي الألباب سلك سبيل الرشاد»[٣]؛ فـ «شاور ذوي العقول تأمن الزلل والندم»[٤]، و «استشر عدوّك العاقل واحذر رأيَ صديقك الجاهل»[٥].

٥٥ . بالعقل يكون الاستعداد للآخرة: «من عقل تيقّظ من غفلته وتأهّب لرحلته وعمّر دار إقامته»[٦].

٥٦ . بالعقل تُملك الشهوة: «من لم يملك شهوته لم يملك عقله»[٧]؛ إذ «لا عقلَ مع الشهوة»[٨]، و «الشهوات تسترقّ الجَهول»[٩].

٥٧ . من العقل عدم الرضا بمدحٍ كاذبٍ: «من مدحك بما ليس فيك فهو ذمٌّ لك إن عقلت»[١٠].

٥٨ . من آثار العقل حسن التّدبير: «من العقل مجانبة التّبذير وحُسن التّدبير»[١١]، و «لا عقلَ كالتّدبير»[١٢]، و «أدلّ شيء علىٰ غزارة العقل حسن التّدبير»[١٣].

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٤، ص٩٥.
٢ . المصدر نفسه، ج٥، ص٣٩٦.
٣ . المصدر نفسه، ص٣٩٦.
٤ . المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٩.
٥ . المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٦.
٦ . المصدر نفسه، ج٥، ص٣٩٧.
٧ . المصدر نفسه، ص٤١٦.
٨ . المصدر نفسه، ج٦، ص٣٦١.
٩ . المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٠.
١٠ . المصدر نفسه، ج٥، ص٤٢٩.
١١ . المصدر نفسه، ج٦، ص٢٢.
١٢ . المصدر نفسه، ص٣٤٧.
١٣ . المصدر نفسه، ج٢، ص٤٢٩.

٥٩ . من العقل حجب العلم عمّن ليس أهله: «من عقل الرجل أن لا يتكلّم بجميع ما أحاط به علمُه»[١]، فـ «لا تتكلّم بكلّ ما تعلم فكفىٰ بذلك جهلاً»[٢].

٦٠ . العاقل من يخشىٰ الموت ويعدّ للقبر وما بعده عدّته: «من العقل التزوّد ليوم المعاد»[٣]، و «ينبغي للعاقل أن يعمل للمعاد ويستكثر من الزاد قبل زهوق نفسه وحلول رمسه»[٤]، كما «إنّ العاقل ينبغي أن يحذر الموت في هذه الدار ويحسن له التأهّب، قبل أن يصل إلىٰ دارٍ يتمنّىٰ فيها الموت فلا يجده»[٥]

٦١ . في العقل صواب الحديث: «من دلائل العقل النُّطق بالصواب»،[٦] و «يُستدلّ علىٰ عقل كلّ امرئ بما يجري علىٰ لسانه»[٧]. و «يُستدلّ علىٰ عقل الرجل بحسن مقاله»[٨]، و «ينبئ عن عقل كلّ امرئ ما ينطق به لسانُه»[٩]، و «جميل القول دليل وفور العقل»[١٠]، و «دليل عقل الرجل قوله»[١١]، و «كلام الرجل ميزان عقله»[١٢] و «كلام العاقل قوتٌ»[١٣].

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٦، ص٢٤.

٢ . المصدر نفسه، ص٢٦٦.

٣ . المصدر نفسه، ص٣٣.

٤ . المصدر نفسه، ص٤٤٠.

٥ . المصدر نفسه، ج٢، ص٥٨٧.

٦ . المصدر نفسه، ج٦، ص٤٠.

٧ . المصدر نفسه، ص٤٤٨.

٨ . المصدر نفسه، ص٤٤٩.

٩ . المصدر نفسه، ص٤٧١.

١٠ . المصدر نفسه، ج٣، ص٣٦٩.

١١ . المصدر نفسه، ج٤، ص٨ .

١٢ . المصدر نفسه، ص٦٢٩ .

١٣ . المصدر نفسه، ص٦٢٦ .

٦٢. العاقل منصف؛ لأنّ «من علامات العقل العمل بسنّة العدل»[١].

٦٣. بالعقل يعرف المرء قدره: «ما عقلَ من عَدا طَوره»[٢].

٦٤. العاقل محبٌّ للعلماء: فـ «ينبغي للعاقل أن يكثر من صحبة العلماء والأبرار ويجتنب مقارنة الأشرار والفجّار»[٣]؛ لأنّه «ما ضادّ العلماء كالجهّال»[٤].

يقول فردوسي في تأثّر القرين بقرينه:

إن مررتَ ببائعي العنبر فستفوح ثيابك برائحة العنبر...

وإن قربت قليلاً من الفحّام فلن تبوء إلاّ بالسواد[٥]

وقد ورد هذا المعنىٰ في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «صحبة الأخيار تكسب الخير، كالرّيح إذا مرّت بالطيب حملت طيباً»[٦]، و «صحبة الأشرار تكسب الشرّ، كالرّيح إذا مرّت بالنتن حملت نتناً»[٧]. وهو عليه السلام معلّم فردوسي وغيره من الحكماء والأدباء.

٦٥. من ثمرات العقل الأدب: «نعم قرين العقل الأدب»[٨]، و «لا عقلَ لمن

---

١. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٤.

٢. المصدر نفسه، ص٦٢.

٣. المصدر نفسه، ص٤٤٦.

٤. المصدر نفسه، ص٨٣.

٥. نصّ هذه الأبيات باللغة الفارسية:

به عنبر فروشان اگر بگذري شود جامه تو همه عنبري

و گر تو شوي نزد اَنگِشت گر ازو جز سياهي نيابي دگر

٦. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٢٠٢.

٧. المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠٥.

٨. المصدر نفسه، ج٦، ص١٥٨.

لا أدبَ له»[١]، و «صلاح العقل الأدب»[٢]، و «الأدب صورة العقل»[٣]، و «الأدب في الإنسان كشجرة أصلها العقل»[٤]، و «أفضل العقل الأدب»[٥]، و «إنّ بذوي العقول من الحاجة إلى الأدب كما يظمأ الزرع إلى المطر»[٦].

**ملاحظات**

**الأولى:** الأدب ظَرْفٌ وذوق خاصّ في الكلام والسلوك والأسلوب. وما يستعمل بأنحاء مختلفة في الكلام والفعل والأسلوب لا يكون ذا عذوبة إلاّ بالأدب، فاعتبر إن شئت بجواب ابن عباس حينما سُئل: أنت أكبر أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر وأنا وُلدتُ قبله[٧]. فقد تجلّى في جوابه الأدب والظَّرْف والكياسة؛ لأنّه لو قال: أنا أكبر، لفاته جمالُ أدب نفي توّهم التعالي على النبيّ، وجمالُ تجنّب حبّ الذات، وفنُّ تجنّب استعمال اللفظ المشترك؛ لكنّه بجوابه المذكور أجاب السائل بالحقّ مع جمال وظرف وبراعة في الكلام.

**الثانية:** إنّ الغرض من العلوم الأدبيّة إضفاء الحلاوة والجمال على المعاني المنطوقة والمقروءة؛ لتحلو المحاورة وتلتذّ الأذهان وتبتهج النفوس والأسماع، كالتذاذ القوّة الباصرة وسائر القوى بأدبيّات فنّ الرسم والهندسة، والخطّ والنسيج والصناعة، وغيرها من المهن.

---

١. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٠٠.
٢. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٥.
٣. المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٦.
٤. المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩.
٥. المصدر نفسه، ص٣٨٩.
٦. المصدر نفسه، ص٥١٣.
٧. كحل البصر في سيرة سيّد البشر، ص٥٨.

**الثالثة:** أقسام الأدب عديدة، فهناك أدب الأفراد مع بعضهم البعض، وأدب المرء مع نفسه، وأدبه مع أسرته، وأدبه مع المجتمع (سواء مجتمعه اللصيق أم الأوسع أم المجتمع الإنساني العالمي).

وهناك الأدب مع منارات الفكر، لا سيّما الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

والأهم من كلّ ذلك هو الأدب مع الله سبحانه، فإنّه لا يُقاس بشيء ولا يعدله شيء، ولا يعرف أحدٌ الأدب مع الله حقّ المعرفة ويقوم بحقّه إلاّ الإنسان الكامل المعصوم، الذي حظي بجليل خَلعة الخلافة الإلهيّة باليد الغيبيّة للمستخلِف نفسه، واصطبغت علومه وفعاله بصبغة خليفة الله. ولا شكّ في أنّ سنّة وسِيرة الإنسان الكامل المنوّرة بنور خلافة ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] لن تكون غير الجمال والأدب العذب والعقل الخالص.

٦٦. الدين منوط بالعقل، فمن «لا دينَ لمن لا عقلَ له»[2].

٦٧. من ثمرات العقل مداومة طاعة الله تعالى، فـ«ينبغي للعاقل أن لا يخلو في كلّ حالة عن طاعة ربّه ومجاهدة نفسه»[3].

٦٨. ومن ثمراته بُعد النظر واجتناب الذنب: «إنّما العقل التجنّب من الإثم والنظر في العواقب والأخذ بالحزم»[4]، و«أعقل الناس أنظرهم في العواقب»[5]، كما «إنّ العاقل من نظر في يومه لغده، وسعىٰ في فكاك نفسه، وعمل لما لا بدّ منه ولا محيصَ له عنه»[6].

---

١. النور: ٣٥.

٢. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٠٠.

٣. المصدر نفسه، ص٤٤٠.

٤. المصدر نفسه، ج٣، ص٨٤.

٥. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٨٤.

٦. المصدر نفسه، ص٥٥٧.

٦٩. العاقل تكفيه الإشارة في التأنيب والعتاب: «إذا لوّحت للعاقل فقد أوجعته عتاباً»[١]، بل إنّ «تلويح زلّة العاقل له من أمضّ عتابه»[٢]، و «عقوبة العقلاء التلويح وعقوبة الجهلاء التصريح»[٣].

**ملاحظتان**

**الأولى**: إنّ المرء العقول يتمحور قبضه وبسطه، وجذبه ودفعه، وإرادته وكراهته، وحبّه وبغضه، وتولّيه وتبرّيه، حول محور المعارف العقليّة؛ ولكن حيثُ إنّه كلّما قوي الإدراك اشتدّ بروز آثاره وتجلّيه في الحزن والسرور و... وحيثُ إنّ الإدراك العقلي أقوىٰ من الحسّي ـ لأنّ العقل أعظم من الحسّ، والمعقول أعلىٰ من المحسوس، والعاقل أرقىٰ من الحسّاس ـ كان التألّم بالإشارة والتعريض للعاقل أشدّ من القرع والطعن لسواه؛ لأنّ الأول يُدرَك بالعقل والثاني بالحسّ. من هنا كان تألّم العقلاء بالكناية والإشارة وما شابه أشدّ بمراتب من تألّم الجهلاء بالعصا والسنان وما شابه.

كما أنّ ابتهاج المفكّرين بتحليل عقليّ عميق لمسألةٍ ما لا يقاس بلذّة طعام وشراب الغارقين في الحسيّات، والعاكفين علىٰ ملء بطونهم والمميتين لفطنهم.

لذا ترىٰ العرفاء تجاوزوا الجنّة المحسوسة سعياً إلىٰ الجنّة المعقولة، وخطابهم للعبّاد ضعيفيّ الهمّة الذين قنعوا بالجنّة الحسيّة: إنّ القناعة بالقصور والحور المحسوسة قصورٌ في الهمّة، وغفلةٌ عن المدار الحقيقي للذّة والابتهاج؛ فيجب بلوغ مقام الخوف العقليّ، ليشملنا وعد: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٤].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٣، ص١٦٢.

٢. المصدر نفسه، ص٢٨٥.

٣. المصدر نفسه، ج٤، ص٣٦٢.

٤. الرحمن: ٤٦.

**الثانية:** ما سبق بيانُه كان في الفرق بين العاقل والحسّاس، وأمّا في الفرق بينه وبين الواهم والمتخيّل و... فإنّ غير العاقل لا يستوعب بلا تصريح وتنصيص ودلالة مطابقيّة بيّنة، بينما تكفي العقولَ الإشارةُ وإن دقّت؛ لأنّ الإدراك العقليّ وإن بالإشارة أقوىٰ بمراتب من الإدراك الوهميّ والخياليّ وإن بالتصريح والدلالة النصيّة، وشدّة وضعف الحزن والسرور تابعان لدرجة الإدراك؛ من هنا كان حزن وسرور العقول أشدّ من كمد وسعادة الواهمين والمتخيّلين.

٧٠. العاقل مسترشد لا مستبدّ: «إذا أنكرت من عقلك شيئاً فاقتدِ برأي عاقل يزيل ما أنكرته»[١]، و «حقٌّ علىٰ العاقل أن يضيف إلىٰ رأيه رأي العقلاء، ويضمّ إلىٰ علمه علوم الحكماء»[٢]، و «حقٌّ علىٰ العاقل أن يستديم الاسترشاد ويترك الاستبداد»[٣].

٧١. «بالعقل تنال الخيرات»[٤].

٧٢. عقل الرسول علامة علىٰ كمال المرسِل: «بعقل الرسول وأدبه يُستدّل علىٰ عقل المرسِل»[٥]، و «ثلاثة تدلّ علىٰ عقول أربابها: الرسول والكتاب والهديّة»[٦].

٧٣. «بالعقل كمال النفوس»[٧].

٧٤. بالعقل ينال الصلاح ويُتجنّب الشرّ: «بالعقل صلاح كلّ أمر»[٨]،

---

١. شرح غرر الحكم، ج٣، ص١٨٥.

٢. المصدر نفسه، ص٤٠٨.

٣. المصدر نفسه، ص٤١٠.

٤. المصدر نفسه، ص٢٠٥.

٥. المصدر نفسه، ص٢٣٢.

٦. المصدر نفسه، ص٣٤٣.

٧. المصدر نفسه، ص٢٣٤.

٨. المصدر نفسه.

و «بالجهل يستثار كلّ شرّ»[١].

٧٥. «ثمرة العقل الاستقامة»[٢].

٧٦. «ثمرة العقل لزوم الحقّ»[٣].

٧٧. «ثمرة العقل صُحبة الأخيار»[٤]، و «خليل المرء دليلٌ على عقله»[٥].

شعر:

قل لي من ترافق... أقل لك من أنت[٦]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي[٧]

٧٨. «ثمرة العقل مداراة الناس»[٨]، و «عنوان العقل مداراة الناس»[٩].

**ملاحظات**

**الأولى:** لم يرد عنوان «المداراة» في القرآن الكريم. وجاء هذا العنوان في اللغة تارةً بمعنى المخاتلة والمخادعة[١٠]، ولا صبغة عقليّة لهذا المعنى، اللهمّ إلاّ في حالة محاربة العدوّ المهاجم ودفعه عن الثغور الإسلاميّة. وتارةً بمعنى الملاينة في معاشرة

---

١. شرح غرر الحكم، ج٣، ص٢٣٤.

٢. المصدر نفسه، ص٣٢٢.

٣. المصدر نفسه، ص٣٢٥.

٤. المصدر نفسه، ص٣٢٧.

٥. المصدر نفسه، ص٤٦١.

٦. بيت باللغة الفارسية نصّه:

تو اوّل بگو با كيان زيستي پس آن گه بگويم كه تو كيستي

٧. شرح غرر الحكم، ج٣، ص٤٦١.

٨. المصدر نفسه، ص٣٢٩.

٩. المصدر نفسه، ج٤، ص٣٦٠.

١٠. قال في معجم مقاييس اللغة: «ودريتُه: ختَلْتُه».

الناس واحتمالهم[١]، وهذا المعنىٰ من آثار العقل المحمود، والتوصيّة الخلقيّة بالمدارة يُراد بها حُسن صحبة الناس وملاينتهم، لا خداعهم ومخاتلتهم، كما يقول الشاعر:

ودارِهم ما دمتَ في دارِهم وأرضِهم ما دمتَ في أرضِهم

**الثانية:** مجال المداراة هي منطقة الفراغ، وهي دائرة المباح أو المواضع التي يحسن فيها التغافل والتجاهل، وليس بمعنىٰ التساهل في العمل بالأحكام الإلهيّة، وتجاهل التشريعات الدينيّة والحدود والحِكم الربانيّة، وإهمال الأوامر والنواهي الشرعيّة؛ فإنّ هذا كلّه أمر غير جائز، بل ومنافٍ لحكم العقل والنقل.

وعليه، فالمداراة التي هي من آثار العقل، ليست من قبيل السفاهة والحمق وما شابهها في شيء.

**الثالثة:** إنّ سماحة الشريعة كافية لتسهيلها وتيسيرها علىٰ المكلّفين، فلا معنىٰ لتساهل أكثر من ذلك.

**الرابعة:** إنّ من سماحة الشريعة ويسرها أن حرّمت التجسّس علىٰ أسرار الآخرين وفضح عيوبهم المستورة، وحذّرت من السطحيّة البلهاء، المتمظهرة في التشدّد والتحجّر والجمود؛ لكنّ حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تبقىٰ شاخصة وقائمة، وتبقىٰ بوّابة حصن مقارعة الفساد عصيّةً علىٰ الفتح.

**الخامسة:** إنّما تكون المدارة حسنةً إذا ما خلت من الإفراط؛ لأنّ الإفراط فيها مذموم كالتفريط، والحدّ الوسط هو الحسن. قال أمير المؤمنين في المداراة المفرّط فيها: «كم أداريكم كما تُدارىٰ البكار العَمِدةُ والثياب المتداعية، كلّما حِيصت من جانب تهتّكت من آخر...»[٢].

---

١ . انظر: لسان العرب، مادة «درىٰ».

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٦٩.

٧٩. «ثمرة العقل العمل للنجاة»[١].

٨٠. «ثروة العاقل في علمه وعمله» و «ثروة الجاهل في ماله وأمله»[٢].

٨١. «ذو العقل لا ينكشف إلاّ عن احتمال وإجمال وإفضال»[٣].

٨٢. «رأس العقل التودّد إلىٰ الناس»[٤]، و «أوّل العقل التودّد»[٥]، و «رأس الجهل معاداة الناس»[٦].

٨٣. «عمارة القلوب في معاشرة ذوي العقول»[٧]؛ ولذا ورد: «أطع العاقل تغنم»[٨].

٨٤. «عقول الفضلاء في أطراف أقلامها»[٩].

٨٥. «غاية العقل الاعتراف بالجهل»[١٠].

٨٦. «غريزة العقل تحدو علىٰ استعمال العدل»[١١].

٨٧. «غريزة العقل تأبىٰ ذميم الفعل»[١٢].

٨٨. «في إخلاص الأعمال تنافس أولي النُهىٰ والألباب»[١٣].

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٣، ص٣٢٩.

٢ . المصدر نفسه، ص٣٥١.

٣ . المصدر نفسه، ج٤، ص٣١.

٤ . المصدر نفسه، ص٥١.

٥ . المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٤.

٦ . المصدر نفسه، ج٤، ص٥١.

٧ . المصدر نفسه، ص٣٥٦.

٨ . المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٥.

٩ . المصدر نفسه، ج٤، ص٣٦٥.

١٠ . المصدر نفسه، ص٣٧٤.

١١ . المصدر نفسه، ص٣٧٩.

١٢ . المصدر نفسه، ص٣٧٩.

١٣ . المصدر نفسه، ص٤٠٢.

٨٩. «كم من ذليل أعزّه عقله» و «كم من عزيز أذلّه جهله»[١].

٩٠. «كثرة الصواب تنبئ عن وفور العقل»، و «كثرة الخطأ تنذر بوفور الجهل»[٢]، و «كيفيّة الفعل تدلّ علىٰ كميّة العقل»[٣].

٩١. «كلّما زاد عقل الرجل قوي إيمانه بالقدر واستخفّ بالغِيَر»[٤].

٩٢. «كسب العقل كفّ الأذىٰ»[٥].

٩٣. «قلب الأحمق وراء لسانه ولسان العاقل وراء قلبه»[٦]. بمعنىٰ أنّ الأحمق يبادر بالكلام قبل التدبّر فيه ثمّ يتدبّره، أمّا العاقل فهو يفكّر أولاً ثمّ يتكلّم؛ لذا ترىٰ الأحمق دائم الندم والعاقل دائم الرضا. وقد ورد أنّ «اللسان ترجمان العقل»[٧]، و «اللسان معيارٌ، أرجحه العقل وأطاشه الجهل»[٨]، وأنّ «العاقل من عقل لسانه إلاّ عن ذكر الله»[٩].

٩٤. «صاحِبِ العقلاءَ تغنمْ»[١٠] و «صحبة الأحمق عذاب الروح»، و «صديق الأحمق في تعب»، و «صديق الجاهل معرّض للعطب»[١١].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٤، ص٥٤٦.
٢. المصدر نفسه، ص٥٨٩.
٣. المصدر نفسه، ص٦٢٦.
٤. المصدر نفسه، ص٦٢٠.
٥. المصدر نفسه، ص٦٢٥.
٦. المصدر نفسه، ص٥٠٧.
٧. المصدر نفسه، ج١، ص١٤١.
٨. المصدر نفسه، ج٢، ص٩٣.
٩. المصدر نفسه، ص٣٧.
١٠. المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠٤.
١١. المصدر نفسه، ص٢١٠.

٩٥. العاقل كتوم للسّر: «صدر العاقل صندوق سرّه»[١].

٩٦. بالعقل يقرب الصواب: «ظنّ ذوي النُهىٰ والألباب أقرب شيء من الصواب»[٢]، و «ظنّ الرجل علىٰ قدر عقله»[٣].

٩٧. الكرم: «عليك بالسخاء فإنّه ثمرة العقل»[٤].

٩٨. العاقل نعم القرين: «عليك بمقارنة ذي العقل والدّين فإنّه خير الأصحاب»[٥].

٩٩. العاقل نعم الإلْف؛ لكنّ «العاقل يألف مثله» و «الجاهل يميل إلىٰ شكله»[٦].

شعر

متىٰ كان الصقر إلفاً للحمامة؟!

ومتىٰ كانت العنقاء والذبابة خليليتين؟![٧]

١٠٠. من ثمار العقل عمارة الآخرة: «العاقل من هجر شهوته وباع دنياه بآخرته»[٨]، و «العاقل مهموم مغموم»[٩]، و «الجهل يفسد المعاد»[١٠].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٤، ص٢١٥.
٢. المصدر نفسه، ص٢٧٩.
٣. المصدر نفسه، ص٢٧٢.
٤. المصدر نفسه، ص٢٨٤.
٥. المصدر نفسه، ص٢٩١.
٦. شرح غرر الحكم، ج١، ص٨٦.
٧. أمثال وحكم، ج٣، ص١١٩١؛ ج١، ص٢٣٣. وهو كالتالي:
با كبوتر باز كي شد هم نفس؟ كي شود هم راز، عنقا با مگس؟
٨. شرح غرر الحكم، ج٢، ص٣٤.
٩. المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٧.
١٠. المصدر نفسه، ص١٥٧.

١٠١. من نتاج العقل الطمأنينة: «السكينة عنوان العقل»[١].

١٠٢. ومن مظاهره حسن الخُلق: «الخُلق المحمود من ثمار العقل»، و «الخُلق المذموم من ثمار الجهل»[٢].

١٠٣. «العاقل من صدّق أقواله أفعاله»[٣].

١٠٤. العاقل وفيّ: «الوفاء حلية العقل وعنوان النُّبل»[٤].

١٠٥. العاقل صموت: «العاقل لا يتكلّم إلاّ بحاجته أو حجّته»[٥].

١٠٦. العاقل متورّع: «العاقل من تورّع عن الذنوب وتنزّه من العيوب»[٦].

١٠٧. العاقل كيّس فهم: «الكيّس أصله عقله»[٧]، و «أصل العقل الفكر وثمرته السلامة»[٨].

١٠٨. من ثمرات العقل العمل الصالح في موضعه المستحقّ: «العاقل من أحسن صنائعه ووضع سعيه في مواضعه»[٩]، «العاقل من وضع الأشياء مواضعها والجاهل ضدّ ذلك»[١٠]. وقيل له عليه السلام: صف لنا العاقل، فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه، فقيل: فصف لنا الجاهل، فقال: قد فعلتُ[١١].

---

١. شرح غرر الحكم، ج١، ص١٩٩.
٢. المصدر نفسه، ص٣٣٩.
٣. المصدر نفسه، ص٣٦٥.
٤. المصدر نفسه، ج٢، ص١٠.
٥. المصدر نفسه، ص٣٥.
٦. المصدر نفسه، ص٣٦.
٧. المصدر نفسه، ص٣٧.
٨. المصدر نفسه، ص٤١٧.
٩. المصدر نفسه، ص٥١.
١٠. المصدر نفسه، ص٧٩.
١١. نهج البلاغة، الحكمة ٢٣٥.

**ملاحظة**

إنّ معرفة الشيء تارةً تكون بمعرفة أجزائه الحدّيّة، وتارةً بمعرفة آثاره وعوارضه، وهذه المعرفة المباشرة عمليّة ونافعة في باب البرهان والخطابة.

وتارةً تكون بمعرفة ضدّه، كما قيل: «تُعرف الأشياء بأضدادها»، بمعنىٰ أنّه بمعرفة حدّ أو رسم أحد الضدّين يمكن معرفة الضدّ الآخر، وهذه المعرفة غير المباشرة نافعة في باب الجدل؛ لكنّها لا تورث اليقين المنطقي، إلاّ أن تقترن بشواهد أخرىٰ مؤثّرة في حصوله.

١٠٩. العاقل يحتمل خطأ رأيه: «العاقل من اتّهم رأيه ولم يثق بكلّ ما تسوّل له نفسه»[١]، «اتّهموا عقولكم فإنّه من الثقة بها يكون الخطأ»[٢].

١١٠. «العاقل إذا علم عمل، وإذا عمل أخلص، وإذا أخلص اعتزل»[٣].

١١١. «العاقل من صان لسانه عن الغيبة»[٤].

١١٢. «العاقل من يملك نفسه إذا غضب وإذا رغب وإذا رهب»[٥].

١١٣. العاقل يحاسب نفسه: «العاقل يتقاضى نفسه بما يجب عليه ولا يتقاضى لنفسه بما يجب له»[٦]. فهو يشدّد علىٰ نفسه فيما يجب عليه، ويتساهل فيما له علىٰ الآخرين ويعفو عنهم، ولا يجهد في تحقيق رغبات الترف وإن كانت مشروعة.

١١٤. «العقل أن تقتصد فلا تسرف، وتعِدَ فلا تخلف، وإذا غضبتَ حلمت»[٧].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٢، ص٦٤.
٢. المصدر نفسه، ص٢٦٧.
٣. المصدر نفسه، ص٨٥.
٤. المصدر نفسه، ص٩٠.
٥. المصدر نفسه، ص١١١.
٦. المصدر نفسه، ص١٢٤.
٧. المصدر نفسه، ص١٤٥.

١١٥ . «العقل أن تقول ما تعرف وتعمل بما تنطق به»[١].

١١٦ . «العاقل من لا يضيع له نفَساً فيما لا ينفعه، ولا يقتني ما لا يصحبه»[٢].

١١٧ . «العاقل من سلّم إلى القضاء وعمل بالحزم»[٣]، فهو بعيد الفكرة محتاط في فعله.

١١٨ . «العاقل من قمع هواه بعقله»[٤].

١١٩ . «أعقلكم أطوعكم»[٥]، و «أعقل الناس أطوعهم لله سبحانه»[٦]، وبالتالي يكون «أعقل الناس أقربهم من الله»[٧].

١٢٠ . العاقل بين الخوف والرجاء: «أعقل الإنسان محسنٌ خائف»[٨].

١٢١ . العاقل رفيع في خصاله: «أعقل الناس أبعدهم عن كلّ دنيّة»[٩].

١٢٢ . «أعقل الناس من كان بعيبه بصيراً وعن عيب غيره ضريراً»[١٠].

١٢٥ . العاقل لا ينخدع بالطمع: «إنّ العاقل لا ينخدع للطمع»[١١].

١٢٦ . «أعقل الناس من أطاع العقلاء»[١٢]، فالعاقل من انتفع بمشورة العقل

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٢، ص١٥٠.

٢ . المصدر نفسه، ص١٥٥.

٣ . المصدر نفسه، ص١٦٢.

٤ . المصدر نفسه.

٥ . المصدر نفسه، ص٣٦٩.

٦ . المصدر نفسه، ص٤٢٨.

٧ . المصدر نفسه، ص٤٤٣.

٨ . المصدر نفسه، ص٣٨٧.

٩ . المصدر نفسه، ص٤١٣.

١٠ . المصدر نفسه، ص٤٤٥.

١١ . المصدر نفسه، ص٤٩٧.

١٢ . المصدر نفسه، ص٣٧٤.

الجمعيّ ورأي الحكماء، ما لم يقم برهانٌ على خطأ الرأي الجمعيّ.

١٢٧. من ثمرات العقل الشجاعة: «لا أشجع من لبيب»[١].

١٢٨. العاقل عفوٌّ: «أعقل الناس من لا يتجاوز الصمت في عقوبة الجهّال»[٢]

١٢٩[٣]. مقتضى العقل مواجهة أهل المنكر باللين والرحمة: «ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب المريض»[٤]؛ لأنّ الوظيفة الإسلاميّة الملقاة على عاتق المسلم هي مواجهة المنكر، لا محاربة فاعل المنكر؛ لأنّ فاعل المنكر كالمريض، فيجب على الآمر بالمعروف معاملته برفق وتحنّن؛ ليعينه بذلك على ترك المنكر والإقلاع عن الذنب.

## ٥ ـ سلبيّات غياب العقل

١. العُجب والغرور: «من أُعجب بفعله أُصيب بعقله»[٥]، و «آفة اللبّ العُجب»[٦]، و «رضاك عن نفسك من فساد عقلك»[٧]، و «رضا المرء عن نفسه برهان سخافة عقله»[٨]، و «العُجب حُمقٌ»، بل «العُجب رأس الحماقة»[٩]،و «المعجب لا عقلَ له»[١٠].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٣٧٣

٢. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦٥.

٣. عدد الفوائد في أصل الكتاب (١٣٣)، لكن تمّ دمج (٤) منها لتكرّرها.

٤. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٤٤.

٥. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٨٣.

٦. المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٩.

٧. المصدر نفسه، ج٤، ص٩٢.

٨. المصدر نفسه، ص١٠١.

٩. المصدر نفسه، ج١، ص٩٥.

١٠. المصدر نفسه، ص٢٥٠.

٢. المزاح الكثير في غير موضعه: «من غلب عليه الهزل فسد عقله»[١]، و «من قلّ عقله كثر هزله»[٢]، و «أعقل الناس من غلب جدّه هزله واستظهر على هواه بعقله»[٣].

وللعقل الكامل السلطة التامّة على الهزل، وكمال العقل في السيطرة على هوى النفس.

٣. الحياء من قول الحقّ، فـ «من استحيى من قول الحقّ فهو أحمق»[٤].

وأمّا مسألة التقيّة والسكوت في موضعه فهو بحث آخر.

٤. الجدال والمراء بغير الحقّ: «من مارى السفيه فلا عقلَ له»[٥].

٥. دعوى الكمال العلميّ: «من ادّعى من العلم غايته فقد أظهر من جهله نهايته»[٦].

٦. التعويل على الأمل: «من الحمق الإتّكال على الأمل»[٧]، و «ما عقل من أطال أمله»[٨]؛ لأنّ «الآمال غرور الحمقى»[٩]، و «الأمانيّ شيمة الحمقى»[١٠]؛ فـ «إيّاك والثقة بالآمال فإنّها من شيم الحمقى»[١١]، واعلم أنّ «كثرة الأماني من فساد العقل»[١].

---

١. شرح غرر الحكم، ج٥، ص٢٩٣.

٢. المصدر نفسه، ص٣٢٠.

٣. المصدر نفسه، ج٢، ص٤٧٧.

٤. المصدر نفسه، ج٥، ص٣٣٩.

٥. المصدر نفسه، ص٤٣٩.

٦. المصدر نفسه، ص٤٦٤.

٧. المصدر نفسه، ج٦، ص١٧.

٨. المصدر نفسه، ص٦١.

٩. المصدر نفسه، ج١، ص١٦٦.

١٠. المصدر نفسه، ص١١٩.

١١. المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠١.

٧. مرافقة الجاهلين: «من عدم العقل مصاحبة ذوي الجهل»[2]، فـ «إيّاك ومصادقة الأحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك»[3]، و «احذر مجالسة الجاهل كما تأمن من مصاحبة العاقل»[4].

٨. مؤاخاة الفسقة: «من أعظم الحُمق مؤاخاة الفجّار»[5].

٩. من علامات غياب العقل التلوّن: «من أمارات الأحمق كثرة تلوّنه»[6].

١٠. ومن آثاره الوقاحة: «ما أوقح الجاهل»[7]، و «الجاهل لا يرتدع»[8].

١١. ومن آثاره عدم القدرة على حفظ السرّ، فـ «لا تسرّ إلى الجاهل شيئاً لا يطيق كتمانه»[9].

١٢. ومن علاماته الطمع: «لا تطمع في كلّ ما تسمع فكفى بذلك حمقاً»[10].

١٣. الجاهل لعوب: «لا يثوب العقل مع اللّعب»[11]؛ لأنّ «اللهو من ثمار الجهل»[12]، و «اللهو قوت الحماقة»[13]، و «أفضل العقل مجانبة اللهو»[1].

---

١. المصدر نفسه، ج٤، ص٥٨٩.

٢. شرح غرر الحكم، ج٥، ص٤٦٤.

٣. المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٠.

٤. المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٩.

٥. المصدر نفسه، ج٦، ص٢١.

٦. المصدر نفسه، ج٦، ص٤٦.

٧. المصدر نفسه، ج٦، ص٧٦.

٨. المصدر نفسه، ج١، ص١١٧.

٩. المصدر نفسه، ج٦، ص٢٨٤.

١٠. المصدر نفسه، ص٣٤٥.

١١. المصدر نفسه، ص٣٦٤.

١٢. المصدر نفسه، ج١، ص٦٩

١٣. المصدر نفسه، ص٢٣٢.

١٤. من علاماته الإفراط والتفريط، فأنت «لا ترىٰ الجاهل إلاّ مفرطاً أو مفرّطاً»[٢].

١٥. الجهل بقدر العلم والعلماء: «لا يستخفّ بالعلم وأهله إلاّ أحمق جاهل»[٣].

١٦. غلبة الشهوة والغضب، فـ «لا ينبغي أن يعدّ عاقلاً من يغلبه الغضبُ والشهوة»[٤]؛ لأنّه «إذا كمل العقل نقصت الشهوة»[٥]، و «شيمة العقلاء قلّة الشهوة وقلّة الغفلة»[٦]، و «الجاهل عبد شهوته»[٧].

١٧. الجاهل حقود: «إنّما اللبيب من استسلّ الأحقاد»[٨].

١٨. من علامات الجهول الاهتمام بما لا يعنيه: «تُعرف حماقة الرجل في ثلاث: في كلامه فيما لا يعنيه، وجوابه عمّا لا يُسأل عنه، وتهوّره في الأمور»[٩]، فـ «بترك ما لا يعنيك يتمّ لك العقل»[١٠].

١٩. الجاهل يبطر في النّعمة ويذلّ في المحنة: «تُعرف حماقة الرجل بالأشر في

---

١. المصدر نفسه، ج٢، ص٣٩٩.
٢. نهج البلاغة، الحكمة ٧٠.
٣. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٠٧.
٤. المصدر نفسه، ص٤٣١.
٥. المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٥.
٦. المصدر نفسه، ج٤، ص١٨٦.
٧. المصدر نفسه، ج١، ص١٢٣.
٨. المصدر نفسه، ج٣، ص٧٦.
٩. المصدر نفسه، ص٣٠٣.
١٠. المصدر نفسه، ص٢٢٦.

النعمة وكثرة الذلّ في المحنة»[١]، و «رزانة العقل تُختبر في الرّضا والحزن»[٢].

٢٠. عدم العقل يورث الكبْر: «التكبّر عين الحماقة»[٣]، و «شرّ آفات العقل الكبْر»[٤].

٢١. الطمع والمنىٰ: «عند غرور الأطماع والآمال تنخدع عقول الجهّال وتُختبر ألباب الرجال»[٥].

٢٢. الجاهل يصرّ علىٰ الخطأ: «الجاهل لا يرعوي»[٦].

٢٣. الجاهل شكّاك متحيّر، إذ «الشكّ ثمرة الجهل»[٧].

٢٤. من علامات الجهل الغفلة: «الغفلة شيمة النّوكىٰ»[٨].

٢٥. من علائم الجهل الركون إلىٰ كلّ أحد بلا اختبار: «الطمأنينة إلىٰ كلّ أحد قبل الاختبار من قصور العقل»[٩].

٢٦. «الركون إلىٰ الدنيا مع ما يعاين من غِيَرها جهلٌ»[١٠].

٢٧. «أكبر الحمق الإغراق في المدح والذمّ»[١١].

---

١. المصدر نفسه، ص٢٩٥.

٢. المصدر نفسه، ج٤، ص١٠١.

٣. شرح غرر الحكم، ج٤، ص١٧٨.

٤. المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٤.

٥. المصدر نفسه، ج٤، ص٣٢٥.

٦. المصدر نفسه، ج١، ص١٦٨.

٧. المصدر نفسه، ص١٨٩.

٨. المصدر نفسه، ص٢٢٥.

٩. المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٣.

١٠. المصدر نفسه، ص١٠٢.

١١. المصدر نفسه، ص٣٩٦.

٢٨. «أحمق النّاس من أنكر على غيره رذيلةً و هو مقيم عليها»[١].

٢٩. الجاهل من تسكره الدنيا، فـ«ينبغي للعاقل أن يحترس من سكر المال، وسكر القدرة، وسكر العلم، وسكر المدح، وسكر الشباب؛ فإنّ لكلّ ذلك رياحاً خبيثة، تسلب العقل وتستخفّ الوقار»[٢].

**ملاحظات**

**الأولى:** البشر الكاملون المعصومون، كأهل بيت العصمة عليهم السلام، هم خلفاء الله تعالى، فلا يوجد في عالم الإمكان آية أكبر منهم.

**الثانية:** كلّ ما هو ثابت لله تعالى بالأصالة والاستقلال ثابتٌ لخلفائه بالحقّ بالتبع والعرض، إلاّ ما يختصّ بالمقام الربوبي.

**الثالثة:** الصفات الثابتة لخلفاء الله تعالى ثابتة لهم على أساس التوحيد الجامع بين الذات والصفات والأفعال والآثار، باعتبارهم مظاهر أسمائه سبحانه، وليس في عرض آثاره تعالى ولا في طول أفعاله وأوصافه سبحانه؛ لأنّ مظهريّة الخليفة للمستخلَف عنه ليست من قبيل جعل شيء في عرض شيء آخر أو في طوله.

**الرابعة:** إنّ ما ذُكر لله تعالى في دعاء الجوشن الكبير الشريف ثابتٌ أيضاً بحسب الزيارة الجامعة الكبيرة لخلفائه بالحقّ، مع حفظ الأحكام الخاصّة بالوجوب الذاتي الثابت لله، والإمكان الذاتي الثابت لما سواه؛ فإن كان دعاء الجوشن الكبير درعاً للتوحيد فإنّ الزيارة الجامعة الكبيرة هي درع الولاية. ذاك الدعاء هو سند الدخول في حصن «كلمة لا إله إلاّ الله حصني...»[٣] وهو حصن بعين الله وحراسته، والزيارة

---

١. المصدر نفسه، ص٤٧٤.

٢. شرح غرر الحكم، ج٦، ص٤٥٤.

٣. بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٧.

هذه سند الدخول في حصن «ولاية علي بن أبي طالب حصني»[١]، وهو حصن بعين وحراسة خليفة الله.

الخامسة: بما أنّ حصن الولاية بمثابة المدخل إلى حصن التوحيد، وليس منفصلاً عنه (لأنّ الخارج عن التوحيد عدمٌ) فإنّ حراسة عليّ عليه السلام للحصن حراسة عن الله، لا بمعزلٍ عنه سبحانه.

السادسة: مُدح أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه الزيارة بـ «أولوا الحجىٰ... أولوا العلم...»؛ لأنّ البركات العلميّة والعمليّة المفاضة على الفرد والمجتمع كلّها من معطيات العقل النظري والعملي لأولئك الهداة الإلهيين، الذين استقوا من كوثر الوحي، وتنزّهوا عن تكاثر القياس والخيال والظّنون والأوهام. والتعبير بـ «أولوا الحجىٰ... أولوا العلم» أدلّ من التعبير بالعاقل والعالم وما شابه، بل وأبلغ من التعبير بمثل «ذو الحجىٰ وذو العلم»؛ لأنّ كلمة «أولوا» تدلّ على كمال المالكيّة والسلطة على مدخولها.

السابعة: إنّ كثيراً من الأمور الإيجابيّة المذكورة في هذه الزيارة المأثورة هي إمّا من شرائط العقل أو من مقوّماته الداخليّة أو من لوازمه الخارجيّة؛ كما أنّ آفات العقل وموانع التعقّل والآثار المقيتة للجهالة هي ممّا يُبتلىٰ بها المحرومون من شعاع الولاية، وقد ذُكرت بعضها في هذه الزيارة.

والداعي لنقل الروايات الكثيرة الواردة في العقل وما يرتبط به من أمور وجوديّة وعدميّة أنّ أكثر معاني هذه الزيارة بمثابة شرح علميّ لروايات العقل؛ لكن حيث إنّ تحرير معنىٰ كلّ حديث نورانيّ وبسط الكلام فيه يتطلّب سعةً من الوقت ورسالةً مفردة، فقد اكتُفي هنا بتوضيح مختصر، علاوة على أنّ شرح فقرات

١ . المصدر نفسه، ج٣٩، ص٢٤٦.

هذه الزيارة الشريفة هو تحرير موسّع أو متوسّط لروايات العقل النورانيّة؛ إذ إنّ الإيجاز في شرحها لا يتناسب وبحوث هذا الكتاب.

**الثامنة:** إنّ العقل من أكرم مخلوقات الله، و «ما خلق الله في الأرض أقلّ من العقل، وإنّ العقل في الأرض أقلّ من الكبريت الأحمر»[1]. وإذا ما عُثر على نادرة الزمان هذا لدى أهل بيت فلنيله ينبغي على عقلاء العالم أن يُحرموا لدخول ذلك البيت، ويكبّروا ـ للقيا أهله ـ خمساً على أيّ شيء معيق مهما يكن؛ لأنّ تلك الذوات القدسيّة ـ أهل بيت العصمة والطهارة ـ عقلٌ ممثَّل، وهم الذين بيّنوا وقدّموا المعارف العقليّة للمتدبّرين والعقلاء الفطناء، ببنانهم وبيانهم، بسنّتهم وسيرتهم، بمناظرتهم واحتجاجهم، وبتربيتهم رجالاً مبارزين في العمل مبرّزين في العلم، وهم الذين أخذوا على عاتقهم بناء المجتمع الإسلامي على الأسس الدينيّة المحوريّة، وشيّدوه على قواعد العقل وعمَد الحكمة وأركان الإيمان. وقد قال الرسول الأكرم: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقلَ له»[2]؛ فالعقل هو قوام الحياة المعنويّة للإنسان.

وعليه فلا بدّ من استعراض الكثير من روايات العقل الواردة عن النبيّ وأهل بيته الطاهرين، وإن كان ذلك لا يلتقي بدواً والمحور الأساس لهذا الكتاب.

**التاسعة:** إنّ العلماء الذين يحرصون على حفظ علوم الدين في أذهانهم وحسب، ويتناقلونها على هذا المنوال، إنّما يعقلون الدين عقل رواية لا عقلَ دراية. والحال أنّ سيرة أهل البيت جارية على تعقّل المعاني وتدبّرها، وتحليل المعارف والتبصّر فيها، مع الاهتمام بالحفظ الذهنيّ والتناقل والنشر اللفظيّ، فكان عقلهم للدين عقل

---

١ . نهج الفصاحة، ج٢، ص٦٦٣.

٢ . المصدر نفسه، ص٦٦١.

دراية ورواية، لا محض رواية. قال أمير المؤمنين في آل محمد ﷺ: «عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سَماعٍ ورواية؛ فإنّ رواةَ العلم كثيرٌ ورعاته قليل»[1].

من هنا جاء حثّه أصحابَه على التعقّل والدراية، فقال: «اعقلوا الخبرَ إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقلَ رواية؛ فإنّ رواة العلم كثيرٌ ورعاته قليلٌ»[2]، بمعنى: زنوا المنقول بميزان العقل ليصبح معقولاً، ولا تتأطّروا بإطار النقل والرواية والتتبّع اللفظي فقط؛ لأنّ أهل الجمود على اللفظ وحفظة النصّ كثرٌ، وأهل التعقّل وحملة الفكر ومجدّدي الاجتهاد وحفظة المعنى قلّة. وهذه السيرة الولويّة الخاصّة هي وصيّتهم لشيعتهم، على أنّ هذه فائدة جليلة أخرى من فوائد ذكر روايات العقل، وقد تناولها هذا الكتاب بصورة موسعة إلى حدٍّ ما.

**العاشرة**: إنّ «عقل الدراية» حاضرٌ بقوّة في حياة آل طه وياسين عليهم السلام، وسماته ظاهرةٌ في سيرتهم، فهم بحقّ «أولوا الحجى» و «أُولوا الألباب»، وهم بحقّ العاقلون عقل وعاية، العالمون علمَ دراية، وهذه هي الحلّة الجديرة بقاماتهم القدسيّة.

إنّ الإمام زين العابدين عليه السلام ـ وهو في سماء الصبر كوكب درّي، وفي برج عروج الدعاء والمناجاة بدرٌ منير ـ المنعتق من ذلّ كلّ دنيء لالتجائه بساحة الكبرياء، البراء من الأغضّاء، الذين يسّنون لأمثالهم سنّة الذلّ، ويحيدون بهم عن سنن العزّ، المحلّق من أرض الناسوت، المعرّج إلى رحب الملكوت، الواصل إلى ما وراء ساحة الجبروت، بحيث إنّه لم يقطع علائقه عمّا سوى وحسب؛ ولم يكتف بانقطاعه عنها، بل وقف على حقيقة «القطع»، ثمّ حظي بحقيقة الانقطاع، ثمّ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة٢٣٩.

٢. نهج البلاغة، الحكمة٩٨.

تجاوزه إلىٰ كمال الانقطاع وخالصه، ومن عاليه وجّه نداءه إلىٰ سالكيّ درب التوحيد، السائرين إلىٰ قمم القطع والانقطاع وكمال الانقطاع، أن يترنّموا بـ «اللهمّ إنّي أخلصت بانقطاعي إليك، وأقبلت بكلّي عليك، وصرفت وجهي عمّن يحتاج إلىٰ رفدك، وقلبت مسألتي عمّن لم يستغن عن فضلك، ورأيت أنّ طلب المحتاج إلىٰ المحتاج سفهٌ من رأيه وضلّة من عقله»[١].

وعليه فإذا ما ذُكرت في فقرة «أولوا الألباب» الموصوف بها أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام رواياتٌ كثيرة في العقل، فلأنّ في الحكمة العمليّة تزويداً للممكن بحاجته من الواجب، علاوة علىٰ دلالة الحكمة النظريّة علىٰ مصدريّة الواجب لوجود الممكن. وهذه ما يُفتي به خالص العقل النبويّ والعلويّ، الذي يُغذّي الحكمةَ والكلامَ، وينمّي أيضاً الأخلاقَ والحقوق، وبالتالي فهو يقرن تعليم الكتاب والحكمة بالتزكية، وكلّ ما عدا ذلك فهو سفَه وضلّة، يحصلان نتيجة غياب العقل الخالص، ونتيجة التفريط في جوهرة التعقّل، الأعزّ من الكبريت الأحمر.

* * *

---

١. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٢٨.

# وَكَهْفِ الْوَرىٰ[1]

«الكهف» هو الغار الذي يلتجئ إليه، وقال بعض: «الغار ما ينحت في الجبل شبه المغارة فإذا اتسع قيل كهف»[1]. «فإذا صغر فهو غار»[2].

ولكنّ بعضاً آخر ذكر أنّ «الغار هو الولجة تكون في الجبل، سواء كانت صغيرةً أم كبيرةً»[3].

والحاصل أنّ «الكهف» بمعنىٰ الغار الواسع، سواء كان «الغار» بهذا المعنىٰ أيضاً أم لا.

«الورىٰ» هم الخَلْق[4].

---

١ . المصباح المنير، مادة «غور».

٢ . كتاب العين، مادة «كهف».

٣ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «غور».

٤ . معجم مقاييس اللغة، مادة «وري».

## خير ملجأ

شُبّة الأئمة الأطهار عليهم السلام في هذه الفقرة بالكهف الذي يلجه الناس طلباً للأمان، وفي الرواية قال الإمام الصادق عليه السلام لمحمد بن الحسن بن شمّون جواباً لرسالته: «نحن كهفٌ لمن التجأ إلينا»[١].

وورد في كلامٍ لأمير المؤمنين وهو يعرّف نفسه: «أنا علم الهدىٰ وكهف التُّقىٰ»[٢]. وقد استلهم ابن عباس منه جوابه لمعاوية حينما سأله: فما تقول في عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ فقال: ... كان والله علم الهدىٰ، وكهف التُّقىٰ[٣].

وفي الرواية أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً ذات يوم، فأقبل عليه الإمام الحسن ثمّ الحسين ثمّ فاطمة الزهراء ثمّ أمير المؤمنين، فكان يدنيهم منه ثمّ يبكي لحال كلّ واحد منهم، فسأله أصحابه: يا رسول الله! ما ترىٰ واحداً من هؤلاء إلاّ بكيت؟ فشرع رسول الله في ذكر فضائل كلّ واحد منهم وما يجري عليهم من القتل، وقال في الإمام الحسين عليه السلام: «وأمّا الحسين فإنّه منّي... وكهف المستجيرين...»[٤].

وفي الدعاء الذي لقنّه الإمام السجّاد أبا حمزة الثمالي، وصف كلّ إمام بأوصاف، ومن أوصاف الإمام الباقر فيه: «وباقر علم الأوّلين والآخرين... وكهف الخلق أجمعين...»[٥].

ثمّ إنّ الكهف في نفسه ومن حيث إنّه ملجأ لا يوصف بالحُسن والقبح، بل إن كان محلاً للصفاء والوفاء الإلهي فهو حسن، وإن كان مقرّاً للمكر والرياء الشيطاني فهو قبيح.

---

١ . بحار الأنوار، ج٥٠، ص٢٩٩؛ ج٦٩، ص٤٤.
٢ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٢.
٣ . المصدر نفسه، ج٤٤، ص١١٣.
٤ . المصدر نفسه، ج٢٨، ص٣٩.
٥ . المصدر نفسه، ج٩٢، ص٢٣١.

والإمام المعصوم أو العادل كهف حسن؛ لأنّه مأمن العصمة والعدل، كما قال الإمام السجّاد: «اللهمّ إنّك أيّدت دينك في كلّ أوان بإمام أقمته علَماً لعبادك... فهو... كهف المؤمنين»[١].

أمّا الشيطان وكلّ حاكم ظالم فهو كهف قبيح؛ لأنّه مأوىٰ الفساد والعدوان والحيف، كما قال الإمام السجّاد: «اللهمّ اهزم جنده، وأبطل كيده، واهدم كهفه، وارغم أنفه»[٢].

فأهل البيت عليهم السلام نعم الكهف الإلهي؛ لأنّهم معدن الحكمة ومستقرّ العدل. ولا ريب في أنّ حرمة الكهف منوطة بقيمة ما يُصان فيه؛ لأنّ شرف المكان بالتمكّن وشرف الزمان بالتزمّن، فليس غار حراء وغار ثور وكهف أؤلئك الفتية الذين آمنوا بربّهم فزادهم إيماناً كمغاور الثعابين والعقارب والذئاب والضباع، بل بينهما تفاوت كبير وبون شاسع.

**ملاحظة**

الاتّصاف بالكهف ليس حصراً علىٰ مَن وردت أسماؤهم في تلك الروايات، بل كلّ تلك الذوات المقدّسة هي كهف للورىٰ، وذكرُ البعض منهم لخصوصيّة ملحوظة وقت الخطاب، فهو من باب ذكر المصداق، لا للحصر ونفي الغير.

# إشارات

## ١ ـ الكهف الذاتيّ والكهف العرضيّ

وُصف الله تعالىٰ بالكهف في الكثير من الروايات والأدعية، من ذلك:

---

١. الصحيفة السجادية، دعاء عرفة.

٢. المصدر نفسه.

أ) قوله سبحانه في مناجاة كليمه: «يا موسىٰ... أنا ذو الفضل العظيم، كهف الخاطئين...»[١].

ب) قول الإمام الصادق في قنوته: «يا مأمن الخائف وكهف اللاهف...»[٢].

ج) ما روي عن الإمام الرضا في دعاء سجدة الشكر في صلاة الليل: «يا كهف مَن لا كهفَ له»[٣]. وقد ذكر هذه العبارة عينها الإمام الحسين عليه‌السلام في دعاءٍ عن أمير المؤمنين»[٤].

د) ما ذُكر في الدعاء الوارد عن النبيّ الأكرم الحاوي لكثير من الأسماء الحُسنىٰ: «يا من هو كهفٌ لأهل السماوات والأرض....»[٥].

هـ) قول الإمام الرضا أو الكاظم عليهما‌السلام في الدعاء المأثور عن أحدهما: «أويت إلىٰ ركن شديد والتجأت إلىٰ كهف رفيع (منيع)»[٦].

وفي بعض الروايات شُبّهت «الموعظة» بالكهف، فقال عليٌّ عليه‌السلام: «الموعظة كهفٌ لمن لجأ إليها»[٧]، وقال كذلك: «الموعظة كهفٌ لمن وعاها»[٨].

ووصفت طاعة الله تعالىٰ بالكهف أيضاً، قال عليٌّ عليه‌السلام: «أحثّكم علىٰ طاعة الله، فإنّها كهف العابدين وفوز الفائزين وأمان المتّقين»[٩].

---

١ . بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٣٧.
٢ . المصدر نفسه، ج٨٢، ص٢١٩.
٣ . المصدر نفسه، ج٨٤، ص٢٥٧.
٤ . المصدر نفسه، ج٩٢، ص٤٠٠.
٥ . المصدر نفسه، ج٩٠، ص٢٦٥.
٦ . المصدر نفسه، ج٩١، ص٣٥١.
٧ . المصدر نفسه، ج٧٥، ص٥٤.
٨ . المصدر نفسه، ج٧٤، ص٢٨٦.
٩ . المصدر نفسه، ص٣٧٤.

والنتيجة المتحصّلة من الجمع بين هذه الروايات هي أنّ الذات الإلهيّة المقدّسة هي الملجأ الأول والذاتيّ، وغيره من أشخاص وأشياء ملاجيء بالتبع والعرض، فهم مظاهر أمن الذات الإلهيّة للاّجئين المتحرّزين.

## ٢ ـ سعة كهف الأمان

كلمة «الورىٰ» بمعنىٰ الخلْق. وهذه المفردة إن لم نقل بشمولها لكلّ المخلوقات فلا أقلّ من شمولها للبشر كافّة، بمن فيهم الأنبياء عليهم السلام ويؤيد هذا الروايات الواردة في بيان مكانة وفضل النبّي وأهل بيته، فقد كان الأنبياء السابقون يسألون الله سبحانه بمحمّد وآله في قضاء طلباتهم وإجابة دعواتهم، فآدم سأل الله بهم عليهم السلام للتوبة، وإبراهيم للنجاة من النار...[١].

ويتجلىٰ دور الأئمّة في الأمان في أمرين:

**الأول**: فيما يؤول إلىٰ الأمور التكوينيّة الكليّة، الداخلة في نطاق الرحمة الرحمانيّة الشاملة لكلّ المخلوقات، كالوساطة في الرزق ونزول المطر واستقرار نظام الخلقة وثبات الأرض، وهذا المعنىٰ هو المراد من فقرة «بكم فتح الله، وبكم يختم، وبكم يمسك السماء أن تقع علىٰ الارض إلاّ بإذنه».

**الثاني**: فيما يؤول إلىٰ الأمور التشريعيّة، الداخلة في نطاق الرحمة الرحيميّة الخاصّة بالمؤمنين بالله تعالىٰ؛ فمن يستشعر منهم الخطر في المجال العقديّ والفكريّ والعمليّ، يلجأ إلىٰ كهفهم المنيع ليأمن وتطمئنّ نفسه. وعلىٰ هذا تكون هذه الفقرة مرادفة لفقرة «والذّادة الحماة»، وسيأتي الكلام فيها.

---

١ . انظر: بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣١٩.

ملاحظة

حيث إنّ الأئمة عليهم السلام أكثر من واحد كان مقتضى القاعدة أن يقال هنا: «كهوف الورى»، كما قيل: «محالّ معرفة الله»، وسيأتي الجواب عن ذلك في آتي الكلام.

## ٣ ـ بوّابة حصن التوحيد

الكلام هنا وإن كان حول معنى «الكهف»، وفرق بيّن بين مفهومي «الكهف» و «الحصن» لغةً، لكن يجمع بينهما معنى الأمن، فالحصن أيضاً مكان آمن، جاء في الحديث القدسيّ: «كلمة لا إله إلاّ الله حصني...»[1]. فالله سبحانه وتوحيده حصنٌ حصين، الداخل فيه محفوظ من العذاب.

وحصانة هذا الحصن الإلهي منوطة بالولاية، والتعبير عن ولاية أمير المؤمنين وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بالحصن في حديث: «ولاية عليّ بن أبي طالب حصني...»[2] ـ المعروف بحديث سلسلة الذهب ـ دليلُ شرطيّة الولاية في التوحيد. فولاية المعصومين والبشر الكاملين هي الحصن الإلهي؛ لأنّهم خلفاء الله سبحانه، وهم وقوفٌ على باب ذلك الحصن، فالدخول فيه أمان وصون من كلّ ضرر؛ لأنّ كلّ ما في ذلك الحصن منزّه عن الحقد والظلم، ولا ينفد إليه شيء من خارجه، فهو في الأمن بمثابة جنّة عدن.

## ٤ ـ الدعاء كهف الإجابة

من معاني «الكهف» أنّه محلّ تكوّن الشيء ونمائه، بما يقرب في المعنى من محلّ معادن الذهب والفضّة، ومفاد حديث الإمام الصادق عليه السلام: «الدعاء كهف

١ . بحار الأنوار، ج٤٩، ص١٢٧.
٢ . المصدر نفسه، ج٣٩، ص٢٤٦.

الإجابة كما أنّ السحاب كهف المطر»[1] هو أنّ الكهف ليس مجرّد مقرّ وملجأ وحسب، بل يتضمّن معنیٰ تكوّن وتكامل ونماء ونضوج الشيء المستقرّ فيه، وسببٌ للفيض والعطاء؛ فهو كالسحاب، فإنّه ليس مجرّد مقرّ للماء وحسب، بل محلّ لتكوّنه، وظرف مناسب لهطوله وفيضه، والدعاء بهذه المنزلة للإجابة.

* * *

١. بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٥.

# وَرَثَةُ الأَنبياءِ

كلمة «وَرَثَة» جمع وارث، على وزان كَسَبَة وكاسب، وحفَظَة وحافظ، ومادتها «ورث» بمعنى أن يكون الشيء لقوم ثمّ يصير إلى آخرين بنسب أو سبب[1]. واشترط بعضٌ في التوريث وفاة المالك الأول، وصرّح بأنّ الوراثة تكون في الأمور الماديّة والمعنويّة[2].

وعليه فالميراث هو الشيء المنتقل من ملك المالك الأول، والمورِّث هو من ينتقل منه الميراث، والوارث هو من ينتقل إليه[3].

وهنا نكات مهمة:

١. الإرث مالٌ يحصل بلا بذل مقابل من متاع أو جهد (من متاجرة وما شابه)،

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة «ورث».

٢. انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١٣، مادة «ورث».

٣. المصدر نفسه.

بشرط وجود مناسبة مع المورِّث بحسب التشريع الإسلامي، وتلك المناسبة هي ما يعبّر عنها بموجبات الإرث.

وموجب التوارث المادّي وجود انتساب سببيّ بين المورِّث والوارث، كالزوجيّة، أو انتساب نسبي كالبنوّة، ونظير ذلك.

أمّا في التوارث المعنويّ فالموجب منحصر في الانتساب المعنويّ إلى الشخصيّة الحقوقيّة للمورِّث.

وربما اجتمع الموجب المعنويّ والمادّي في الوراثة، فيرث الوارث مورّثه من حيثيّتين، وربما افترقا، فيرث الوارث من حيثيّة واحدة فقط، أو أن المورّث نفسه لا يترك إلاّ إرثاً واحداً منهما، وسيأتي تفصيل الكلام في هذا.

٢. التوارث في نفسه ليس دليلاً على أفضليّة المورّث، وإن أمكن أن يكون أفضل من الوارث في الواقع. وفي التوارث المادّي يحصل أن يكون الوارث ذا ثروة ضخمة، ومع ذلك يرث مالاً زهيداً من مورّثه، فيضيفه إلى ثروته.

٣. قد يطُلق عنوان «التراث» على ما يخلّفه الجيل السابق للجيل اللاحق، وإن لم يكن بين أفرادهما صلة نسبيّة ولحمة عائليّة، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1]. كما أنّ انتفاع الجيل الحاضر من تركة الجيل الماضي تارةً يكون بطريق الحيثيّة الحقيقيّة للأشخاص، وأخرى بطريق الحيثيّة الحقوقيّة لهم، والميراث في مصطلح «التراث الثقافي» من هذا القبيل.

٤. المورّث الحقيقي هو المالك والمَلِك الواقعي، وهو الله تعالى، وإذا ما أُسند عنوان «التوريث» لغيره سبحانه فمن باب إسناد الفعل إلى الفاعل بمعنى «ما به»،

١. الدخان: ٢٨.

لا إلىٰ الفاعل بمعنىٰ «ما منه»[1]؛ لأنّه لا أحد غير الله ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[2]، وما سواه ليسوا سوىٰ عوامل إمداد وفواعل إعداد، لا فواعل عطاء وإيجاد.

لذا يسند الله سبحانه التوريث الكامل إليه، فقال تعالىٰ في توريث الأرض وأمورها: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[4].

٥. الوارث الحقيقي للأنبياء السابقين وإن كانوا هم الأنبياء والأولياء اللاحقين، ولا يرث عامّة الناس شيئاً من الوحي والنبوّة والرسالة والولاية، لكنّ الفكر السماويّ الموروث منهم له دور ناشط ومصيري في مسيرة المجتمعات البشريّة اللاحقة، وهو بذلك يُعدّ إرثاً ثقافيّاً لها؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾[6].

وكلمة «الأنبياء» جمع «النبيّ»، علىٰ وزان «الأتقياء والتقيّ». وقد سبق البحث اللغويّ في معنىٰ مفردة «النبوّة» في الكلام حول فقرة «أهل بيت النبوّة».

---

١. اصطلاح «ما منه الوجود» يراد به الفاعل الحقيقي، الذي تصدر منه المخلوقات ويوجدها، وهو الله تعالىٰ حصراً، واصطلاح «ما به الوجود» يراد الفاعل الواسطة، الذي يكون معدّاً لقيام الفعل به، ولكنّه ليس هو الموجد له، وكلّ ما عداه تعالىٰ من فواعل وأسباب هي بنحو «ما به الوجود»، فحينما يقال: أنبتت الأرضُ الكلأ، فالأرض هنا فاعل ومعدّ بنحو «ما به»، والله تعالىٰ هو الفاعل بنحو «ما منه»، وهو تعبير عن إسناد الفعل إلىٰ فاعله الحقيقيّ (المعرّب).

٢. الملك: ١.

٣. الأعراف: ١٢٨.

٤. الأنبياء: ١٠٥.

٥. الأعراف: ١٦٩.

٦. الشورىٰ: ١٤.

## ورثة الفضائل

لكلّ شخصيّة اجتماعيّة حيثيّتان: حيثيّة شخصيّة حقيقيّة، وحيثيّة حقوقيّة، وكلّ من الحيثيّتين تتطلّب مجموعةً من الأرصدة والكفاءات الخاصّة بها. فمن يرأس عائلة ويشغل في الوقت نفسه منصباً أكبر، كإدارة مدينة أو إقليم أو دولة، فهو ـ علاوة على حاجته إلى دار وأملاك ومعاش شهريّ و... لإدراة عائلته ـ بحاجة أيضاً إلى حسّ إداريّ وحسن تدبير ورؤية اجتماعيّة و... للقيام بوظيفته على أحسن وجه. وفي المقابل فإنّ كلّ حيثيّة تضيف إليه أرصدة ومفاخر جديدة.

والانتفاع من كلّ واحدة من هذه المفاخر والأرصدة يتطلّب صلةً ونسبةً تتناسب معها. فالزوجة والأب والأمّ والأخ والأخت والضيف، وكلّ من له صلة سببيّة أو نسبيّة بمثل هذا الفرد، ينتفعون من قدراته الماديّة، كما أنّ المواطنين الذين تظلّهم حاكميّة الولاية متنعّمون بالأمن الاجتماعي والتدبير والإدارة الناجحة والحكمة في التخطيط، ويرتفقون بكلّ الخدمات التي يوفرّها لهم صاحب «الولاية» في النطاق الجغرافي لحاكميّته.

مثل هؤلاء الأفراد إذا ماتوا ورث ميراثَهم وما تركوا في كلّ من الحيثيّتين المذكورتين أناسٌ وورثة معيّنون ومخصوصون؛ فحينما يموت أحد رجالات السياسة أو الاجتماع يرث أبناءه وأسرته أمواله، ويرث ثقلَه السياسيّ أو الاجتماعيّ السياسيّون أو المسؤولون الاجتماعيّون، سواء كانوا بنيه وبني عمومته أم لا، وسواء كانوا يشغلون مناصب مماثلة في حياته أم لا؛ فإنّهم الوارثون لحيثيّته الحقوقيّة على كلّ حال.

والأنبياء ـ شأنهم في هذا شأن غيرهم ـ لهم الحيثيّتان المذكورتان، فيرث أموالهم ـ وإن قلّت ـ أبناؤهم، ويرث رسالتهم ونبوّتهم الأنبياء التالون.

ولكن لا بدّ في هذا التوارث ـ في الحيثيّتين معاً ـ من شرط أساس، وهو الانتساب إلىٰ المورّث، ووجود صلة للوارث به.

والوراثة المقصودة في هذه الفقرة من الزيارة وراثة الحيثيّة الحقوقيّة والمعنويّة للنبوّة؛ لأنّ الملحوظ فيها وراثة الأنبياء بعنوان أنّهم «أنبياء» لا بعنوانهم الشخصيّ الحقيقيّ البحت. وبعبارة أخرىٰ: إنّ تعليق حكمٍ علىٰ وصفٍ مشعر بالعليّة، وحيث إنّ المذكور هنا عنوان «الأنبياء»، يفيد أنّ الأئمة عليهم السلام ما ورثوا أولئك إلاّ لأنّهم «أنبياء»، فمناط التوارث بينهم «النبوّة»، فلم يرثوا نوحاً وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بما أنّهم شخصيّات حقيقيّة؛ لأنّ وارثيهم بهذا العنوان هم بنوهم و أسرهم، لا الأئمة عليهم السلام.

## ورثة الدعوة إلى التوحيد

إنّ أثقل مسؤوليّة تقع علىٰ عاتق الأنبياء عليهم السلام وما يميّز قيادتهم بعد مقام النبوّة الشامخ، هي دعوة الناس إلىٰ توحيد الله وعبادته، في مجالاتهم العلميّة والعمليّة كافّة، قال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

وبقيّة الكمالات الأخرىٰ، كالتفوّق العلمي والعصمة وتلقّي الوحي والأفضليّة و... إنّما هي من شرائط أو آثار الدعوة إلىٰ التوحيد.

وما من رسولٍ دعا الناس إلىٰ نفسه، وإذا ما ذكر نفسه في الدعوة ودعا إلىٰ متابعته، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[2]، وقوله:

---

١. الأنبياء: ٢٥.

٢. آل عمران: ٣١.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[١]، فبلحاظ نبوّته ووظيفته في إبلاغ رسالة الله تعالى، فمتابعته بهذا اللحاظ ترجع إلى متابعة الله تعالى.

والأئمّة عليهم السلام امتداد لطريق الرسالات وحفظة حصيلة النبوّات، فهم ورثة أنبياء الله سبحانه في الدعوة إلى الحقّ والتوحيد، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[٢].

وعلاوة على ذلك، فقد صرّحت روايات أهل البيت عليهم السلام بأنّ للأئمة كافّة الكمالات والخصائص المتفرّقة في الأنبياء، كشفاء المرضى وإحياء الموتى وإخبار الناس بما يأكلون ويدّخرون في دورهم، وهذه كانت من كمالات النبيّ عيسى عليه السلام[٣]، وكمعرفتهم بلسان الطيور والحيوانات، وهي من كمالات النبيّ سليمان عليه السلام[٤]، وكانت لديهم عصا النبيّ موسى عليه السلام، وهي من معجزاته، وسنذكر في بحث الإشارات بعض الروايات في هذا المجال.

هذا هو ميراث الأنبياء السابقين، ورثه منهم الأئمة عليهم السلام وأضافوه إلى خصائصهم.

## إشارات

### ١ ـ وارث السماوات والأرض

المرتكز في فهم الناس أنّ الوارث هو الباقي بعد موت المورِّث، وإليه تنتقل

---

١. طه: ٩٠.

٢. يوسف: ١٠٨.

٣. آل عمران: ٤٩.

٤. قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ (النمل: الآيات ١٦ ـ ١٩).

أموال الميت، وبما أنّ الأرض و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]؛ فقد ذُكرت كميراث إلهي، كما أنّ السماوات أيضاً إرث لله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾[3].

والسرّ في إطلاق عنوان «الوارث» عليه تعالى هو أنّ هذا العنوان كما يُطلق على المال الحاصل بلا مشقّة، وعلى العلم والخلق والفضائل؛ يُطلق أيضاً على أفراد المجتمع، باعتبارهم «شيئاً» من جملة أشياء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[4]، وحيث إنّ الناس والأشياء كلّها صائرةٌ إلى الله تعالى وواقعة تحت سلطانه؛ فهو الوارث لها. ومعنى إرثه تعالى لها ظهور وتجلّي هذه الصيرورة والسلطة، لا حدوثها؛ لأنّه سبحانه هو المالك لكلّ شيء في كلّ وقت، وبتدبيره تجري الأمور كافّة، وإن خفي ذلك عن الأنظار.

## ٢ ـ وراثة الأئمّة بلسان الروايات

أ) عن أبي بصير، قال: دخلت على أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام وقلت لهما: أنتما ورثة رسول الله، صلى الله عليه وآله؟ قال: نعم، قلت: فرسول الله وارث الأنبياء، علم كلّما علموا؟ فقال لي: نعم، فقلت: أنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرئوا الأكمه والأبرص؟ فقال لي: نعم بإذن الله، ثمّ قال: ادنُ منّي يا أبا محمد، فمسح يده على عينيّ ووجهي وأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكلّ شيء في

١. الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.
٢. آل عمران: ١٨٠.
٣. الحجر: ٢٣.
٤. مريم: ٤٠.

الدار، قال: أتحبّ أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة، أو تعود كما كنت ولك الجنة خالصاً؟ قلت: أعود كما كنت، قال: فمسح على عينيّ فعدت كما كنت[١].

ب) عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام لابن عباس: «إنّ الله علّمنا منطق الطير كما علّمه سليمان بن داود، ومنطق كلّ دابّة في برّ أو بحر»[٢].

ج) في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى لما أنزل الله الألواح على موسى عليه السلام أنزلها عليه وفيها تبيان كلّ شيء؛ كان أو هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فلمّا انقضت أيام موسى أوحى الله إليه أن استودع الألواح وهي زبرجدة من الجنّة جبلاً يقال له زينة... والألواح عندنا، وعصا موسى عندنا، ونحن ورثنا النبيّين صلى الله عليهم أجمعين...[٣].

د) عن أبي جعفر عليه السلام قال: خرج أمير المؤمنين ذات ليلة بعد عتمة وهو يقول: «همهمة همهمة وليلة مظلمة، خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصى موسى عليه السلام»[٤].

---

١ . بصائر الدرجات، ص٢٨٩.

٢ . بصائر الدرجات، ص٣٦٤. وقد روى المحدّث الجليل شيخ القمّيين محمد بن الحسن الصفار في الباب الخامس عشر من كتابه المذكور روايات عديدة في تحدّث النبيّ والأئمّة مع بعض الحيوانات.

٣ . تفسير العياشي، ذيل الآية ١٢٥ من سورة الأعراف.

٤ . الكافي، ج١، ص٢٣١. وقد روى الشيخ الكليني في باب «ما عند الأئمة من سلاح رسول الله ومتاعه» عن الإمام الصادق أنّه قال: «... وإنّ عندي لسيف رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنّ عندي لراية رسول الله صلى الله عليه وآله ودرعه ولامته ومغفره... وإنّ عندي لراية رسول الله صلى الله عليه وآله المغلبة، وإنّ عندي ألواح موسى وعصاه، وإنّ عندي لخاتم سليمان بن داود، وإنّ عندي الطست الذي كان موسى يقرب به القربان...» (ح١ من الباب المذكور).

هـ) قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّداً، وإنّ عندنا علم التوراة والإنجيل والزبور، وتبيان ما في الألواح...»[١].

و) قال أبو جعفر عليه السلام في جمع من أصحابه: يمصّون الثماد[٢] ويدعون النهر العظيم، قيل له: وما النهر العظيم؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله والعلم الذي أعطاه الله، إنّ الله عزّ وجلّ جمع لمحمّد صلى الله عليه وآله سنن النبيّين من آدم وهلمّ جرّاً إلى محمّد صلى الله عليه وآله. قيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيّين بأسره، وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صيّر ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له رجل: يا بن رسول الله! فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النبيّين؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: اسمعوا ما يقول؟ إنّ الله يفتح مسامع من يشاء، إنّي حدّثته أنّ الله جمع لمحمّد صلى الله عليه وآله علم النبيّين، وأنّه جمع ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النبيّين!![٣]

### ٣ـ ما حازه الصالحون متفرّقاً...

أ) ورث سيّد الشهداء أنبياءَ الله، فورد في زيارته: «السلام عليك ياوراث آدم صفوة الله، السلام عليك ياوارث نوح نبيّ الله...»[٤]. فقد ذُكروا بأسمائهم كمورّثين له عليه السلام، والوصف الموصوف به كلّ نبيّ علامة الخصوصيّة البارزة لميراث الإمام الحسين منه، فهو ورث من آدم خصّيصة اصطفائه، ومن نوح خصّيصة نبوّته، ومن إبراهيم خصّيصة خُلّته، ومن موسىٰ خصّيصة تكليم الله له، ومن عيسىٰ خصّيصة

---

١. الكافي، ج١، ص٢٢٤ـ ٢٢٥.

٢. الثماد قليل الماء.

٣. الكافي، ج١، ص٢٢٢.

٤. مفاتيح الجنان، ص٦٩٩، زيارة وارث.

كونه روح الله، ومن محمّد ﷺ خصّيصة كونه حبيب الله، ومن عليّ خصّيصة إمرته على المؤمنين؛ وبهذا تكون كمالات الماضين جُمعت في إنسان واحد، «وما حازه الصالحون متفرّقاً حزته أنت مجتمعاً»[١].

ب) الإنسان الكامل وإن كان مظهر أسماء الله الحسنى، لكنّ درجات البشر الكاملين متفاوتة فيما بينهم، كما أنّهم ليسوا سواء في النبوّة والرسالة، وليسوا سواء في الكمالات الوجوديّة، بل إنّ الكمالات في بعضهم أبرز وأظهر منها في بعضهم الآخر، وهكذا حال ظهور وخفاء أسماء الله، فإنّها تختلف من حيث درجات الظهور والخفاء.

وكلّ كمال بارز اشتهر به نبيٌّ ما وعُرف به صار إلى الإمام الحسين بن عليّ؛ لأنّه ذُكر كوارثٍ لتلك الخصائص؛ لذا تجد الخصائصَ البارزة للأنبياء مذكورةً في غالب الزيارات المتضمنّة وراثته عليه السلام لهم، وإن كان عليه السلام ليس بصاحب نبوّة ولا رسالة بالمعنى المعروف.

ج) جاء في زيارات أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام على وارث علم النبيّين»[٢]، و «وراث علم النبيّين والمرسلين»[٣]. وقال فيه الرسول الأكرم ﷺ: «يا عباد الله! من أراد أن ينظر إلى آدم في جلالته، وإلى شيث في حكمته، وإلى إدريس في نباهته ومهابته، وإلى نوح في شكره لربّه وعبادته، وإلى إبراهيم في وفائه وخُلّته، وإلى موسى في بغض كلّ عدو لله ومنابذته، وإلى عيسى في حبّ كلّ مؤمن ومعاشرته؛ فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب»[٤].

---

١. أمثال وحِكم، ج١، ص٤٩.

٢. بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٣٠٣، ٣٤٧، ٣٦٠.

٣. بحار الأنوار، ج١٠، ص٣٥٣؛ ج٢٧، ص٦٢؛ ج٣٨، ص١٣٦.

٤. المصدر نفسه، ج١٧، ص٢١٩.

وقد نقل العلاّمة المجلسيّ روايات عديدة في هذا المعنىٰ في باب مستقل[1].

وخصال الأنبياء المذكورة في تلك الروايات تختلف من نبيّ لآخر؛ فالحكمة لنوح والحلم لإبراهيم والفطنة لموسىٰ والزهد لسليمان، وفي بعض الروايات وُصف نوحٌ بالتسليم لله تعالىٰ وإبراهيم بالسخاء وموسىٰ بالمناجاة وداود بالقوّة، وفي بعضها وُصف نوحٌ بالفهم وإبراهيم بالخُلّة وداود بالحكمة[2].

د) إنّ السرّ في اختلاف الروايات في الخصال الموصوف بها الأنبياء المورّثون، واختلاف الروايات في أوصاف الإمام عليّ، هو أنّ الإنسان الكامل خليفة الله تعالىٰ، وهو سبحانه ذو أسماء حُسنىٰ كثيرة، وكلّ اسم منها يتجلّىٰ في حالةٍ خاصّةٍ، ولضيق حدود الزمان والمكان فإنّ هذا التجلّي يكون محدوداً بتلك الحدود، فلا تنافي في الأدعية والروايات المختلفة؛ إذ إنّ كلّ دعاء ورواية يتكفّل بذكر اسم بخصوصه [يتناسب والحالة والزمان الوارد لأجلهما الدعاء].

وخليفة الله تعالىٰ (محلّ تجلّي أسمائه) قد يتجلّىٰ فيه اسم خاصّ وتظهر فيه صفة إلهيّة بخصوصها. وما ورد من الروايات في خصال أمير المؤمنين بصدد بيان جامعيّته لكلّ خصال وكمالات الأنبياء الماضين، وليس في شيء من تلك الروايات حصرٌ حقيقي للكمال في خصلةٍ بعينها ليحصل تنافٍ، بل اللسان فيها كلّها لسان إثبات، لا إثبات ونفي؛ فيتعيّن الأخذ بها كلّها، لعدم وجود تنافٍ بينها، وإن كان ظهور كلّ اسم بخصوصه بحاجة إلىٰ حالةٍ تناسبه.

هـ) هذه الجامعيّة ليست قصراً علىٰ الإمامين عليّ والحسين عليهما السلام، بل هي ثابتةٌ للأئمّة جميعاً؛ لأنّ كمالات الإمام السابق يرثها الإمام اللاحق.

---

١ . انظر: بحار الأنوار، ج٣٩، باب أنّ فيه عليه السلام خصال الأنبياء.

٢ . بحار الأنوار، ج٣٩، الباب السابق.

## ٤ ـ وراثة العلماء للأنبياء في الروايات

جاء في صحيحة أبي البختري، عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنّما أورثوا أحاديث من أحاديثهم...»[١].

وقد ذكر العلاّمة المجلسي معنيين لهذه الرواية:

أ) «يرثون منهم العلوم والمعارف والحِكَم، إذ هذه عمدة ما يتمتّعون به في دنياهم؛ ولذا علّله بقوله: إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، أي لم يكن عمدة ما يحصلون في دنياهم وينتفع الناس به منهم في حياتهم وبعد وفاتهم الدينار والدرهم، ولا ينافي أن يرث وارثهم الجسماني منهم ما يبقى بعدهم من الأموال الدنيوية، أو يقال: وارثهم من حيث النبوّة المختصّة بهم العلماء، فلا ينافي ذلك كون وارثهم من جهة الأنساب الجسمانية يرث أموالهم الظاهرة».

ب) «أن يكون المراد بقوله عليه السلام: «إنّ الأنبياء لم يورّثوا...» بيان الموروث فيه؛ لأنّه عليه السلام لما قال: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء» فكأنّ سائلاً يسأل: أيّ شيء أورثوا هم؟ فأجاب بأنّه لم يورّثوا لهم الدرهم والدينار؛ ولكن أورثوا لهم الأحاديث؛ ولذا قال: «أحاديث من أحاديثهم» لأنّ جميع علومهم لم يصل إلى جميع العلماء، بل كلّ عالم أخذ منها بحسب قابليته واستعداده. ففي الكلام تقدير: أي لم يورّثوا لهم، فيشعر بأنّ لهم ورثة يرثون أموالهم، ولكنّ العلماء من حيث العلم لا يرثون إلاّ أحاديثهم»[٢].

وكلامه متين، وتدعمه شواهد عديدة:

---

١. الكافي، ج١، ص٣٢، ح٢.

٢. مرآة العقول، ج١، ص١٠٣.

**الأول**: إنّه ورد في هذه الرواية عنوانان، «الأنبيـاء» و «العلـماء»، وهمـا يفيـدان تعليق الحكم على الوصف، بمعنى أنّ الأنبياء يخلّفون بعد مماتهم ميراثـاً مـن حيـث إنّهم «أنبياء»، لا من حيث إنّهم أفراد كسائر الناس، كما أنّ من يرثـون هـذا المـيراث منهم يرثون من حيث إنّهم «علماء» وهداة للناس، لا من حيـث إنّهـم كبقيّـة أفـراد المجتمع البشري. وعليه فهذا «الميراث» يجب أن يكون شيئاً يناسـب مكانـة هـذين العنوانين وما يحملان من معانٍ، وليس هو غير العلوم والفضائل، فإنّهما كنز الأنبياء والعلماء، وعليهما اعتمادهم في القيام بوظيفتهم؛ لأنّ توريث الأشياء الماديّة والكنوز الدنيويّة ليس مقصوراً على الأنبياء، بل يشترك في التوارث فيها النبيّ وغيره، والعالم والجاهل، والسيّد والمسود، والعالي والداني؛ فكلٌّ منهم قـد يكـون مورّثـاً أو وراثـاً فيها، فالميراث الذي يرجوه العلماء من الأنبياء بما هم أنبياء هو المعارف والكمالات؛ لذا نصّت الرواية المذكورة على «أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنّما أورثـوا أحاديث من أحاديثهم».

**الثاني**: تضمّنت هذه الرواية معنيين مهمّين:

١ ـ الترغيب في التعلّم والاتّصاف بعنوان «العالم» وتحصيل الخصائص المؤهّلـة لنيل ميراث الأنبياء.

٢ ـ إنّ لسان الرواية لسان جعل وإنشاء لوراثة العلماء من الأنبياء، وليس مجـرّد إخبار، وإن كان بلسانه؛ ذلك أنّ كـلّ عـالم إنّـما يـرث مـيراث علـماء فنّـه ومجالـه، فالفيزيائي يرث الحصيلة العلميّة لعلماء الفيزياء، لا غـيرهم، والكيميـائي كـذلك، فلو كان لسانها مجرّد إخبار عن واقع خارجيّ لم يكن لها فائدة علميّة مهمّة. عـلى أنّ الظهور الأوليّ للروايات ـ باستثناء البيان الإرشادي في بعض فقراتها ـ يعطـي أنّهـا بصدد بيان التكليف والحكم الشرعيّ، وهذا يناسبه الجعل لا الإخبار.

ثمّ أنّه لا شكّ في عدم إرث العلماء المعاصرين لصدور هذه الرواية ـ فضلاً عن التالين لهم ـ لأموال مثل النبيّ نوح وإبراهيم وغيرهما؛ إذ قد تفصل بينهم آلاف السنين، فلو كانت الرواية المذكورة بصدد الميراث الماليّ والماديّ لما صحّ جعل وإنشاء الوراثة للعلماء، ولما حصل أيضاً معنى الترغيب في طلب العلم.

**ملاحظتان**

**الأولى**: التناسب المعنوي بين العلماء والأنبياء الموجب للتوارث هو أنّ أهم وظائفهم هداية الناس عبرَ الإنذار والتخويف. قال تعالى لنبيّة الأكرم: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى**﴾[2]، وقد ذُكر «الإنذار» كمهمّة للأنبياء كافّة، وقال سبحانه في وظيفة العلماء ورسالة مراكز الدين والشريعة: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[3].

**الثانية**: علم الأنبياء نورٌ ربانيّ، مقرون بالعمل الصالح، فورثة الأنبياء وهم المؤمنون الصادقون هم ﴿**الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ**﴾[4] أيضاً؛ لأنّهم أصابوا في الدنيا علماً صائباً وعملاً صالحاً، وهما أهمّ ميراث الأنبياء.

ثمّ إنّ هؤلاء الرجال الصالحين يعنَون عناية كاملة بأداء أجر رسالة الرسول الأكرم ﷺ وهو مودّة أهل بيته، ويبلون البلاء الحسن في الذبّ عنها وعنهم عليهم السلام، وهذه الذخيرة يورّثونها أبناءهم وذويهم، كما ورثوها هم من أسلافهم في المودّة والولاية؛ لأنّ «الودّ يُتوارث والبغض يُتوارث»[5].

---

١. الحج: ٤٩.
٢. النجم: ٥٦.
٣. التوبة: ١٢٢.
٤. المؤمنون: ١١.
٥. نهج الفصاحة، ج١، ص٤٥.

## الأنبياء والميراث الماليّ

التوافق مع الفطرة من أهم الشروط الأساسيّة في كلّ قانون مفيد يراد تنفيذه؛ لأنّ أيّ قانون لا يتوافق والفطرة لن يُكتب له الدوام ولن يكون نافعاً. وقانون الإرث من القوانين المتوافقة والفطرة توافقاً كاملاً؛ لأنّه عامل محرّك للفاعليّة الاقتصاديّة من جهة، وسببٌ للرحمة والرفق بالورثة من جهة أخرىٰ، لا سيّما في سنيّ الطفولة، وإلغاء هذا القانون الفطريّ يؤدّي إلىٰ إثقال كاهل الورثة ماديّاً وتحميلهم عبئاً ماليّاً، بل ويؤدّي إلىٰ ركود الاقتصاد؛ لأنّ كلّ فرد سينتج حينئذٍ بقدر كفاف عمره، لا أكثر.

والقوانين الفطريّة يجب تطبيقها علىٰ أفراد المجتمع كافّة، فقانون الزواج والتغذية لسدّ الجوعة، والماء لسدّ العطش، والتعلّق بالابن والأبوين، وماشابه ذلك، لا تختصّ بشريحة معيّنة من المجتمع الإنسانيّ، ولا يمكن حرمان طبقة اجتماعيّة منها، بل الكلّ فيها علىٰ حدّ سواء؛ الأنبياء والأوصياء والأعيان والحكّام وأئمّة الدين والعلماء، علىٰ اختلاف مجالاتهم العلميّة. وإذا اشترط أمرٌ ما في بعض المناصب فهو واقع في حدود قوانين الفطرة وما ينسجم معها ولا ينافيها.

## مسألة فدك

كانت مزارع فدك إلىٰ حين وفاة الرسول الأكرم ﷺ بيد السيدة الزهراء عليها السلام وتحت سلطتها؛ ولكن بعد وفاته انتزعتها الحكومة المستحدثة بعده وألحقتها بأملاك الدولة، وتمسّكوا لتبرير عملهم هذا بحديث رووه هم أنفسهم، مفاده «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ماتركناه فهو صدقة»[1].

---

١. شرح نهج البلاغة، المجلدان ١٥ ـ ١٦، ص٣٨١.

ونحن نرجئ إلى فرصة أخرى البحثَ التاريخيّ في مسألة فدك، وأنّها ميراث أو نِحلة، ودوافع حكومة الخلافة لمصادرتها، وما يهمّنا الآن هو تحليل متن هذا الحديث لمعرفة مدى دلالته على دعوى المستدلّين به على انتزاع فدك.

هذا الحديث مكوّن من فقرتين:

١. فقرة: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث».

٢. فقرة: «ما تركناه صدقة».

أمّا الفقرة الأولى فيسعنا قبولها وبيان الوجه فيها، وقد ورد في الكتب الروائيّة الشيعيّة مثيل لها، وجاء في حديث العامّة: «إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث ذهباً ولا فضّة ولا داراً ولا عقاراً، وإنّما نورّث الكتاب والحكمة والعلم والنبوّة»[1].

وإنّما الإشكال في الفقرة الثانية، فإنّها وإن كانت بحسب الظاهر شرحاً وتوضيحاً للفقرة الأولى؛ لكنّها في الحقيقة تصطدم بقانون فطريّ وتستثني الأنبياء من حالة فطريّة، والحال أنّ السنّة الإلهيّة قاضيةٌ بأنّ رسل الله من جنس البشر، وعندهم ما عند غيرهم من الحاجات والغرائز البشريّة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2]، واشتراط بعض الخصائص فيهم مثل العصمة والأفضليّة وطيب الولادة و... لأنّ ذلك من مقتضيات تلقّي الوحي وصيانته وإبلاغه، واستمالة الناس وحيازة ثقتهم وهدايتهم، وتثبيت أقدامهم على هذه الطريق الخطيرة.

بيد أنّ هذه الخصائص لا تبرّر القول بأنّ شأن الأنبياء أجلّ من أن يخلّفوا ميراثاً عينيّاً وماليّا؛ لأنّ ذلك مصادمة لأمر فطريّ، واستثناء الأنبياء من حالة إنسانيّة عامّة، وهي حالة توافق الفطرة مع الرغبات والميول الإنسانيّة، على أنّ هكذا تبرير

---

١. شرح نهج البلاغة، المجلد ١٥و١٦، ص٣٧٣.

٢. الكهف: ١١٠.

والتعلّل بالشأنيّة من السهل تسريته إلى الكثير من الحالات، فبالإمكان مثلاً القول: إنّ شأن الأنبياء أرفع من أن يختاروا زوجات لهم! أو ينجبوا أولاداً! أو يكون لهم مسكن ومأوىٰ! أو يأكلوا الطعام ويشربوا الماء! أو تكون لهم قبائل وأسر! و... بحجّة أنّ الأنبياء ينبغي لهم تكريس جهودهم لهداية الناس! فلا ينبغي أن يهدروا أوقاتهم في إعداد القوت وبناء الدور والانشغال بمشاغل الحياة اليوميّة!

ونتيجة التعلّل بهذه الشأنيّة المزيّفة، وليدة المزاجيّة، والعارية من الدليل، أنّ الأنبياء يجب أن يكونوا من جنس الملائكة، وهذا ما كان يتعلّل به مشركوا الحجاز، فقد قالوا: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[1]، وبعض آخر زعموا أنّ شأن الرسول أن يكون ذا جنان وقصور: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾[2].

فكان جواب الله تعالى على تعللّهم بالشأنيّة المزيّفة أن قال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾[3]، فشأنيّة الأنبياء لا ينبغي أن تكون بحيث تخرجهم من حدّ البشريّة.

وفي آية تالية قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾[4].

---

١ . الفرقان: ٧.

٢ . الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

٣ . الإسراء: ٩٣.

٤ . الإسراء: ٩٥.

فهذه الأجوبة الإلهيّة توضح أنّ شـأن النبـيّ ﷺ ومكانتـه يجـب أن تتناسـب والرغبات والميول البشريّة، وأن لا تخرق القانون الفطريّ.

وعليه فإنّ الفقرة الثانية من الحديث المذكور الدالّة على حرمان أبناء الأنبياء من الميراث لا يسعنا قبولها واعتمادها؛ لأنّ معناها مخالف للفطرة الإنسانيّة السليمة.

* * *

# وَالمَثَلِ الأَعْلَىٰ[1]

كلمة «المثل» تستعمل لبيان المشابهة بين شيئين، فهي ترادف في المعنىٰ مفـردات مثل «الشكل والشبه و...»، ولكن تختلف عنها فيما يلي:

إنّ كلمة «مِثل» لبيان المشابهة التامّة وتماثل الشيئين في الـصفات الأصـليّة، أمّـا كلمة «شكل» لبيان المشابهة في الأوصاف الظاهريّة والصوريّة[1].

إنّ كلمة «الشِّبه» لبيان مطلق المشابهة، سواء كانت كليّـة أم جزئيّـة، مـشابهة في الصفات الظاهرية أم في الصفات الباطنيّة والمعنويّة، أم في أيّ جنبة كانت[2].

وكلمة «ندّ» تستعمل لبيان الاشتراك في الجوهر[3].

---

١ . وقال بعضهم: الفرق بين الشكل والمثل: «أنّ الشكل هو الذي يشبه الشيء في أكثر صـفاته حتـىٰ يشكل الفرق بينهما». (الفروق اللغويّة، الفرق بين الشكل والمثل، رقم ١٢٢٠).

٢ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١١، ص٢٥، مادة «مثل». وقال بعضهم: «الشكل في الهيئة والصورة والقدر والمساحة. والـشبه في الكيفيـة، والتـساوي في الكميـة فقـط». (الفـروق اللغوية، الفرق بين الشكل والشبه، رقم١٢١٩).

٣ . انظر: مفردات غريب القرآن، مادة «ضدّ».

وكلمة «التساوي» لبيان المشابهة في الكميّة والمقدار[١].

وكلمة «نظير» لبيان مشابهة الشيئين لبعضهما في جنس أفعالهما، كأن يقال: هـذا النحويّ نظير ذلك النحويّ[٢].

أمّا كلمة «مَثَل» على وزان «حَسَن»، فهي صفة مـشبّهة، وتـستعمل في المتلـبّس بالمثليّة الثابت فيه التماثل، كما أنّ كلمة «مثيل» بهذا المعنى أيضاً[٣].

وكلمة «مِثل» عامّة، تشمل جميع أقسام المشابهة والمشاكلة السابقة الذكر، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٤] ينفي كلّ نحوِ مشابهة ومماثلة وندّيّة.

وكلمة «مَثَل» تقال للكلام المساق لتبيين مطلب ومعنى عميـق، يكـون أحـسن بيان للمعارف العالية لعامّة الناس، كقوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَـسْتَحْيِي أَن يَـضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَـلٌ فَاسْـتَمِعُوا لَه﴾[٦].

وقد تقال للأسوة والقدوة في العمل، كما في آية: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْـدٌ أَنْعَمْنَـا عَلَيْـهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٧].

وكلمة «أعلى» اسم تفضيل لـ «عالي»، ومادّتها «علوّ»، و «العلوّ» بمعنى الرفعـة والأفضليّة[٨]، ويقابله «السِفل»[٩].

---

١ . انظر: الفروق اللغوية، رقم ١٢١٩.

٢ . انظر: الفروق اللغويّة، رقم ١٩٣٦.

٣ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج١١، ص٢٥، مادة «مثل».

٤ . الشورى: ١١.

٥ . البقرة: ٢٦.

٦ . الحج: ٧٣.

٧ . الزخرف: ٥٩.

٨ . انظر: التحقيق، ج٨، ص٢١٤، مادة «علو».

٩ . قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (التوبة: ٤٠)، ﴿فَلَـمَّا جَـاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ (هود: ٨٢).

والفرق بين هذه المفردة وبين ما يرادفها، مثل «رفعة، رُقيّ، سموّ»، أنّ الملحوظ فيها هو الشيء العالي الرفيع نفسه، ولا تُلحظ الحالة التي كان عليها قبل ذلك. وغالباً ما يكون العلوّ مقروناً بالقوّة والقدرة.

بينما تُلحظ في معنىٰ «الرفع» الحالة السابقة، وهي السفل والخفض، وتُلحظ أيضاً الحركة من السفل إلىٰ العلو؛ لذا يقال للسلّم: «مرقاة».

وفي كلمة «سمو» يُلحظ معنىٰ إحاطة السامي بشيء آخر[١]؛ من هنا كان سماء كلّ شيء أعلاه[٢].

ثمّ إنّ العلوّ تارةً يكون مادياً ظاهريّاً، كما في آية: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٣]، وأخرىٰ يكون معنويّاً، كما في آية: ﴿جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[٤].

## المُثل العليا

بملاحظة ما سبق بيانه يمكن تحليل هذه الفقرة وتفسيرها بمعنيين:

### الأول: الآيات الكبرى

لا يعرف كنه ذات الله أحد سواه، ولا طريق لمعرفته إلاّ بأسمائه وصفاته، ولا يمكن معرفة الأسماء والصفات إلاّ بالتمثيل والتشبيه.

والصفات الإلهيّة وإن كانت تغاير صفات الكمال البشري تغايراً جوهريّاً، ولا مجال للمقايسة بينهما، إلاّ أنّ صفات الكمال البشري تعكس لنا صورة كليّة مجملة

---

١ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٤، ص٢٠٤، مادة «رقى».

٢ . انظر: مفردات الراغب، مادة «سمو».

٣ . هود: ٨٢.

٤ . التوبة: ٤٠.

للصفات الإلهيّة، فالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والعطف والرحمة وسائر الكمالات البشريّة مماثلة[١] للعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والعطف والرحمة الثابتة له تعالى؛ منزهةً من الصبغة الإمكانيّة. من هنا، فكلّ موجود ذي كمال في هذا العالم مرآة وآية شاخصة لمعرفة الأسماء والصفات الإلهيّة؛ ولكن قدر كلّ آية ومرآة منوط بالكمالات والسعة الوجوديّة لتلك الآية، فكلّما كان الكمال أشدّ وأظهر كانت المرآتيّة أكبر وأضخم.

وعليه: فكلّ موجود يكون كماله أكبر يعكس لنا الكمال الإلهي بنحوٍ أظهر وأجلى، وليس في موجودات عالم الوجود من يضاهي الإنسان الكامل في مظهريّته لله تعالى؛ لأنّه ما من موجود ـ بما في ذلك الملائكة ـ يحظى بما يحظى به الإنسان الكامل من كمالات وجوديّة.

وحتى الكمّل من البشر، متفاوتون فيما بينهم في الكمالات، وبالتالي يتفاوتون في مرآتيتهم لكمالات الحقّ تعالى شدّة وضعفاً؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لله نبأ أعظم منّي وما لله أكبر منّي»[٢]، وقال أيضاً: «أنا الآية العظمى»[٣]. وفي زيارته نقول: «السلام عليك يا آية الله العظمى»[٤]؛ وذلك لأنّ عليّاً جمع كلّ الكمالات الممكنة للموجود الإمكاني.

---

١. المراد من المماثلة هنا أنّ حقيقة «العلم» مثلاً لا تختلف باختلاف العالم ولا المعلوم، فحقيقته هي انكشاف الواقع، سواء كان العالم هو زيد أم النبيّ أم الله تعالى، وهكذا الحال في بقيّة الصفات المذكورة، وليس المراد من المماثلة المساواة في مصاديق تلك الصفات؛ إذ لا شكّ في أنّ علمه تعالى بالأشياء ليس على حدّ علمنا بها، ورحمته ليست بضيق رحمتنا، كما أنّ غنانا ليس كغناه؛ فالمماثلة هنا بلحاظ المفهوم، لا بلحاظ المصداق. (المعرّب).

٢. بحار الأنوار، ج٣٦، ص١.

٣. المصدر نفسه، ج٥٤، ص٣٣٦.

٤. المصدر نفسه، ج٩٧، ص٣٧٣.

شعر:

يقولون: لا قادر في الخلق بكمال القدرة يشبه الحقّ المتعال

لكن كاد أن يحصل في ذات عليّ ذلك الأمر المحال![1]

وكما أنّ هناك تفاوتاً رتبيّاً بين الأنبياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[2]، ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[3]، فبين الأئمة الأطهار عليهم السلام تفاوت أيضاً؛ لكنّ التفاوت فيما بين تلك الموجودات النورانيّة بعد النصاب اللازم للإمامة؛ لما تكرّر من أنّهم جميعاً حائزون علىٰ النصاب اللازم لها، فكلّ واحد منهم هو آية إلهيّة عظمىٰ ونبأ عظيم له تعالىٰ؛ لأنّهم بمجموعهم نور واحد يضيء من أربع عشرة رواقاً.

وعليه فالأئمة الأطهار عليهم السلام مُثل عُليا وآيات كبرىٰ ومَرايا عاكسة لأسماء وصفات الله تعالىٰ، وبمعرفتهم تُعرف الأسماء والصفات الإلهيّة.

وكلّما عظمت المعرفة بهذه المرايا وتكشّفت زواياها ازدادت المعرفة بالله تعالىٰ، وإن كان من المحال معرفة كنه الأسماء والصفات الذاتيّة، كاستحالة معرفة كنه ذات الواحد الأحد سبحانه.

**الثاني: القدوة الأمثل**

إنّ الانسان بحاجة في مسيرة حياته إلىٰ قدوة عمليّة يحتذي بها في حركته، والقدوة البشريّة محدودة الأبعاد فيما يُقتدىٰ فيه، وغالباً ما تكون مؤطّرة بتاريخ

---

١. الشعر منسوب للمير داماد، ونصّه كالتالي:

گويند كه نيست قادر، در عين كمال — بر خلقت شبه خويش حقّ متعال

نزديك شد آن كه رنگ امكان گيرد — در ذات علي صورت اين امر محال

٢. الإسراء: ٥٥.

٣. البقرة: ٢٥٣.

ومكان جغرافي خاصّين، تفقدُ بمرور الزمن وتوسّعِ المساحة الجغرافيّة قدرتَها على أداء دورها كقدوة، علاوة على أنّ قدوتها ليست في كلّ الأبعاد والخصال، بل في خصلة أو خصال معدودة. أمّا الأنبياء فهم قدوة راقية للبشر في كلّ أرض كانوا وفي كلّ زمان عاشوا؛ لما لهم عليهم السلام من سمات معنويّة، بحيث لا تحدّهم أرضٌ ولا يحصرهم زمان: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، والمقتدون بهم عليهم السلام أيضاً ـ وبقدر اقتدائهم بهم ـ قدوةٌ للآخرين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[2]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

وعلى هذا فكلّ من يحوز قدراً أكبر من الكمالات فهو الأجدر بالتأسّي به؛ لأنّ الاقتداء بالأئمة عليهم السلام يتجلّى في أتباعهم الصادقين. وما من موجود يضاهي الأئمة الأطهار عليهم السلام في جامعيتهم للكمال؛ لأنّهم في عصمة في العلم والعمل والخصال، فهم أكمل قدوة وأرقى أسوة.

## إشارات

### ١ ـ الاستعمالات المختلفة لمشتقّات «مثل»

أ) يُبحث في فنّ علم المنطق ـ وهو الدليل لمعرفة المجهولات التصوّريّة والتصديقيّة ـ عن «المَثَل» في باب المعرّف، وعن «التمثيل» في باب الحجّة، وتوضيح ذلك:

إنّ المجهول التصوّري قد يعرّف بالحدّ التامّ أو الناقص لمعرفة ماهيّته، وقد

---

١. الأحزاب: ٢١.

٢. الممتحنة: ٤.

٣. الممتحنة: ٦.

يُعرّف بالرسم التامّ أو الناقص لمعرفة لوازمه، وقد يُستعان في معرفة بعض خواصّه وآثاره بالمَثَل، كما في مسألة معرفة «النفس»، فإنّهم يقولون: وظيفة النفس في البدن كوظيفة الربّان في السفينة والوالي في المدينة.

فهذا التمثيل لبيان بعض آثار النفس، لا لكشف حقيقتها أو معرفة لوازمها الذاتيّة.

وكذا الحال في المجهول التصديقيّ، فقد يُستخدم في معرفته القياس أو الاستقراء أو التمثيل، وإن كان الدليل العمدة هو القياس البرهانيّ، وما لم يرجع الاستقراء والتمثيل إلىٰ القياس لن يفيدا يقيناً؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإنّ المَثَل دليلٌ علىٰ شِبْهِه»[1]، فإن رجع التمثيل إلىٰ القياس فهو حكمة وبرهان، وإلاّ فهو محض موعظة حسنة.

ب) من مشتقّات هذه المادة «مُثُول، تمثال، تمثُّل،و...»، والمُثُول هو انتصاب القامة، قال تعالىٰ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾[2]، وفي الحديث: «من أحبّ أن يُمثَّل له الرجال فليتبوّأ مقعده من النّار»[3]. والتمثال هوالشيء المصنوع مشبَّهاً بشيء آخر، ومنه التمثّل البرزخي، حيث يتمثّل معنىٰ معقول ويخرج من حالة التجرّد العقلي إلىٰ حالة التجسّد المثالي، وربما تمثّل جسماً عنصريّاً.

ج) كلمة «مُثلة» وجمعها «مَثُلات» بمعنىٰ النقمة الشديدة؛ لأنّ النقمة الشديدة مثال لنقم تاليات ينتظرن المجرمين، قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاَتُ﴾[4]، والتنكيل بأحدٍ للاعتبار به يسمّىٰ «تمثيلاً».

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة١٥٣.

٢ . مريم: ١٧.

٣ . بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٤٠.

٤ . الرعد: ٦.

د) تستعمل كلمة «أمثل» في تشبيه ذوي الكمال بالأكمل والأفضل، وأماثل المجتمع هم من يشبهون أفاضله، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾[١]. ومؤنث الأمثل المثلىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[٢]، والطريقة المثلىٰ بمعنىٰ السيرة الأحسن والسنّة الأحمد، وفي دعاء الإمام السجّاد عليه السلام: «اللهمّ اسلك بي الطريقة المُثلىٰ، واجعلني علىٰ ملّتك أموت وأحيا»[٣].

هـ) قد تكون كلمة «تمثال» بمعنىٰ الذكر الحسن والسيرة الخالدة في القلوب، الأنور في التاريخ من الشمس والقمر، كما جاء في قول الإمام عليّ عليه السلام: «والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة»[٤]. فإنّ مراد الإمام عليه السلام ليس هو التمثال الظاهري والصورة الماديّة للعلماء؛ لأنّ الأجيال غير المعاصرة لهم زماناً والأجيال البعيدة عنهم مكاناً، والأجيال المختلفة عنهم لساناً، لا تربطهم بهم صلة، لتكون صورهم حاضرة في قلوبهم، والحال أنّهم باقون في ذاكرة وقلوب الناس ما بقي الدهر، ومِثلهم حفظة الأسرار وأمناء السرائر، العلماء العادلون الذين يخزنون معارفهم في صحف العلم، ويبثّون علومهم في صدور وعقول المجتمع الواعي: «آه آه، شوقاً إلىٰ رؤيتهم»[٥].

## ٢ ـ الثمار الحلوة والمرّة للمثال

إذا طابق المثال الممثَّل وكان يعكس بصدق وأمانة حالة الممثَّل فإنّ ثمرته ستكون طيّبة، وهي الهداية، وإن لم يتطابقا فالمثال كاذب باطل، وثمرته مرّة خبيثة،

١ . طه: ١٠٤.

٢ . طه: ٦٣.

٣ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٢٠.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة ١٤٧.

٥ . المصدر نفسه.

وهي الضلالة. قال الإمام السجاد عليه السلام في بيان هذا المعنىٰ: «فلولا أنّ الشيطان يختدعهم عن طاعتك ما عصاك عاصٍ، ولولا أنّه صوّر لهم الباطل في مثال الحقّ ما ضلّ عن طريقك ضالّ»[١].

وتصوير الباطل قد يكون بعرض الباطل علىٰ أنّه مثال الحقّ، وهو المعنىٰ المذكور في هذا الدعاء، وقد يكون بتمويه الحقّ وإظهاره كمثال للباطل، والمثال في الحالتين ما هو إلاّ مكر، ولا ثمر له سوىٰ الضلال.

فلا بدّ للأمن من خدعة تلبيس الحقّ لبوس الباطل وتلبيس الباطل لبوس الحقّ من وجود ميزان عاصم في قلب وعمق السالك؛ ليتميّز بميزان الحقيقة الحقُّ من الباطل، ولئلاّ يتلبّس العدوّ بلباس الحبيب. يقول الإمام السجاد عليه السلام في دعائه: «وصوّر في قلبي مثال ما ادّخرتَ لي من ثوابك، وأعددتَ لخصمي من جزائك وعقابك، واجعل ذلك سبباً لقناعتي بما قضيتَ، وثقتي بما تخيّرتَ»[٢].

### ٣ ـ المَثَل في القرآن

يُعدّ التمثيل وذكر المثل من أسهل الطرق لبيان الحقائق والمعارف العميقة والعلوم الجليلة؛ لأنّه يتيح للمتكلّم تشبيه وتقريب المعارف العالية والدقيقة التي لا تستوعبها الأذهان بأمور معروفة للمخاطَب، وبملاحظة وجه الشبه بين الممثَّل والممثَّل به ينجح في إيصال المعلومة.

ثمّ إنّ القرآن الكريم كتاب هداية، نزل لإرشاد الناس كافّة، فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٣]، ومقتضىٰ كونه كتاباً عامّاً للجميع ولا يختصّ بشريحة معيّنة أن تُبيّن

١. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٣٧.

٢. المصدر نفسه، الدعاء ١٤.

٣. البقرة: ١٨٥. ولمعرفة الفرق بين هذه الآية وآية ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من السورة نفسها، يراجع تفسير تسنيم، ج٢، ص١٢٠، ذيل الآية ٢.

معارفه بأنحاء متنوعة ليستفيد منها الجميع؛ لذا ترىٰ الله تعالىٰ يذكر فيه المعارف التوحيديّة العميقة، كما في الآيات الستّ الأول من سورة الحديد، وسورة الإخلاص[١]، وأيضاً يدعو فيه إلىٰ التأمّل في الإبل والجبل والسماء والأرض، وهي الأشياء التي لم يكن العرب آنذاك يشاهدون أضخم منها، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٢].

وقد أفاد القرآن الكريم من أمثال كثيرة لتفهيم مقاصده وتعليم علومه، وقد صرّح نفسه بتنوّع أمثاله في آية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[٣] وآية: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[٤].

والغرض من ضرب ضروب الأمثال هو:

التذكّر: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٥].

التفكّر: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦]

تعقّل ذوي العلم والنُّهىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[٧].

---

١ . في الرواية عن الإمام السجّاد عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قل هو الله أحد﴾ والآيات من سورة الحديد إلىٰ قوله: ﴿عليم بذات الصدور﴾». (تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٠٦، في تفسير سورة الإخلاص).

٢ . الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.

٣ . الإسراء: ٨٩، وبالمضمون نفسه باختلاف يسير جاءت الآية ٥٤ من سورة الكهف.

٤ . الروم: ٥٨؛ الزمر: ٢٧.

٥ . الزمر: ٢٧؛ إبراهيم: ٢٥.

٦ . الحشر: ٢١.

٧ . العنكبوت: ٤٣.

ومن هذه الآية يُفهم أنّ التعقّل بمنزلة القمّة، والغرض من التمثيل القرآني بلوغ تلك القمّة، والعلم هو السلّم إليها؛ فالجهلاء لا يملكون السبب لبلوغها، فهم عاجزون عن الوصول إلىٰ المقصد الأسنىٰ.

وتنقسم الآيات الحاوية للأمثال إلىٰ أقسام:

أ) الآيات المصرّح في بدايتها بكونها مثلاً يُضرب، منها:

قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[١]. والتشبيه هنا من باب أنّ الحمار ليس بصدد تعلّم الكتب التي يحملها أو العمل بمضامينها، بل هو لا يعلم ما يحمل، أكتاب هو أو شيء آخر؟ وإن كان كتاباً أمقدّس هو أو لا؟

وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[٢].

وقوله جلّ وعلا: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾[٣].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[٤].

وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾[٥].

---

١. الجمعة: ٥.
٢. البقرة: ١٧.
٣. إبراهيم: ١٨.
٤. الأعراف: ١٧٦.
٥. البقرة: ٢٦٤.

ب) الآيات التي لم يصرّح في أوائلها بذلك، لكن صُرّح بكونها مسوقة مساق المثل بعد بيان المراد بيانه، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾[2].

ج) الآيات التي لم يصرّح فيها بلفظ «المثل» وأنّها مسوقة لذلك، لكن فيها إشارة ضمنيّة على سوقها مساق المثل؛ لاستعمال أدوات التشبيه في البيان، من «كاف» وغيرها، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾[4]، وقوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[5].

د) الآيات الخالية من أيّ إشارة وإن ضمنيّة إلى كونها مضروبة كمثل؛ لكنّ مضامينها المبيّنة فيها ذات صبغة ونفس تمثيلي في حقيقتها، كما في شأن سجود الملائكة لآدم عليه السلام لكونه مظهراً للإنسان الكامل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ

---

١. الحشر: ٢١.

٢. الرعد: ١٧.

٣. الرعد: ١٤.

٤. النور: ٣٩.

٥. النور: ٤٠.

لآدَمَ﴾[١].

وكما في شأن سجود النجوم والشجر لله تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٢]، فإنّ السجود هنا كناية عن الخضوع والتسليم.

وكما في شأن عرض الأمانة علىٰ السماوات والأرض والجبال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾[٣]، و... والآيات ذات الحقائق الممثّلة كثيرة جدّاً.

**ملاحظة**

لا ينبغي أبداً الغفلة عن وجه الشبه والمماثلة في التمثيل والتشبيه؛ لأنّ المَثَل وإن قرّب إلىٰ الذهن الحقيقةَ الممثَّلة به من جانب؛ إلاّ أنّه ربما شوّهها ونأىٰ بها عن واقعها من جوانب أخرىٰ، فحينما يقال: «زيد مثل الأسد» فليس المراد أنّه يمشي بيديه وقدميه، وأنّه ذو شعر كثيف حول عنقه، وأنّه ذو أنياب ومخالب حادّة، وذو طبع سبعي، قاضياً حياته في الحروش والغابات، بل بمعنىٰ أنّه شجاع؛ لأنّ الأسد مظهر للشجاعة، كما أنّ الذئب مثال للسبعيّة، والثعلب مثال للمكر والحيلة. فيجب الحذر من الوقوع في الخطأ المذكور، والالتفات إلىٰ وجه الشبه والمماثلة.

## ٤ ـ المثل الإلهي الأعلى

ذكر سبحانه في آيتين المثل الأعلىٰ له، وقرنه بحمد ذاته الربوبيّة المقدّسة بالعزّة والكرامة:

---

١ . البقرة: ٣٤. للإحاطة بمسألة كون السجود هنا تمثيلاً، وأنّ الملائكة لم تسجد لشخص آدم بما هو آدم، بل للمقام الشامخ للإنسان الكامل المتمثّل آنذاك فيه، انظر: تفسير تسنيم، ج٣، ص٢٨٦.

٢ . الرحمن: ٦.

٣ . الأحزاب: ٧٢.

**الأولى**: في آية ذكر منكري المعاد وتحليل أعمالهم: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلله المَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

**الثانية**: في آية بيان سهولة إعادة الموجودات يوم القيامة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

و «المثَل» كوصف قد يكون للحُسن وقد يكون للسوء، والسوء وصف للكافرين، وشرح ذلك يستدعي بحثاً مستقلاً، ووصف الحُسن والجمال للمؤمنين، وبيانه بحاجة أيضاً إلى بحث مستقلّ. والكلام هنا في بيان أنّ المثل الإلهي الأعلى بمعنى أنّ صفات الله تعالى هي الأكمل والأعلى والأتمّ.

وهو سبحانه وإن كانت له الأسماء الحسنى والصفات العليا، لكن يجب ثبوت أكمل وصف متصوّر وأعلى صفة معقولة للذات الربوبيّة المقدّسة، مع الاعتراف بقصور الواصفين والإذعان بالعجز والجهل.

وتتلخص العقيدة بكون الله هو الأعلى في عبارة «الله أكبر»، فالتكبير هو خلاصة الاعتقاد بذلك. ومن النافع هنا ذكر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان معنى **«الله أكبر»**، عن جميع بن عمير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **أيّ شيء الله أكبر؟ قال: الله أكبر من كلّ شيء، فقال: وكان ثمّ شيء فيكون أكبر منه؟ فقال: وما هو؟ قال: الله أكبر من أن يوصف**[٣].

وفي رواية أخرى أنّ رجلاً قال عنده: الله أكبر، فقال: الله أكبر من أيّ شيء؟ **فقال: من كلّ شيء، فقال: أبو عبد الله عليه السلام: حدّدته! فقال الرجل: كيف أقول؟**

---

١ . النحل: ٦٠.

٢ . الروم: ٢٧.

٣ . وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الذكر، الباب ٣٣، ح١.

قال: قل: الله أكبر من أن يوصف[1].

وهذه الروايات من غرر كلام أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

وعبارة «الله أكبر» تندرج فيها مراتب عديدة، وكلّ موّحد ينال حظّه منها بقدر معرفته.

على أنّ الإطلاق الذاتي ولا محدوديّة الهويّة الإلهيّة لا تدع مجالاً لظهور الأغيار، فمرجع تكبير الله وتعليته بعبارة «سبحان ربّي الأعلى» إلى تنزيهه عن التوصيف، بمعنى أنّ أظهر صفاته تعالى وأجلاها أنّ ذاته لا توصف، وبهذا المعنى الدقيق يفسَّر قوله تعالى: ﴿وَلله المَثَلُ الأَعْلَىَ﴾[2].

* * *

١. وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الذكر، الباب ٣٣، ح٢.

٢. النحل: ٦٠.

# وَالدَّعْوَةِ الحُسْنىٰ[1]

كلمة «دعوة» مشتقّة من مادة «دعو» بمعنىٰ الاستدعاء وطلب المجيء[1].

وكلمة «الحسنىٰ» اسم تفضيل، وهي مؤنّث «أحسن»، علىٰ وزان «أكبر وكبرىٰ وأصغر وصغرىٰ»، ومادّتها «الحُسن» بمعنىٰ الشيء المبهج المرغوب فيه[2]. ويستعمل قبال «القبح» والمكروه[3]، قال تعالىٰ: ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾[4]، وقال: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[5].

---

١ . سيأتي شرح معنىٰ هذه المفردة في ثنايا الكلام عن فقرة «الدعاة إلىٰ الله».

٢ . انظر: مفردات غريب القرآن، مادة «حسن».

٣ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٢، مادة «حسن».

٤ . النساء: ٧٨.

٥ . النساء: ٧٩.

## أكرم الدعوات

هناك وجوه عدّة في بيان أفضليّة دعوة الأئمّة:

**الأول**: أن تكون «الدعوة» هنا بمعنىٰ الداعي، وأُطلق اسم «الدعوة» علىٰ الأئمّة من باب المبالغة، كما قيل: «زيد عدل» لشدّة تجلّي العدالة فيه وقيامها به[١]؛ ولأنّ أهل البيت هم أحسن وأفضل الدّعاة فقد أُطلق عليهم عنوان «الدعوة الحُسنىٰ».

**الثاني**: أن تكون «الدعوة» هنا بمعنىٰ الذين يُدعىٰ الناسُ إليهم، وهم الأئمّة، فهم من قُرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، فلا جرم علىٰ هذا أن يكونوا أحسن وأكمل وأكرم من يُدعىٰ الناسُ إليهم.

**الثالث**: أن تكون «الدعوة» بمعنىٰ الداعي، و «الحسنىٰ» صفة لموصوف محذوف، والتقدير: الداعي إلىٰ الكلمات الحُسنىٰ، أو: الداعي إلىٰ الأمور الحُسنىٰ، أو ما قارب هذه المعاني.

**الرابع**: أن تكون هذه الفقرة ناظرة إلىٰ ما جاء في الحديث النبويّ المشهور، وهو قوله: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[٣]. وقد ذكر المفسّرون أنّ بعثة الرسول الأكرم هي إجابة لدعاء النبي إبراهيم حين بناء الكعبة بمعونة النبي إسماعيل، فقد دعا الله

---

١. يقال: إنّ زوج فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء الحكيم محسن الفيض الكاشاني سألت أباها الحكيم الإلهي الكبير ملاّ صدرا: لماذا لقّبت زوجي بالفيض ولقّبت زوج اختي بالفيّاض وهو صيغة مبالغة؟ فقال: من باب «زيد عدل»، ولو لم يكن فيضاً لما صار فيّاضاً. (مقدّمة ديوان الفيض، ص٦).

٢. النساء: ٥٩.

٣. روضة المتقين، ج١٢، ص٢٣٠.

بقوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]؛ لأنّ كلّ الأنبياء التالين لإبراهيم كانوا من بني إسرائيل من نسل النبيّ إسحاق، والرسول الأكرم هو النبيّ الوحيد من نسل إسماعيل؛ لذا قال: «كنتُ نبيّاً وآدم بين الماء والطين، وأنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ، ورؤيا أمّي»[2]. والأئمّة هم أبناء النبيّ والامتداد لرسالته ونهجه، فهم في الحقيقة امتدادٌ للدعوة الحُسنىٰ لإبراهيم الخليل أيضاً.

* * *

---

١ . البقرة: ١٢٩.

٢ . تفسير منهج الصادقين، ج١،ص٣٨٤؛ تفسير القمي، ج١، ص٦٢؛ تفسير الصافي، ج١، ص١٧٣.

# وَحُجَجِ اللهِ عَلىٰ أَهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَالأُولىٰ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ

كلمة «حُجج» جمع «حُجّة»، على وزان غُرَف وغُرفة، بمعنى الدليل والبرهان[1]، مشتقّة من المادّة «حجّ»، والمعنى الأصلي لكلمة «حج» القصد؛ ولذا يسمّى السفر إلى بيت الله لأداء المناسك حجّاً[2]. وقال أحمد بن فارس: «وممكن أن يكون الحُجّة مشتقّةً من هذا؛ لأنها تُقصَد، أو بها يُقْصَد الحقُّ المطلوب»[3].

وعليه فمعنى فقرة «حجج الله» البراهين والأدلاّء المنصوبون من قِبل الله سبحانه.

---

١. انظر: المصباح المنير، مادّة «حجّ».

٢. انظر: معجم مقاييس اللغة، ج٢، مادّة «حجّ».

٣. المصدر نفسه.

**ملاحظة**

إنّ إطلاق عنوان «الحجّة» على شيء لا يساوي صدقه وحقيّته، بل ربما كان الباطل والكذب مصداقاً أيضاً للحجّة، وذلك حينما يتشبّث به أهل الباطل والكذب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[١]. وقال: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾[٢]. [ويتعنون بعنوان الحجّة بلحاظ التشبّث به كدليل في الظاهر]، بينما الحجّة في واقعها لا تكون إلاّ حقّاً وصدقاً، لا غير؛ لذا تجد في قلوب أصحابها شوقاً، ولا يمكن بحال أن يكون الكاذبون وأهل الباطل حججاً. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ولم يلجئوا إلى حجّة فيما ادّعوا»[٣]. وإذا ما توّهم الضالّون شيئاً ما حجّةً فسينكشف بطلانه في ساحة الحقيقة «فكم حجّة يوم ذاك داحضة»[٤].

وكلمة «دنيا» مؤنث «أدنى»، وهي اسم تفضيل، ومادّتها «دنى» أو «دنو»، بمعنى القُرب مع النزول والانحطاط، سواء النزول المادّي أم المعنوي[٥]، وبمعنى القرب جاءت هذا الكلمة في الحديث: «إذا أكلتم فدنّوا». بمعنى: كلوا ممّا بين أيديكم[٦].

ويقسّم الحكماء عوالم الوجود إلى أربع مراحل طوليّة، وترتيبها بصورة القوس النزولي، أي من الأعلى إلى الأسفل: عالم اللاهوت، عالم الجبروت، عالم الملكوت،

---

١ . الشورى: ١٦.

٢ . الجاثية: ٢٥.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

٤ . وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب الذكر، الباب ٣٣، الخطبة ٢٢٣.

٥ . انظر: التحقيق، ج٣، مادة «دنى».

٦ . مفردات غريب القرآن، مادة «دنا».

عالَم الناسوت. فعالَم الناسوت ـ ويسمّىٰ عالَم الدنيا ـ هو أنزل مرحلة وجوديّة[1]. فالعالَمُ الذي نحيا فيه بأجسامنا هو آخر مرحلة وجوديّة وأنزلها رتبةً، فلا شيء بعدها سوىٰ العدم[2]، وهي ـ ماديّاً وحسّاً ـ أقرب مرحلة وجوديّة إلىٰ الإدراك البشري، أمّا العوالم الأخرىٰ فليست بمدرَكة لكلّ أحد.

وعلىٰ هذا فتسمية العالَم المادّي بـ «الدنيا» لوجهين: القرب والنزول.

وكلمة «الآخرة» مؤنّث «الآخر»، مشتقّة من «أخَرَ»، «وهو خلاف التقدُّم»[3]. وسُمّي عالَمُ القيامة بالآخرة لتأخّره عن عالَم الدنيا.

وكلمة «الأولىٰ» مؤنّث «الأوّل» بمعنىٰ مبتدأ الشيء، وهو أيضاً عدد تبدأ به الأعداد[4]، وقال بعضهم: «هو عدد له ثانٍ»[5].

**ملاحظات**

**الأولى**: يرىٰ البعض أنّ كلمة «والأولىٰ» في هذه الفقرة أضيفت خطأً من قبل النسّاخ، وعلىٰ فرض عدم الخطأ وورودها في المتون الأصليّة فقد يراد بها أحد هذه الأمور:

١ ـ عالَم الذرّ أو العوالم التي قبل عالَم الدنيا.

٢ ـ عالَم البرزخ، وهو ما يسبق عالَم القيامة.

٣ ـ عصر الرجعة.

٤ ـ وربّما ذكرت لفظاً رعايةً للسجع.

---

١ . انظروا تفصيل هذا البحث في كتاب «الحماسة والعرفان»، ص١٨٤.

٢ . ولهذا تُسمّىٰ بصفّ النعال.

٣ . معجم مقاييس اللغة، مادة «أخر».

٤ . انظر: المصدر نفسه، مادة «أول».

٥ . المصباح المنير، مادة «أول».

وربما كان المراد أنّ أهل البيت عليهم السلام هم الحجج على أهل الدنيا جميعاً، وفي كلّ الأزمان، الماضي والآتي، والسابق واللاحق، فيكون عبارة «الآخرة والأولى» ناظرة إلى تفصيل حالات هذه الدنيا، من حيث التقدّم والتأخر؛ ولكنّ المناسب على هذا الاحتمال حذف حرف «الواو» بعد كلمة «الدنيا».

**الثانية**: الكلمات الثلاث (الدنيا، الآخرة، الأولى) صفات مؤنّثات، فلا بدّ من تقدير موصوف، مثل «دار»، فيكون التقدير: دار الدنيا، الدار الآخرة، الدار الأولى.

**الثالثة**: جاءت كلمة «الأولى» في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة: تارةً بمعنى «الزمان القديم»، كما في آية: ﴿**وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولَى**﴾[١]، وآية: ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى**﴾[٢]. وأخرى بمعنى الدنيا المقابلة للآخرة، كما في آية: ﴿**فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى**﴾[٣]. وتارةً ثالثة بمعنى مطلق النشأة السابقة، كما في آية: ﴿**فَلِلّٰهِ الآخِرَةُ وَالْأُولَى**﴾[٤].

## الحجج الإلهيّة

الحجّة في الاصطلاح هي ما يستدلّ به طرفا النزاع ويقيماه لإثبات دعواهما، سواء كان ذلك في مجال العلم والمطارحات الفكريّة، أم في مجال العمل؛ ففي المطارحة العلميّة يهتمّ كلّ من المتحاورين بإقامة الحجّة والدليل لإثبات تفوّقه العلمي، وفي العمل يسعى المتّهم إلى إثبات براءته من جرم ارتكاب فعلٍ أو ترك

---

١ . الأحزاب: ٣٣.
٢ . النجم: ٥٠.
٣ . النازعات: ٢٥.
٤ . النجم: ٢٥.

فعل، فيسوق الحجج والبراهين الدالّة علىٰ دعواه. وإذا ما أراد أحدٌ إدانة آخر بأمرٍ فعليه أن يثبت بالدليل جرمَه واستحقاقه للمؤاخذة، سواء كان المُدين مولىٰ عرفيّاً أم شرعيّاً، وللعبد حقّ الدفاع عن نفسه، بإقامة البرهان المثبت لبرائته، والمبيّن لعذره، والمبرّر لإقدامه علىٰ الفعل أو لتركه.

وقد قالوا في تعريف الحجّة إنّها المؤمّن من العقاب الإلهي حال العمل، والمعذّر لدىٰ الله تعالىٰ حال الترك.

لذا قالوا في بحوث علم الأصول إنّ علىٰ الفقيه المجتهد تتبّع الدليل والحجّة في عمليّة استنباط الحكم الشرعي؛ لأنّ مصدر الأحكام الشرعيّة المستنبطة هو إرادة الله تعالىٰ، وبيده سبحانه جعلها، ووظيفة المجتهد بذل الجهد في معرفة تلكم الأحكام بالطرق المعتبرة، الأعمّ من العقليّة والنقليّة، وهذه الطرق المعتبرة الكاشفة عن الحكم الإلهي هي «الحجج» التي يستند إليها المجتهد ويتّخذها مؤمّناً ومعذّراً عند المولىٰ الحقيقي، وهو الذات الإلهيّة الأقدس.

وعمدة هذه الحجج موجودة في الكتاب الإلهي وسنّة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

إنّ القرآن الكريم هو الحجّة المكتوبة، وكلّ ما يُستظهر من آياته حجّة ودليل، سواءٌ استظهر من ظاهره المتبادر إم من سياقه، وسواء فُهم بلا واسطة أم بها، كسبب النزول وأمثاله. كما أنّ سنّة المعصومين حجّة أيضاً، أعمّ من القوليّة والعمليّة والتقريريّة[1]، فالوجود المبارك للمعصوم حجّة من جوانب ثلاثة.

---

١ . التقرير في اصطلاح أصول الفقه هو سكوت المعصوم عن فعل يُفعل بمرأىٰ منه، وعدم اعتراضه عليه أو علىٰ نحو أدائه، بشرط انتفاء موانع الاعتراض، من تقيّة وغيرها؛ فانّ سكوته حينئذٍ يُعدّ دليلاً علىٰ جواز ذلك الفعل وصوابه.

ولله سبحانه أن يحتجّ يوم الحساب على الأفعال والتروك بمضمون كتابه الكريم، بالشموليّة المذكورة، وبسنّة المعصوم، الشاملة لقوله وفعله وتقريره، كما أنّ عباده تعالى يحتجّون أيضاً على بعضهم بالدليل القرآني أو بدليل من السنّة على ما يقومون به وما يدّعونه.

وعلاوة على ذلك، فإنّ الوجود المبارك للمعصوم حجّة الله عملاً وعيناً، فمن يزعم مثلاً بأنّ مجاهدة الشيطان والنفس وترك الذنب ليس مقدوراً للإنسان؛ فإنّ وجود المعصوم برهان عينيّ على بطلان هذا الزعم؛ لأنّ وجوده عليه السلام العيني يثبت قدرة الإنسان في هذه الساحات.

والأدلّة على حجيّة كتاب الله وسنّة المعصومين عليهم السلام كثيرة، من أعظمها وأشهرها حديث الثقلين المعروف، فقد قرن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله الثقل الأصغر (العترة) بالثقل الأكبر (القرآن)، وجعل من اتبّاعهما معاً سبباً للهداية والنجاة، ومن مخالفتهما سبباً للضلالة والهلاك.

## الأدلّة الروائيّة على حجيّة أئمّة أهل البيت

ويحسن قبل ذكر الروايات الدالّة على حجيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام الالتفات إلى فائدتين:

١. حيث إنّ العترة الطاهرة عِدل القرآن الكريم، وهو برهان حقّ وحجّة صدق بالغة من عند الله تعالى، فإنّ أهل بيت العصمة هم أيضاً حجّة إلهيّة تامّة وكاملة؛ ومن هنا وصف أمير المؤمنين نفسه والقرآن بعنوان واحد، فقال: «أنا حجيج المارقين»[١]، وقال أيضاً: «أنا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم»[٢]، وقال

١. نهج البلاغة، الخطبة ٧٥.

٢. المصدر نفسه، الخطبة ١٧٦.

عن القرآن: «وكفىٰ بالكتاب حجيجاً»[1].

٢. إنّ تكافؤ القرآن والعترة وتجلّي حجّة الله فيهما معاً يهدينا إلىٰ أنّ كلّ وصف يثبت لحجيّة أحد هذين الثقلين فهو ثابتٌ أيضاً للآخر، وإحدىٰ الصفات الجامعة للحجّة الإلهيّة العجز عن أن توصف؛ لتمام بلوغها وغاية تكاملها. قال الإمام السجّاد عليه السلام: «حجّتك أجلّ من أن توصف بكلّها، ومجدك أرفع من أن يُحدّ بكنهه»[2]. فلا يدرك أحدٌ كنه الحجّة المكتوبة ولا حقيقة المقام الشامخ للولاية؛ لذا ورد في كيفيّة التسليم علىٰ تلك الذوات الملكوتيّة: «ربّ صلّ علىٰ أطائب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم... حججك علىٰ عبادك، وطهّرتهم من الرجس والدنس تطهيراً بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك، والمسلك إلىٰ جنّتك»[3].

وأمّا الروايات الواردة في حجيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام فهي كثيرة جدّاً، نكتفي بذكر بعض منها:

أ) روىٰ أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أنا وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين حجج الله علىٰ خلقه، أعداؤنا أعداء الله، وأولياؤنا أولياء الله»[4].

ب) روىٰ العالم السنّي الكبير الحاكم الحسكاني عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «إنّ الله جعل عليّاً وزوجته وأبناءه حجج الله علىٰ خلقه، وهم أبواب العلم في أمّتي، من اهتدىٰ بهم هُدي إلىٰ صراط مستقيم»[5].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

٢. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٤٦.

٣. المصدر نفسه، الدعاء ٤٧.

٤. بحار الأنوار، ج٣٦، ص٢٢٨.

٥. شواهد التنزيل، ج١، ص٧٦، ح٨٩.

ج) عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «أنا حجّة الله»[١]، وقال: «أنا الحجّة العظمىٰ»[٢].

د) روىٰ أبو الصلت الهرويّ، خادم الإمام الرضا عليه السلام، قال: كان الرضا عليه السلام يكلّم الناس بلغاتهم، وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكلّ لسان ولغة، فقلت له يوماً: يابن رسول الله! إنّي لأعجب من معرفتك بهذه اللغات علىٰ اختلافها؟ فقال: «يا أبا الصلت! أنا حجّة الله علىٰ خلقه، وما كان ليتّخذ حجّة علىٰ قوم وهو لا يعرف لغاتهم، أو ما بلغك قول أمير المؤمنين عليه السلام: أوتينا فصل الخطاب؟ فهل فصل الخطاب إلاّ معرفة اللغات»[٣].

هـ) وقال في حديثه عن شهادة الإمام الرضا عليه السلام:... ومكثت واقفاً في صحن الدار مهموماً محزوناً. فبينا أنا كذلك إذ دخل عليّ شابّ حسن الوجه، قطط الشعر، أشبه الناس بالرضا عليه السلام، فبادرت إليه وقلت له: من أين دخلت والباب مغلق؟ فقال: «الذي جاء بي من المدينة في هذا الوقت هو الذي أدخلني الدار والباب مغلق»، فقلت له: ومن أنت؟ فقال لي: «أنا حجّة الله عليك»[٤].

ويستفاد من الروايتين الأخيرتين أنّ حجّة الله المطلقة يجب أن يحظىٰ بقدرة مطلقة أيضاً، فيعرف كلّ اللغات ويتمكّن من التواجد في أيّ مكان يشاء، وإلاّ لم يكن حجّة مطلقة.

و) قال الإمام بقيّة الله الأعظم عجّل الله فرجه في كلامه لشيعته: «وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلىٰ رواة حديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم»[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج٣٩، ص٣٣٥، ح١.

٢. المصدر نفسه، ص٣٣٥.

٣. بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٩٠.

٤. المصدر نفسه، ج٤٩، ص٣٠١.

٥. المصدر نفسه، ج٢، ص٩٠؛ ج٥٣، ص١٨١.

وهذه الرواية تدلّ على أنّ الفقهاء حجج لله تعالى، والواسطة بين صاحب العصر ﷻ وسائر الناس، والإمام عليه‌السلام يُعمل حجيّته في زمن الغيبة بواسطتهم.

**ملاحظة**

الحجّيّة في كلّ عالَم متناسبة ونشأته، والإنسان الكامل بمقتضى خلافته لمن ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾[1] هو حجّة الله على الأوّلين والآخرين في كلّ نشئات وأدوار الخلقة، وهذه النشئات هي ما يعبّر عنها بالأولى والآخرة.

❊ ❊ ❊

١. الحديد: ٣.

# السَّلامُ على مَحالِّ مَعرِفَةِ اللهِ

كلمة «محالّ» جمع «محلّ»، مشتقّة من المادّة «حلّ»، والأصل في معناه فتح الشيء[1]. ويقال: حَلَّ المسافر بمكان كذا؛ لأنّ المسافر يشُدّ متاعه ويَعقِد، فإذا نزَلَ حَلّ ما عقده[2]. فصارت كلمة «حلّ» بمعنى «نزل»، وسمّيت «المحلّة» كذلك لنزول القوم بها، فالمحلّ هو ما يستقرّ فيه الشيء.

وكلمة «المعرفة» مستلّة من «عرف»، بمعنى حصول العلم بأمرٍ ما والاطلاّع على خصائصه وآثاره.

والفرق بين «العلم» و «المعرفة» أنّ الشيء المجهول إن كان يُدرك بإحدى الحواسّ الخمس فيستعمل لفظ العلم فيه؛ ولذا لا يقال: علمتُ الله؛ لأنّ ذاته الأقدس لا يمكن تصوّرها في الذهن، فلا تكون معلومةً لأحد. أمّا «المعرفة» فهي إبانة الشيء وتمييزه عن غيره، ويصحّ قول: «عرفتُ الله»؛ لأنّ إدراك الذات الربوبيّة بصفاتها ـ لا وحدها ـ بحيث تبينُ وتتميّز عن غيرها أمرٌ ممكن ومقدور.

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة «حلّ».

٢. انظر: المصدر نفسه.

## معرفة الذات الإلهيّة

من المهمّ في بداية البحث التنبيه على أمر، وهو أنّ معرفة كنه الذات الأقدس للباري تعالىٰ كما هي في واقعها ليس بمقدور أحد سوىٰ ذاته المقدّسة، فليس ذلك بمقدور لا للملائكة المقرّبين ولا للأنبياء المرسلين: «إنّ الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإنّ الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه أنتم»[1].

وبعبارة أخرىٰ: إنّ الإحاطة العلميّة شرط اكتناه كلّ مجهول ومعرفة جوانبه كلّها، والله تعالىٰ هو المحيط بكلّ شيء، وليس واقعاً تحت إحاطة شيء؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «ما عرفناك حقّ معرفتك»[2]. وقال إمام العارفين أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يدركه بُعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن»[3].

فإن كان مثل هؤلاء لا سبيل لهم إلىٰ ذات الله تعالىٰ، وليست لهم إحاطة ومعرفة بحقيقتها، فما بالك بغيرهم من مفكّرين!

إنّ ما هو مقدورٌ للموجود الممكن والمكلّف به هو معرفة الأسماء والصفات الحُسنىٰ له تعالىٰ.

## مناط التكليف في باب المعرفة

المقدار غير المقدور عليه من معرفة الله تعالىٰ خارجٌ عن دائرة التكليف، وما من أحد مأمور به. ومن هنا، قال الحكيم المتألّه الشيخ علي مدرّس زنوزي في تفسير حديث «ما عرفناك حقّ معرفتك»: إنّ حقّ معرفتك هو الاعتراف بالعجز عن

١. بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٩٢.
٢. نقل المحقّق الطوسي والشيخ البهائي هذه الجملة مرسلاً كحديث نبويّ، انظر: بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٣؛ ج٦٦، ص٢٩٢.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١.

معرفتك[١]. فما قدرنا عليه من معرفتك هو حقّ معرفتك بالنسبة لنا؛ لأنّ ما زاد عليها ليس بمستطاع لنا ولسنا بمأمورين به[٢].

وهذا المعنىٰ جارٍ أيضاً في مسألة الشكر، فإنّ القيام بشكره تعالىٰ حقّ الشكر ليس بمقدور أحد، وليس بواجب؛ ولذا قال الإمام السجّاد عليه السلام: «فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إيّاك يفتقر إلىٰ شكر، فكلّما قلت: لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول: لك الحمد»[٣]. وقال: «اللهمّ إنّ أحداً لا يبلغ من شكرك غايةً إلاّ حصل عليه من إحسانك ما يلزمه شكراً... فأشكَرُ عبادك عاجزٌ عن شكرك»[٤].

شعر:

نحن مع كروبيّ العالم العلويّ لا نستطيع حمدك بحقّ حمدك[٥]

وعليه فإنّ أعلىٰ مراحل المعرفة والثناء ـ وهو حاصل المعرفة ومتوقّف عليها ـ الاعتراف بالعجز، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الثناء عليه سبحانه: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك»[٦].

والاعتراف بالعجز عن حقّ الشكر هو أرفع درجاته. وحينما يكون البحث عن المعرفة والثناء والشكر لله تعالىٰ فإنّ المراد المقدار المقدور، لا أكثر. وملخّص القول:

---

١ . بدائع الحكم، ص٣٧.

٢ . التفسير المشهور أنّ «ما» في الرواية للنفي، وكلمة «حقّ» منصوبة لأنّها مفعول الفعل «عرفناك»؛ لكن بناءً علىٰ التفسير الثاني الذي يرىٰ الحكيم الشيخ عليّ أنّه أدقّ تكون «ما» موصولة، وجملة «ما عرفناك» خبر مقدّم، وجملة «حقّ معرفتك» مبتدأ مؤخّر.

٣ . مفاتيح الجنان، مناجات الشاكرين.

٤ . الصحيفة السجادية، الدعاء ٣٧.

٥ . بيت بالفارسية نصّه:

ما نتوانيم حقّ حمد تو گفتن　　　با همه كرّوبيان عالم بالا

٦ . بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٣.

١ ـ إنّ ذات الله، وهي الهويّة المطلقة، خارجة عن مجال عقل الحكماء وعن دائرة قلب العارفين.

٢ ـ إنّ الصفات الذاتيّة بحكم الذات؛ لأنّها عينها، فتمتنع على البرهان والعرفان.

٣ ـ إنّ الصفات الفعليّة، كالخالقيّة والرازقيّة و... وإن هي ظهور للذات، ومتحدّة معها اتّحاد الظهور مع الظاهر، لكنّها لا تأبى عن الإدراك بالبرهان العقلي أو الشهود العرفاني؛ لأنّها خارجة عن مقام الذات.

٤ ـ إنّ العلم الحصولي العقلي لا يضارع أبداً العلم الحضوريّ القلبي؛ لأنّ المفهوم الذهنيّ لا يعادل المصداق العينيّ.

### الأئمّة قمّة في الكمالات

إنّ للمعرفة الميسورة للمكنات مراتب كثيرة، فهي كالجبل الأشمّ الشامخ، ومرتبة الأئمة عليهم السلام في القمّة منه، وفي مرتفعاته الدنيا مراتب المتعلّمين على أيديهم، وكلّ واحد يطوي المسافة نحو القمّة بقدر طاقته على التعلّم والاستفادة من مدرستهم؛ ولكن تبقى دوماً مسافة بينه وبين رأس القمّة، ضرورة وجود فرق بين المعصوم وغيره، ولأنّه «لا يقاس بآل محمّد من هذه الأمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين»[1].

شعر:

ضلّ العالم كلّه بسبب قلّة من يعرف الأبدال الحقّ[2].

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة٢.

٢ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيت٢٦٣. ونصّه باللغة الفارسية:

جمله عالم زين سبب گمراه شد　　　كم كسي ز ابدال حقّ آگاه شد

## سرّ أفضليّة الأئمّة

إنّ الفارق الأساس بين مقام الأئمّة عليهم السلام وسائر الناس هو إدراك هذه المعارف العالية؛ إذ إنّ أجنحة عقول غيرهم لا تصل إلى سمائهم. لكنّ خواصّهم والمتعلّمين على أيديهم ربّما استطاعوا في مجال الكمالات العمليّة الائتمام والاقتداء بهم وبلوغ مراتب عالية، وأن تمسّ أيديهم شيئاً من قبس النار ولو من بعيد[١]، مع بقاء المسافة بينهم وبين أهل البيت عليهم السلام شاسعة. أمّا في مجال السير العلمي وفي طيّ مراحل الكمال المعنوي، فإنّ الأئمة عليهم السلام في مرتبة لا يُقاس بهم أحد، ولم يُخلق إلى الآن من استطاع أن يقول كقول عليّ: «أفأعبد ما لا أرى»[٢].

وهو وحدَه القائل في معرفته بالنبيّ صلى الله عليه وآله: «أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله! ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيِس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلاّ أنّك لست بنبيّ، ولكنّك لوزير، وإنّك لعلى خير»[٣].

و هو القائل في الدلالة على المعاد: «لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»[٤]. أمّا غيره فهم يزدادون يقيناً حينما يبصرون بعيونهم البرزخيّة ويرون علامات الموت وطلائعه، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[٥].

---

١ . كما في قصّة إطعام الفقير والمسكين والأسير وإيثارهم على النفس، التي نزلت فيها سورة «هل أتى»، فإنّ فضّة الخادمة اقتدت أيضاً بأمير المؤمنين والسيدة فاطمة والحسنين عليهم السلام.

٢ . قال الإمام هذه الجملة في جوابه لذعلب اليماني وقد سأله: هل رأيتَ ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «أفأعبد ما لا أرى؟» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان». (نهج البلاغة، الخطبة١٧٩).

٣ . نهج البلاغة، الخطبة١٩٢.

٤ . بحار الأنوار، ج٤٠، ص١٥٣.

٥ . السجدة: ١٢.

وهذا نهاية مراتب معرفة التوحيد والنبوّة والمعاد التي بمقدور المخلوق بلوغها، وقد بلغها عليّ عليه السلام.

## الآثار العلميّة والعمليّة للمعارف

لهذه المعرفة آثار في البُعد العلمي والعملي، تتجلّى آثارها العلميّة حينما تتحدّث تلكم الذوات القدسيّة عن الله تعالى، ويفيضون بمثل نهج البلاغة، الذي يحلّل أدقّ مسائل التوحيد الخالص، بنحو لا يوجد له مثيل إلاّ في القرآن؛ لذا أطلق على كلام عليّ عليه السلام «أخ القرآن» وقالوا عنه: «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق».

كلامُ عليٍّ كلامٌ عليٌّ        وما قاله المرتضى مرتضى

ولا تخلو أحاديث الأئمّة المعصومين من هذه العلوم، لكن لم يوفّق عالم لأنّ يقطف ويجمع من حديقة معارفهم ما جمعه السيّد الرضيّ رحمه الله من خطب وكلام أمير المؤمنين.

أمّا الآثار العمليّة للمعرفة فتتلخّص في سلب الأصالة عمّا سوى الله تبارك وتعالى، بل عدّ ما عداه عدماً. قال عليّ عليه السلام في هذه الدنيا الكبيرة العظيمة في عيون أهلها: «دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز»[1]، «والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عِراق خنزير في يد مجذوم»[2]، «عظُم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[3].

فعليّ لا يبالي بغير الله؛ لأنّه يرى عظمة الله تعالى بقدر سعته الوجوديّة.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٣. وهي المعروفة بالشقشقيّة.

٢ . المصدر نفسه، الحكمة ٢٣٦. والعبارات المماثلة لهذه الحكمة كثيرة في نهج البلاغة.

٣ . المصدر نفسه، الخطبة ١٩٣.

شعر:

كلّ من فاز باللقاء... سيرىٰ هذا العالم مجرّد ميتة![1]

إنّ هذه الكلام الرفيع في العلم والعمل هو كلام الإمامة، وليس خاصّاً بشخص أمير المؤمنين، والأئمة المعصومون كلّهم في مرتبة مماثلة من المعرفة العلميّة والسير العملي، ومن أمثلة ذلك دعاء الإمام الحسين عليه‌السلام:

«إلهي! تردّدي فى الآثار يوجب بُعد المزار... كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتىٰ يكون هو المظهر لك؟ متىٰ غبتَ حتّىٰ تحتاج إلىٰ دليل يدلّ عليك؟ ومتىٰ بعُدت حتّىٰ تكون الآثار هىٰ التي توصل اليك؟... عميت عين لا تراك عليها رقيباً»[2].

والفقرة الأخيرة إخبارٌ وبيانٌ لحقيقة، لا إنشاء ودعاء بالعمىٰ، ومعناها: إنّ من لا يراك رقيباً عليه هو فعلاً وحقيقةً أعمىٰ، لا أنّه سيعمىٰ!

إنّ هذا الكلام يدلّ علىٰ أنّ قائله رأىٰ ويرىٰ الله تعالىٰ بعين القلب، كما أنّه ينظر أيضاً إلىٰ ضمائر الآخرين ودواخلهم.

ومن الأمثلة الأخرىٰ رواية عن صادق آل محمد صلوات‌الله‌عليه، فقدكان يتلو القرآن في صلاته فغُشي عليه، فلمّا أفاق سُئل: ما الذي أوجب ما انتهت حالك إليه؟ فقال ما معناه: ما زلتُ أُكرّر آيات القرآن حتّىٰ بلغت إلىٰ حال كأنّي سمعتها مشافهة ممّن أنزلها علىٰ المكاشفة والعيان، فلم تقم القوّة البشريّة بمكاشفة الجلالة الإلهيّة[3].

---

١ . بيت بالفارسية نصّه:

هر كه از ديدار برخوردار شد    اين جهان در چشم او مردار شد

٢ . مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين يوم عرفة.

٣ . فلاح السائل، ص١٠٧؛ مفتاح الفلاح، ص٤٤٩.

## معنى حلول معرفة الله

معنى كون الأئمة عليهم السلام محالّ معرفة الله يُتصوّر بعدّة وجوه:

أ) ما سبق قوله، من أنّهم يعرفون الله تعالى معرفة تفوق معرفة غيرهم بمراتب كثيرة، فهم عرفوه بأعلى مستوى ميسور للممكنات.

ب) إنّ أفضل وأنجع وسيلة لطالبي المعرفة بالله التلقّي من مدرسة الأئمة الأطهار، «فكانوا هم السبيل إليك»[1]، ويشهد لهذا الزعم الخطب التوحيدية لذواتهم المقدّسة، لا سيّما خطب نهج البلاغة.

ج) إنّ كلّ موجود هو مظهر لله تعالى، لكن الأئمة عليهم السلام مظاهر أتمّ وأكمل لأسمائه وصفاته. قال عليّ عليه السلام: «ما لله نبأ أعظم منّي، وما لله آية أكبر منّي»[2].

كما أنّ آثار كلّ إنسان دليل ملكاته وقدراته، والأئمة عليهم السلام هم أصفى المرايا المتجلّية فيها صفات الكمال الإلهي والقدرة الربانيّة؛ لأنّهم أعظم آيات الله ومظاهره، فمن عرفهم فقد عرف الله. قال أمير المؤمنين عليه السلام في معنى آية: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾[3]: «نحن الأعراف الذين لا يُعرف الله إلاّ بسبيل معرفتنا»[4].

وهذه المظهريّة لله وإن تحقّقت وصدقت في غيرهم من الأفراد أيضاً، كما جاء في الحديث: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[5]، لكنّ مرتبة المعرفة بتوحيد الله الحاصلة من معرفة غيرهم لا تصل إلى مستوى وعمق المرتبة الحاصلة من معرفتهم، فلا مقايسة بين المرتبتين.

---

١ . مفاتيح الجنان، دعاء الندبة.

٢ . بحار الأنوار، ج٣٦، ص١و٢.

٣ . الأعراف: ٤٦.

٤ . بحار الأنوار، ج٢٤، ص٢٥٣.

٥ . المصدر نفسه، ج٢، ص٣٢.

د) فسّرت روايات أهل بيت العصمة عليهم السلام معرفة الله بمعرفة الإمام الواجب الطاعة، والدليل عليه ما قاله المحقّق الكراجكي: «اعلم أنّه لمّا كانت معرفة الله وطاعته لا ينفعان من لم يعرف الإمام، ومعرفة الإمام وطاعته لا تقعان إلاّ بعد معرفة الله، صحّ أن يقال: إنّ معرفة الله هي معرفة الإمام وطاعته»[1].

فعلىٰ هذا تتحقّق معرفة الله في معرفة الإمام المفروضة علىٰ الخلق طاعته. وعلىٰ هذا الأساس ورد في الحديث النبويّ: «... أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة، من عرفنا فقد عرف الله، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عزّ وجل»[2]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الإمام علمٌ بين الله عزّ وجل وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً، ومن أنكره كان كافراً»[3]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «معرفتي بالنورانيّة معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة الله عزّ وجلّ معرفتي بالنورانيّة»[4].

فتبيّن أنّ لمعرفة الله ظهوراً تامّاً في معرفة الإمام، وأنّ معرفة الإمام آية معرفة الله سبحانه، ولا تغايرَ بين هاتين المعرفتين، بل بينهما وثيق الصلة والترابط. والعنصر الأساس في هذا الترابط أنّ معرفة ذي الآية تكون بطريق معرفة آيته، ولكن يبقىٰ التفاوت الجوهري قائماً بين الواجب والممكن، ويبقىٰ الفرق الكبير محفوظاً بين معرفة الله تعالىٰ ومعرفة الإمام.

وهناك وجوه أخرىٰ مذكورة، نعرض عنها بغية الاختصار.

**ملاحظة**

معنىٰ «محلّ المعرفة» هو تجلّي وظهور المعرفة في الحالّ فيه، لا بمعنىٰ الحلول

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٩٣.
٢. المصدر نفسه، ج٢٦، ص٣٤٢.
٣. المصدر نفسه، ج٢٣، ص٨٨.
٤. المصدر نفسه، ج٢٦، ص١.

المادّي وعروضه على المحلّ؛ لأنّ معرفة الله مجرّد عقلي صرف، والمجرّدات العقليّة الصرفة منزّهة عن الحلول المادّي وما شابهه.

## إشارات

### ١ ـ نور واحد يشعّ من أربعة عشر رواقاً

وردت في بعض النسخ كلمة «محلّ» بدل «محالّ»، وقد يسأل سائل: إنّ أهل البيت جمع، فلمَ ورد الوصف مفرداً؟

ولهذا السؤال جوابان:

أ. إنّ المراد من «محلّ» الجنس، ككلمة «الرسول» في آية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]؛ فإنّ المراد فيها جنس الرسول، فصحّ إطلاقها على موسى وهارون معاً، وهما اثنان؛ فهنا يصحّ شمول كلمة «محلّ» لتلك الذوات المقدّسة كافّة.

ب. أن يقال: إنّ تلك الذوات المقدّسة نورٌ واحد وحقيقة واحدةٌ في عالم النور والملكوت، وهو نشأة الوحدة، وحينما حلّوا في هذه الدار، وهي نشأة الكثرة، ظهروا في أربعة عشر إنساناً، فعبّر بكلمة «محلّ» باعتبار نشأة الوحدة، وعبّر بكلمة «محالّ» بلحاظ هذه النشأة.

**ملاحظة**

بما ذُكر من كونهم عليهم السلام حقيقة واحدة في عالم الوحدة، ينكشف سرّ اختلاف التعبير عنهم عليهم السلام بالجمع تارةً وبالمفرد أخرى في فقرات هذه الزيارة، كما في «موضع الرسالة»، «مختلف الملائكة»، «مهبط الوحي»، «معدن الرحمة»، «خزّان

---

١. الشعراء: ١٦.

العلم»، «أصول الكرم»، «قادة الأمم»، «أولياء النعم».

## ٢ ـ هدف الخلقة

إنّ قيمة كلّ إناء بما فيه، وشأن كلّ محلّ بالحالّ فيه، وما من عاقل يجعل من آنية البِلّور أو الذهب ظرفاً للتراب والحقير من الأشياء، كما أنّه لا يضع الدرّ في الجراب، وما شابه من الأوعية.

وقد حصر القرآن الكريم غاية الخلقة في العبادة، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، والعبوديّة تبعيّة العبد لمولاه بلا شرط، بل تبعيّة غاية في التسليم والطاعة في شؤونه كلّها، بحيث لا يرىٰ لنفسه شيئاً، فلا ينساق وراء ميوله القلبيّة ولا يستقلّ بعلمه عن معبوده. قال الرسول الأكرم ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه، ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾»[٢].

والتبعيّة المطلقة غير ممكنة بغير معرفة الله، ولذا ورد في الرواية: «إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلاَّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه...»[٣]. وقال الإمام الباقر عليه السلام لأبي حمزة الثمالي: «إنّما يعبد الله من عرف الله»[٤].

وقد صرّح الحديث القدسيّ بهذه الحقيقة: «كنتُ كنزاً مخفيّاً، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقتُ الخلق لكي أعرف»[٥].

وهذه المعرفة هي الأعلىٰ شأناً، ولا يوجد عدِل لها في المعارف، فالقلب العارف

---

١ . الذاريات: ٥٦.

٢ . نور الثقلين، ج٥، ص١٣٢.

٣ . المصدر نفسه، ص١٣٢.

٤ . بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٧.

٥ . المصدر نفسه، ج٨٤، ص١٩٩ و٣٤٤.

بـالله هـو أعـلى وأفـضل القلـوب؛ وعليـه فإنّـه لا قلـب يـضارع قلـب الأئمـة الأطهار عليهم السلام ويعدله؛ لأنّه ما من قلب يعرف الله كمعرفة قلب الإمام،

## ٤ ـ الثقلان ومعرفة الله

إنّ القرآن الكريم هو أمثل مصدر لمعرفة الله سبحانه؛ وذلك لأمرين:

**اوّلاً**: إنّ اكتناه الذات الإلهيّة المقدّسة ليس بمقدور لأحدٍ سواه تعالى، وقد بيّن سبحانه في هذا الكتاب معاني وحدود أسمائه وصفاته، فبيان القرآن في مسألة معرفة الله فوق كلّ بيان.

**ثانياً**: إنّ الكلام يبيّن قدر المتكلّم وحقيقته وخصائصه، وبما أنّ هـذا الكتـاب الفريد في نظام التدوين هو كلام الله، فهو بالتالي أحسن مبيّن لقدر الله: «فتجلّى لهـم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم مـن قدرتـه»[١]. فـالقرآن إذن هـو الأحسن محلاً لمعرفة الله، وفي هذه الفقرة مـن الزيـارة وُصـف الأئمـة عليهم السلام بـأنّهم «محالّ معرفة الله».

وحاصل هذين الأمرين هو تأكيدٌ على ما ورد في حديث الثقلين، فقد جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله هذين الجوهرين عِدلين متكافئين.

## ٤ ـ القوى الظاهريّة والباطنيّة

إنّ للإنسان بُعدين: جسم وروح، ولكلّ منهما قلب وسمع وبصر وذوق وشمّ و...، وهذه الحواس الظاهريّة والباطنيّة لها حالاتها الخاصّة من السلامة والمرض. إنّ القلب الظاهري ذي الصورة الصنوبريّة تعرضه أمراض خاصّة به، وعلم الطبّ هو المسؤول عن تسمية تلك الأمراض ومعالجتها، وللقلب المعنوي أيضاً أمراضه، سمّاها القرآن بـ «الرَّين» و «القُفل» و «الأكنّة» و «الغلاف» و «الصرف» و «الطبع»

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة١٤٧.

و «الختم» و «القساوة»، وما شابه ذلك، وقد تكفّل بمعالجتها. والنسبة بين مرض وسلامة القلب الجسماني والروحاني هي العموم والخصوص من وجه، فقد ينعم القلب الجسماني لامرئ بالسلامة، ولكنّ قلبه الروحاني مبتلىً بمرض الكفر أو النفاق أو الفسق، وقد يكون قلبه الجسماني سقيماً ولكنّ القلب الروحاني سليم، وربّما يمرض القلبان معاً، كالكافر حينما يُبتلى قلبه الظاهري بالمرض، وربّما حظي القلبان بالسلامة، كالمؤمن حينما ينعم قلبه الظاهري بالسلامة.

وهذا الكلام بعينه جارٍ أيضاً في حواس الإنسان: السمع والبصر والشمّ والذوق، ظاهرها وباطنها.

وكما أنّ قوى الإنسان الظاهريّة تكون قادرةً على رؤية الأشياء وسماع الأصوات وشمّ الروائح إذا ما كانت في عافية؛ فكذلك تكون قواه الباطنيّة قادرةً على سماع الأصوات المعنويّة ورؤية المشاهد المعنويّة الخلاّبة وشمّ الروائح الطيبة إذا ما حظيت بالسلامة.

إنّ شمّ النبيّ يعقوب رائحة يوسف النبيّ من بعيد وقوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[1] إنّما كان بفضل وجود الشامّة الباطنيّة، وهي ثمرة طهارة الضمير وصفاء القلب، والمرء بحاجة إلى سنوات من الصبر لفتح كوّة هذه الشامّة الملكوتيّة. وعلى العبد أن يبدأ الخطى نحو الله تعالى ليأتيه المدد الإلهي ويمسك الله سبحانه بيده، قال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[2]، إنّ أصحاب الكهف آمنوا بالله وشرعوا في المسير إليه، ومن ثمّ ازدادوا هدايّة إلهيّة، فالمدد الربّاني لا يحصل جزافاً وبدون مقدّمة وسير، كما أنّ السير وحدَه بدون عون إلهي لا يوصل السالك إلى

١ . يوسف: ٩٤.

٢ . الكهف: ١٣.

مبتغاه ومقصده.

شعر:

لا تحسبنّ المجنون جنّ بلا سبب...

بل عشق ليلىٰ جذبه من السماك إلىٰ السها

أنا إذ بلغتُ منبع الشمس لم أطو طريقه...

بل كنتُ ذرّةً، رفعني إليها حبّك

كنتُ سقط متاع تافه وقع في السيل...

فجرىٰ وذهب بي إلىٰ وسط البحر[١]

علىٰ العاشق الصادق أن يجنّ ليحلّق به عشق ليلىٰ إلىٰ سها العشق، وعليه أن يلقي بنفسه في لجّة سيل العرفان ليبلغ بحر المعرفة.

إنّ معرفة الله ومن ثمّ الحديث عنها للآخرين من هذا القبيل، فيجب أولاً أن تكون العين والأذن الباطنيّتان للإنسان سالمتين ومفتّحتين، ويجب ثانياً البدء في السير نحو الله تعالىٰ.

إنّ أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام حينما يقولون: نحن نرىٰ الله، ومن ثمّ يتحدّثون لنا عن معرفته تعالىٰ، فلأنّ عيونهم وآذانهم الباطنيّة مفتوحة، ولأنّهم خطوا خطوات باتّجاه الله سبحانه، فأتاهم المدد الإلهي، وإن كان مقتضىٰ التوحيد الأفعالي أنّ: ﴿مَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[٢]، فالأمور النافعة كلّها من عند الله تعالىٰ.

* * *

---

١ . المعلّم العلاّمة الطباطبائي. ونصّ هذه الأبيات بالفارسية كالتالي:

| | |
|---|---|
| تو مپندار كه مجنون سرخود مجنون شد | از سمك تا سهايش كشش ليلا برد |
| من به سر چشمه خورشيد نه خود بُردم راه | ذرّه‌اي بودم ومهر تو مرا بالا برد |
| من خَس بي سر وپايم كه به سيل افتادم | او كه مي‌رفت مرا هم به دل دريا بُرد |

٢ . النحل: ٥٣.

# وَمَسَاكِن بَرَكَةِ اللهِ

كلمة «مساكن» جمع «مسكن»، مشتقّة من المادّة «سكن»، بمعنى الاطمئنان وعدم الحركة، وخلافه الاضطراب والحركة[1].

وقد سبق القول إنّ «البركة» تفيد اللزوم والدوام والبقاء[2].

وما يجدر التنبيه عليه هنا أنّ كلمة «بركة» وإن كانت بحسب اللغة شاملة لكلّ دوام، سواء كان الدائم أمراً مادّياً أم معنويّاً، إلاّ أنّ الغالب استعمالها في الأمر المعنوي؛ لأنّ الأمر المادّي ينفد بالاستهلاك، وغير قابل للبقاء، ولكي يبقى يجب ألاّ يُستهلك، وإن كان مرور الزمان كفيلٌ بإفنائه.

## مفهوم البركة

النِّعم التي يفيضها الله تعالى، من مال وبنين وعلم... وغير ذلك؛ قد تكون

---

١ . انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة «سكن».

٢ . انظر: الجزء الأول من هذا الكتاب، فقرة «ورحمة الله وبركاته».

لكنّ هذين الرجلين لم يكن لهما بركة في علومهما وأموالهما وأولادهما الأشدّاء ووجاهتهما؛ لذا لم يكسبا من كلّ ذلك دوام الذكر وبقاء الاسم.

شعر:

لما دفنوا بقيّة جسد ذلك المتهالك في التراب...

أكله ترابه حتّى لم يبقَ منه شيء من العظام[1]

## مكانة البركة

إنّ الأئمة عليهم السلام هم الواسطة في كلّ نعمة، وما تنزل من نعمة إلاّ بوساطتهم، وهم أيضاً منشأ وسبب بركة كلّ نعمة، وهي في ذاتها نعمةٌ أخرى. والمؤمن وإن كان بركةً لأخيه المؤمن كما جاء: «إنّ المؤمن بركةٌ على المؤمن»[2]، وقد ذُكرت في النصوص أمور أخرى كمحالّ للبركة أيضاً، إلاّ أنّ ما يميّز الأئمة عليهم السلام هنا أنّهم ليسوا بركةً وحسب؛ بل هم أيضاً الواسطة في بركة كلّ شيء، وبيمن وجودهم تتبارك النِّعم الماديّة والمعنويّة المفاضة من عند الله تعالى، بل إنّ وجودهم المبارك مسكن ومقرّ بركة النّعم الإلهيّة.

وببيان آخر: كما أنّ الخزائن الإلهيّة متعدّدة، ولكلّ شيء خزائن معدّة لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾[3]، فإنّ لكلّ خير وفيض إلهي مبادئ ومصادر وخزائن معدّة. والبركة هي ما تكون سبباً لدوام الفيض، أو هي الفيض الدائم نفسه، ومن يكون مخزناً ومقرّاً لهكذا شيء ومقرّاً لهكذا خير فهو مسكن البركة.

---

١ . گلستان، الباب الأول، الحكاية٢، ص١٤ . ونص البيت باللغة الفارسية:

و آن پير لاشه را كه سپردند زير خاك　　خاكش چنان بخورد كزو استخوان نماند

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص٢٨٣.

٣ . الحجر: ٢١.

ووُصف أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام هنا بأنّهم «مساكن بركة الله»؛ لأنّهم خزائن البركة، وفي كلام الإمام السجّاد عليه السلام وُصف النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله بأنّه: «إمام الرحمة وقائد الخير ومفتاح البركة»[1]، وأهل بيت العصمة داخلون في هذه العناوين من حيث إنّهم نور واحد، فهم أيضاً مفاتيح البركة؛ ومن هذا يتبيّن أنّ لبركة الله خزائن، وأنّهم عليهم السلام مفتاح تلك الخزائن، وبما أنّ هذه الحقائق ترجع بحسب التحليل النهائي إلى وحدة المفتاح والخزائن والخازن، فالهويّة النورانيّة لهذه الذوات المقدّسة هي مصدر كلّ كوثر مبارك.

## إشارات

### ١ ـ مبدأ البركة

إن الله سبحانه مبارك: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]، واسمه تعالى مبارك: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[3]، ووجه المبالغة في هذا الوصف أنّ خالص البركة وعظيمها مختصّة به سبحانه، ثمّ تتنزّل البركات الوفيرة من لدن الذات الربوبيّة المقدّسة.

### ٢ ـ مصاديق البركة

إنّ ما يكون مصدر خير كثير، ويصحّ أن يسمّى كوثراً (مقابل التكاثر) على الحقيقة ـ لا المسامحة والتجوّز ـ هو موجود مبارك، تنزّل من عند الله المتبارك، وذلك

١ . الصحيفة السجّاديّة، الدعاء٢.

٢ . المؤمنون: ١٤.

٣ . الرحمن: ٧٨.

مثل:

أ. القرآن الحكيم، قال تعالى: ﴿هَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[١]، ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾[٢].

ب. الإنسان الكامل، نحو عيسى المسيح عليه السلام الذي قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾[٣].

ج. الكعبة، وهي قبلة ومطاف المسلمين: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤].

د. المسجد الأقصىٰ، وهو أوّل قِبلة للمسلمين، وهو مذكور في القرآن بالتمجيد والتكريم: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[٥].

هـ. ليلة القدر، وهي ليلة نزول القرآن الحكيم وتنزّل ملائكة الرحمة والمبشّرين بالسلام: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[٦].

## ٣ـ أسباب البركة

ذُكر في الروايات عدد من أسباب البركة:

أ. الصلاة: «للمصلّي حبّ الملائكة، وهدىٰ، وإيمان، ونور المعرفة، وبركة في الرزق...»[٧]. وفي بعض الروايات ذُكرت هذه الخصائص لصلاة الليل[٨].

---

١. الأنعام: ٩٢.
٢. الأنبياء: ٥٠.
٣. مريم: ٣١.
٤. آل عمران: ٩٦.
٥. الإسراء: ١.
٦. الدخان: ٣.
٧. بحار الأنوار، ج٧٩، ص٢٣٢.
٨. المصدر نفسه، ج٨٤، ص١٦١.

ب. مشاورة العقلاء الناصحين: «ومشاورة العاقل الناصح يُمن وبركة ورشد وتوفيق من الله، فإذا أشار عليك العاقل الناصح فإيّاك والخلاف فإنّ في ذلك العطب»[١].

شعر:

إنّي أنصحك فاستمع لي ولا تتعلّل...

اقبل ما يقوله لك الناصح المشفق[٢]

ج. النصيحة في التعامل وترك غشّ المسلمين، فـ «من غشّ أخاه المسلم نزع الله عنه بركة رزقه، وأفسد عليه معيشته، ووكله إلى نفسه»[٣].

د. أداء حقوق النّاس، فـ «من حبس عن أخيه المسلم شيئاً من حقّه حرّم الله عليه بركة الرزق إلاّ أن يتوب»[٤].

هـ. الصدقة، ففي الرواية عن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: كان الصادق عليه السلام، في طريق ومعه قوم معهم أموال، وذُكر لهم أنّ بارقة في الطريق يقطعون على الناس، فارتعدت فرائصهم، فقال لهم الصادق: ما لكم؟ قالوا: معنا أموال نخاف أن تؤخذ منّا، أفتأخذها منّا فلعلّهم يندفعون عنها إذا رأوا أنّها لك؟ فقال: وما يدريكم؟ لعلّهم لا يقصدون غيري، ولعلّكم تعرّضوني بها للتلف؟ فقالوا: فكيف نصنع؟ ندفنها؟ قال: ذاك أضيع لها، فلعلّ طارئاً يطرأ عليها فيأخذها؟ أو لعلّكم لا تهتدون إليها بعدُ، فقالوا: فكيف نصنع؟ دلّنا! قال:

---

١. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣١٣.

٢. ديوان حافظ، الغزل٢٥٦، ص٣٢٦. ونصّ البيت باللغة الفارسية:

نصيحتي كنمت بشنو و بهانه مگير　　　هر آنچه ناصح مشفق بگويدت، بپذير

٣. بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٦٥.

٤. المصدر نفسه، ص٣٣٥.

أودعوها من يحفظها ويدفع عنها ويربيها، ويجعل الواحد منها أعظم من الدنيا بما فيها، ثمّ يردّها و يوفّرها عليكم أحوج ما تكونون إليها، قالوا: من ذاك؟ قال: ذاك ربّ العالمين، قالوا: وكيف نودعه؟ قال: تتصدّقون بها على ضعفاء المسلمين، قالوا: وأنّى لنا الضعفاء بحضرتنا هذه؟ قال: فاعزموا على أن تتصدّقوا بثلثها ليدفع الله عن باقيها من تخافون، قالوا: قد عزمنا، قال: فأنتم في أمان الله فامضوا. فمضوا وظهرت لهم البارقة، فخافوا، فقال الصادق عليه السلام: فكيف تخافون وأنتم في أمان الله عزّ وجل؟ فتقدّم البارقة وترجّلوا وقبّلوا يد الصادق عليه السلام وقالوا: رأينا البارحة في منامنا رسول الله صلى الله عليه وآله يأمرنا بعرض أنفسنا عليك، فنحن بين يديك ونصحبك وهؤلاء لیندفع عنهم الأعداء واللّصوص، فقال الصادق عليه السلام: لا حاجة بنا إليكم، فإنّ الذي دفعكم عنّا يدفعهم. فمضوا سالمين، وتصدّقوا بالثلث، وبورك في تجاراتهم، فربحوا للدرهم عشرة، فقالوا: ما أعظم بركة الصادق! فقال الصادق عليه السلام: قد تعرّفتم البركة في معاملة الله عزّ وجل، فدوموا عليها[1].

و. التقوى، وهي أعظم سبب لهطول البركات الإلهيّة وتتابعها، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن أخذ بالتقوى... وبلت عليه البركة»[2].

* * *

---

١. بحار الأنوار، ج٩٣، ص١٢٠ ـ ١٢١، ح٢٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

# ومعادن حكمة الله

كلمة «معادن» جمع «معدن»، وقد مرّ معناها[1].

وكلمة «الحكمة» مشتقّة من المادّة «حكم»، وهو المنْع. وأوّل ذلك الحُكْم، وهو المَنع من الظُّلْم. وسمِّيَتْ حَكَمة الدابّة لأنّها تمنعُها يقال: حَكَمْت الدابةَ وأحْكَمتها، ويقال: حكَمت السَّفيهَ وأحكمتُه، إذا أخذتَ على يديه[2].

وسُميّت «الحِكْمة» ـ على وزان فِعْلة ـ بذلك لأنّها تمنع من الجهل، وهي تدلّ على نوع خاصّ من الحُكم. والحكومة هي حسن تدبير وإدارة البلاد؛ لأنّ منع الفوضى والفتن الداخليّة والوقوف بوجه الهجمات الخارجيّة بحاجة إلى سياسة كفوءة ونظم محكم.

---

١ . انظر ج١ من هذا الكتاب، فقرة «معدن الرحمة».

٢ . انظر: معجم مقاييس اللغة، مادّة «حكم».

## تقسيم الحكمة إلى نظريّة وعمليّة

الجهل في ثقافة القرآن والروايات يقابل العقل، وفي مجال الفعل يقال: هذا عمل عقلائي وذاك عمل الجاهلين؛ ولكنّ العرف العام يستعمل الجهل في قبال العلم أيضاً، فينقسم الجهل حينئذٍ إلى قسمين: جهل علمي وجهل عملي أو عقلي.

وهذا يعني انقسام الحكمة ـ وهي المانع من الجهل، والخير الكثير بحسب المعيار القرآني: ﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[1]، والدنيا بما فيها وبعظمتها التي يراها بها عبّادها ما هي في معيارها إلاّ متاع قليل: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2] ـ إلى قسمين: حكمة نظريّة وحكمة عمليّة.

وبيان ذلك: إنّ «الحكمة» وإن استعملت معنىً بما يرادف معنى «الفلسفة»، لكنّها في لسان القرآن والروايات بمعنى العلوم المبرهنة والمستدلّة والعصيّة على الإبطال، التي تكون ذات دور أساس ومحوري في سعادة المجتمع البشري، وهي ما تسمّى بالعلوم الإنسانيّة، وتنقسم إلى قسمين:

**الأوّل:** العلوم التي يُبحث فيها عن المسائل الخارجة عن قدرة البشر واختيارهم، وهي الأمور النظريّة المحضة، التي لا ترتبط بوجود الإنسان خارجاً؛ مثل مسائل المبدأ ووحدانيّته، العالم المجرّد، عالم الملكوت، الملائكة، المادّة، السير التكاملي للمادّة، وما جانس هذه المسائل. وكمال المحصّلين يكمن في تحقيق هذا المسائل، المسمّاة بالحكمة النظريّة، وفي الاعتقاد بها بعد دراسة جوانبها المختلفة، والبرهنة باتقان عليها.

---

١ . البقرة: ٢٦٩.

٢ . النساء: ٧٧.

الثاني: مسائل من قبيل تهذيب النفس، تربية الروح، كمال الأخلاق والفضائل الإنسانيّة، تدبير المنزل وحسن إدارة العائلة وتربية الأبناء، تبيين معنى العدالة والتقوى والزهد، كيفيّة حيازة هذه الملكات، الإدارة الصائبة للمجتمع، وغير ذلك من الأمور الواقعة تحت اختيار الإنسان وقدرته، والتي لها صلة وثيقة بوجوده الخارجي، بحيث إنّه لو عُدم البشر لم يكن لتلك المسائل والبحوث معنى وفائدة.

وكمال العلماء في هذه المسائل، المسمّاة بالحكمة العمليّة، هو الاتّصاف بها، بعد التحقيق فيها ومعرفة أبعادها.

وقد استعمل القرآن الكريم الحكمة بقسميها. والحكمة المعطاة لحكيم الحبشة ـ لقمان الحكيم ـ كانت من القسمين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]؛ فإنّ الأمر بالشكر محسوب من الحكمة العمليّة، وآخر الآية لا سيّما ذيلها ـ وهو استدلال على صدرها ـ محسوب من الحكمة النظريّة. وهذه الدمج والاستدلال بحكمة نظريّة على مضمون حكمة عمليّة موجود أيضاً في نصائح لقمان ومواعظه لابنه[2]، وفي ستّ عشرة آية من سورة الإسراء[3]، وذكرت الآية ٣٩ أنّ ذلك من الحكمة.

### معادن الحكمة

لا كلام في أنّ كثيراً من الناس قد وُهبوا الحكمة، ومن أمثلتهم البارزة لقمان: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، ومنهم داود: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ

---

١ . لقمان: ١٢.

٢ . انظر: لقمان: ١٣ وما بعدها.

٣ . الآيات ٢٣ إلى ٣٨.

وَالْحِكْمَةَ﴾[١] «﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٢]، ومنهم آل إبراهيم: ﴿آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٣].

والرسول الأكرم ﷺ وأنبياء الله عليهم السلام كلّهم معلّمو حكمة، فهم من علّم البشريّة الحكمة[٤]، والله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، إذا ما طلبها وسعى لها سعيها. وما يمتاز به أهل البيت عليهم السلام عن غيرهم هنا أنّهم معدن الحكمة وينبوعها الفيّاض؛ لأنّ ما يتنزّل من فيض من عند الله يجب أن يُدّخر في معدن وجود الأئمة عليهم السلام، ليتمّ ترقيقه وتقريبه ليكون مهيئاً لانتفاع الناس به، فيجب أولاً أن يفيض منهم ليفيد منه الآخرون، كلٌ بحسب استعداده واستيعابه. وهذا نظير ما يحدث في تكوّن الذهب والفضّة، فإنّ التربة المستعدّة لصيرورتها ذهباً أو فضّة بحاجة إلى مكان مناسب لتتحوّل، ولن تتحوّل ما لم تمرّ بتلك المرحلة، فأهل البيت عليهم السلام هم المعدن المناسب لنبع العلم والحكمة؛ لذا جاء في الرواية عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: رأيت رسول الله ﷺ آخذاً بيد عليّ بن أبي طالب، وهو يقول: «هذا أمير البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله، ثمّ رفع بها صوته: أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها، فمن أراد الحكمة فليأتِ الباب»[٥].

والأئمّة الأطهار عليهم السلام هم ورثة كمالات وشؤون النبيّ الأكرم، ما عدا بعض الشؤون الخاصّة بمقام النبوّة، مثل تلقّي الوحي التشريعي، وتعليم الكتاب والحكمة من شؤون وتكاليف النبيّ ﷺ، فورثوا منه هذا المنصب. وكلّ عالم ديني

---

١. البقرة: ٢٥١.

٢. ص: ٢٠.

٣. النساء: ٥٤.

٤. انظر: سورة البقرة: الآيتان ١٢٩و١٥١؛ سورة الزخرف: الآيات ٦٣ و...

٥. بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٠١، ح٣.

مكلّف بتبليغ الدين ونشر المعارف الإلهيّة، وبالتالي فهو يمارس تعليم الكتاب والحكمة؛ لكنّ الفرق بين النبيّ الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام وبين غيرهم هو أنّ النبيّ وخلفاءه بالحقّ مكلّفون بذلك بأمر مباشر من الله سبحانه، ومؤيّدون بتأييد ربّاني خاصّ، أمّا غيرهم فهم مكلّفون بذلك بتكليف عامّ ومؤيّدون بتأييد عامّ.

وبعبارة أخرى:إنّ النبيّ ﷺ يتلقّى الحكمة بالتعلّم المباشر من الله تعالى، والأئمة هم الوارثون لحكمته؛ أمّا الآخرون فهم قنوات تعليم وتعلّم بشري، وبمقدار محدود من تلك الحكمة، والفرق بين العلوم الموروثة والعلوم البشريّة الحاصلة بالتعلّم هو في الكميّة وعدم النفاد من جهة، وفي الكيفيّة وعدم الخطأ من جهة ثانية. والحاصل: إنّ أنبياء الله هم «مصابيح الظُّلمة وينابيع الحكمة»[١]، وأهل بيت العصمة هم وارثو تلك الذوات المقدّسة بالأصالة والحقيقة.

## إشارات

### ١ ـ معنى الحكمة

الحكمة الواقعيّة هي العلم الصائب النافع والعمل الصالح الخالص، وخير مثال للعلم الحقّ هو العلم الموجود في القرآن، وهو المعبَّر عنه بالقرآن الحكيم: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[٢]، ووصفُ بعض الأشعار بالحكمة كما في رواية: «إنّ من الشعر لحكمة»[٣] إنّما هو بلحاظ مضامينها السامية، المقتبسة من علوم أهل بيت الحكمة وأسرة مدينة العلم.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة١٠٨.

٢. يونس: ١.

٣. من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧٩، ح٥٨٠٥.

## ٢ ـ حكمة القرآن ولقمان

إنّ حكمة القرآن مردّها إلى كونه مظهر العلم لأحد الأسماء الحسنى لله تعالى، وهو الاسم المبارك «الحكيم»، واتّصاف إنسان رفيع منيع كلقمان بالحكمة بلحاظ مظهريّته في العلم والعمل لله الحكيم؛ لأنّ الحكمة العلميّة الإلهيّة هي معرفة حقائق الأشياء، والحكمة العمليّة هي الصنع المتقن المحكم، فالإنسان العالم بحقائق الأشياء بحسب الوسع البشري، والمدير الحكيم للمجتمع الإنساني على أساس من العلم والعدل، هو مظهر لذلك الاسم الإلهي المبارك.

## ٣ ـ العلماء الصالحون والحكمة

إنّ العلماء العادلين الصالحين، الذين اصطبغ علمهم بصبغة الآية المحكمة والفريضة العادلة والسنّة القائمة، وابتنت رؤيتهم للكون على محور التوحيد الخالص والفقه والأخلاق والحقوق، وتشبعّت سيرتهم العمليّة بروح «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»؛ هم الحكماء الذين ورد الترغيب في التواصل معهم علميّاً وعمليّاً، وقد كان أمير المؤمنين يحضّ بنيه المعنويين[١] على مدارستهم، فقال: «وأكثر من مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به النّاس قبلك»[٢].

## ٤ ـ الحكمة الخالصة

إنّ الأئمة عليهم السلام معدن الحكمة، وليس لها منبع غيرهم؛ لأنّ الحكمة كسائر الفيوضات المعنويّة تفيض بفيضان الأسماء الحسنى، وتجري إلى الموجودات عبر

١ . بمقتضى الرواية النبويّة: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة» فإنّ الكلّ أبناء رسول الله وأمير المؤمنين.

٢ . نهج البلاغة، الكتاب٥٣.

وجودهم النوراني، فما لدىٰ البشر من حكمة أصله في بيتهم الرفيع، وما جاء به الأنبياء السابقون لأممهم إنّما تلقّوه بواسطة أنوارهم المقدّسة، وما علّمه الحكماء والفلاسفة الماضون للبشريّة هو ما تعلّموه بطريق مباشرة أو غير مباشرة من مدرسة الأنبياء الغابرين، فهم أيضاً تلاميذ بالواسطة للأئمة عليهم السلام. ويشهد لهذه الدعوىٰ خطاب القرآن في شأن النبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، فإنّه يُفهم من هذه الآية أنّ المعارف الإلهيّة في رتبة رفيعة عالية، لا تنالها الأيدي، وحتّىٰ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن لينالها بدون مقام الرسالة والنبوّة؛ لذا خاطب الله تعالىٰ نبيّه بنفس الخطاب العامّ، فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2].

فأئمة أهل البيت عليهم السلام هم واسطة الفيض في التعليم الإلهي للبشريّة، وعلىٰ طلاّب العلم والحكمة التحلّق حولهم والتلقّي منهم؛ إذ لا شيء عند غيرهم. وعليه جاء في الرواية عن الحلبي أنّ رجلاً حكىٰ قولاً عن الحسن البصريّ بمسمع من الإمام الباقر عليه السلام، فكذّب الإمامُ قول البصريّ، ثمّ مدّ بها صوته فقال: «ليذهبوا حيث شاؤوا، أما والله لا يجدون العلم إلاّ ههنا. ثمّ سكت ساعة، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: عند آل محمد»[3].

وما لا يكون صادراً من أهل هذا البيت فليس هو من الحكمة في شيء، وإن كان علىٰ ظاهر الحقّ وذا مضمون جذّاب وعالٍ؛ لأنّه ليس كلّ علم حكمة بحسب معيار القرآن والروايات، بل العلم الحكمة هو ما يكون سبباً للسعادة والنجاة. ويشهد لهذا جوابُ الإمام الباقر عليه السلام لأبي بصير في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ

١. البقرة: ١٥١.
٢. النساء: ١١٣.
٣. بحار الأنوار، ج٢، ص٧٠، ح٢٧؛ وكذلك ص٦٤، ح٣.

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[١]، قال: «هي طاعة الله ومعرفة الإمـام»[٢]، وفي روايـة أخرىٰ قال: «معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار»[٣]. وعـرّف الإمام الصادق عليه السلام الحكمةَ فقال: «إنّ الحكمة المعرفة والتفقّه في الدين، فمن تفقّه منكم فهو حكيم»[٤]، وقد ذكر العلاّمة المجلسي بعد نقلـه هـذه الروايـات التفاسـيرَ المختلفة للحكمة، ثمّ قال: «والتفاسير متقاربة، والظاهر مـن الأخبـار أنّهـا العلـوم الحقّة النافعة مع العمل بمقتضاها».

ويدلّ علىٰ هذا المعنىٰ أيضاً تفسير الحكمة بالشكر في الآية١٢ من سورة لقـمان، وإطلاقُ الآية ٣٩ اسمَ الحكمة علىٰ الأمور المذكورة في الآيـات الـستّ عـشرة مـن سورة الإسراء (الآيات٢٣ إلىٰ٣٨).

كما أنّه لا يقال لكلّ قوّة إدراك: «عقل»، بل العقل الحقّ هو القوّة المدركـة التـي تحرّك الإنسان إلىٰ عبادة الرحمن واكتساب الجنان، و «من كان عاقلاً كـان لـه ديـن، ومن كان له دين دخل الجنّة»[٥].

وأمّا القوّة المدركة والحيلة الموجودة عند الشيطان ومعاوية وعمرو بن العـاص وأضرابهم فـ«تلك النكراء! تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل»[٦].

## ٥ ـ ضالّة المؤمن

جاء في الحِكم الخالدة لأمير الكلام عليّ عليه السلام: «الحكمـة ضـالّة المـؤمن، فخـذ

---

١ . البقرة: ٢٦٩.

٢ . بحار الأنوار، ج١، ص٢١٥.

٣ . المصدر نفسه، ص٢١٥.

٤ . المصدر نفسه.

٥ . أصول الكافي، ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل، ح٦.

٦ . المصدر نفسه، ح٣.

الحكمة ولو من أهل النفاق»[١]، ونقل الإمام جواد الأئمة هذه الحكمة عن آبائه عليهم السلام بيسير تفاوت، فقال: «... والحكمة ضالّة المؤمن، فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحقّ بها وأهلها»[٢]. وجاء عنه: «الحكمة ضالّة المؤمن، فخذ ضالّتك ولو من أهل الشرك»[٣]، وقد أوضح الإمام علّة ذلك في رواية أخرىٰ، فقال: «خذ الحكمة أنّىٰ كانت، فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتّىٰ تخرج فتسكن إلىٰ صواحبها في صدر المؤمن»[٤].

وجاء عنهم التأكيد علىٰ حبس الحكمة عن غير أهلها؛ لأنّ إيتاءها غير مستحقّيها غبن لها: «لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها»[٥]، وشبّهوا تعليمها لمن ليس أهلاً بإلقاء الدرّ في أفواه الكلاب! «لا تلقوا الدرّ بأفواه الكلاب»[٦]. ذلك أنّ الحكمة دليل ومرشد، وهذا ما يحرص عليه الجميع، المؤمن والكافر،الجاهل والعالِم، فهي في الحقيقة ضالّة يسعىٰ وراءها الكلّ؛ لكنّ الفرق أنّ غير المؤمن لا يستشعر سنخيّةً وانسجاماً بينه وبين الحكمة، فحينما يجدها يرىٰ أنّه وجد ضالّة غيره، ولا يرىٰ أنّها ملك له، فلا يتصرّف بها تصرّف المالكين، بل ولا يحسبها مطلوبه ومبتغاه؛ لعدم إحساسه بالتسانخ معها، فيهملها ويسعىٰ وراء شيء آخر.

كما أنّ الحكمة لا ترىٰ في صدر المنافق المكان المناسب لها، ولا تأنس به، فلا تتعامل معه تعامل المملوك له. أمّا المؤمن فحينما يجد الحكمة يرىٰ أنّه عثر علىٰ ضالّته

١ . نهج البلاغة، الحكمة٨٠.

٢ . بهج الصباغة، ج١٢، ص٥٩٥، نقلاً من أمالي الشيخ الطوسي.

٣ . المصدر نفسه..

٤ . نهج البلاغة، الحكمة٧٩.

٥ . بحار الأنوار، ج٢، ص٧٨.

٦ . المصدر نفسه، ج١٠٥، ص١٥.

ومبتغاه، فيتعامل معها معاملة العارفين بها المقدّرين لقيمتها، والحكمة بدورها تتجانس وتنسجم معه.

فالحكمة حالما تحلّ في صدر المنافق لا تسكن ولا تطمأنّ فيه، وهو أيضاً لا يتحمّل وجودها ولا يستطيع كتمانها وصونها في صدره، فيجتمع اضطراب الحكمة وافشاء السر؛ وهذا بخلاف حال المؤمن معها، فإنّه وقور عند الهزاهز صبور عند البلاء[1]، وبينه وبين الحكمة كمال التوافق والسنخيّة والألفة، فحينما يجدها يكتمها وتقرّ هي في صدره؛ ليفيد منها عند الحاجة، ويمنحها لمن يجده أهلاً لها.

## ٦ـ الاخلاص طريق الحكمة

جاء في الرواية: «من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2].

والإخلاص أن ينزّه المرء نيّته من كلّ شائبة ولوث، وأن يعمل طلباً لرضا الله وحده، وأن لا يكون لحمد الآخرين تأثير فيه، ففي الرواية أنّ: «العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحدٌ إلاّ الله عزّ وجل»[3].

وليس المطلوب كون العمل لرضا الله وحسب؛ بل يجب أن تكون كيفياته وجزئيّاته بقصد التقرّب إليه، فلو أريد بإطالة الصلاة، أو الصلاة جماعة أو الصلاة أوّل الوقت أو كونها في المسجد و... غير الله تعالى، بحيث يسري الرياء والسمعة إلى الصلاة ذاتها، فالصلاة محكومة بالبطلان، وإن كان أصل الصلاة مأتيّاً به ظاهراً لله سبحانه.

---

١ . مضمون رواية، أصول الكافي، ج٢، ص٤٧، باب خصال المؤمن.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٤٩؛ سفينة البحار، ج٢، ص٦٦٨.

٣ . الحقائق، ص٢١٣.

والعمل الخالص أقسام، فتارةً يكون للخلاص من جهنّم، وتارةً يكون للفوز بالجنّة، وهذان القسمان أنزل مراتب الإخلاص، ويسمّىٰ بالإخلاص الإضافي أو النسبي[١]، وأعلىٰ مراتبه أن يكون عن عشق ورغبة في ذات إله الوجود. ومن نافلة القول أنّه كلّما كان الإخلاص أشدّ كمّاً وكيفاً كانت آثاره وبركاته أكثر وأعظم، فمن يقضي عمراً في الإخلاص فإنّ ينابيع غزيرة وكثيرة من الحكمة سوف تفيض من قلبه علىٰ لسانه.

ومن آثار الإخلاص أن يتاح للمخلص جعل أعماله اليوميّة مصبوغةً بصبغة العبادة، فله أن يجعل من مثل الأكل والشرب والنوم والاكتساب والكلام والاستماع و... عبادات إذا ما قام بها بقصد التقوّي علىٰ العبادة، والاستعانة علىٰ نشر الدين، ودعم النظام الإسلامي، وحلّ مشاكل خلق الله، وما شابه ذلك من مقاصد مطلوبة للشارع؛ فليست العبادة محصورة في مثل الصلاة وتلاوة القرآن والدعاء والصيام وما شابه، بل سيكون عمر المخلص كلّه عبادة وطاعة. ومن كلام الصدّيقة الطاهرة عليها السلام: «من أصعد إلىٰ الله خالص عبادته أهبط الله عزّ وجلّ إليه أفضل مصلحته»[٢].

ممّا سبق يتّضح أنّ عنوان العبادة في كلامها ليس المراد به خصوص مثل الصلاة والصيام وما شابه، بل يشمل الأعمال كلّها، فالسيدة فاطمة الزهراء بيّنت في كلامها هذا كلام أبيها، لكن بعبارة أخرىٰ.

والأعلىٰ من هذا كلّه أن يكون جوهر وجود الإنسان لله تعالىٰ، فضلاً عن خالص عمله وعشقه، فيخلص ذاته لله؛ ليقبل إله الوجود منه نفسه، علاوة علىٰ

١ . معراج السعادة، ص٦٢٩.

٢ . المصدر نفسه.

قبوله عمله، كما قال تعالىٰ في شأن مريم العذراء عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[١].

والإخلاص المستتبع لنبع الحكمة في الحديث النبويّ يراد به إخلاص النفس.

## ٧ ـ الإخلاص في الإخلاص

ليس المطلوب الإخلاص وحسب، بل المطلوب الإخلاص في الإخلاص، فقد يخلص المرء نفسه ليؤتىٰ الحكمة، لكنّ إخلاصه يكون مشوباً؛ لأنّ غايته هي إزالة عيوبه أو بلوغ كماله، وهذا يجعل من عمله عملاً غير خالص لمعبوده.

## ٨ ـ حكومة الحكمة على الأسماء الأخرى

لحكمة الله حكومة علىٰ الكثير من أسمائه الفعليّة؛ لأنّ أسماءه سبحانه ذات نضد صدوري أو نظم ظهوري خاصّ، بنحوٍ يكون للاسم العالي منها تأثير في تحديد مجال وتأثير الاسم الأدنىٰ منه، وما من اسم يخرج من سلطة ونفوذ الاسم الأعلىٰ منه؛ لأنّ الأسماء كلّها تتمحور حول التقوىٰ، لأنّ مسمّاها ـ وهو الله سبحانه ـ هو أهل التقوىٰ «يا أهل التقوىٰ يا أهل المغفرة»[٢]، فأسماؤه كلّها منزّهة عن الطغيان وتعدّي حدودها. والالتفات إلىٰ هذا الانسجام والعدل التكويني والاعتدال العيني يعصم الإنسان العارف من الزيغ والانحراف، ويعلّم الدّاعين المتضرّعين بقانون الحكمة الإلهيّة ومحورها، فلا يفعلون ما لا يتلائم معها، ولا يأملون ويرجون ما يخالفها، ولا يوصون أحداً بذلك، فإنّ ذلك ليس من التواصي بالحقّ وليس من التواصي بالصبر.

---

١. آل عمران: ٣٧.

٢. وسائل الشيعة، ج٦، ص٤٨١، ح٨٤٩٦.

ومنبع جميع هذه المعارف العميقة بيان عريق لأحد معادن الحكمة، الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام، الذي قال: «... يا من لا تبدّل حكمتَه الوسائلُ»[١]. بمعنى أنّ الله تعالى وإن حثّ عباده على التوّسل والدعاء، وقال: ﴿وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢]، إلاّ أنّ تأثير التوسّل بالأسباب المعروفة محدود ومشروط بالحكمة، ولا يمكن أبداً طلب شيء يكون مخالفاً لحكمة الله تعالى.

## ٩ ـ أساس الحكمة

بما أنّ الحكمة تجلٍّ لله الحكيم، فهي تتطلّب مجلىً مناسباً، والقلب المعمور هو المناسب لتنزّل الحكمة الإلهيّة، وليس البيت الخربة.

ولقد بيّن رسول الله ﷺ أنّ رأس الحكمة النظريّة معرفة الله، ورأس الحكمة العمليّة مخافة الله، فقال: «رأس الحكمة معرفة الله»[٣] وقال: «رأس الحكمة مخافة الله»[٤]. إنّ القلب العارف بالله الخائف منه بيت معمور، والقلب الخالي من تلك المعرفة والخوف بيت خرب، ومن هنا جاء في الحديث النبويّ: «قلبٌ ليس فيه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعلّموا وعلّموا وتفقّهوا ولا تموتوا جهّالاً، فإنّ الله لا يعذر على الجهل»[٥].

## ١٠ ـ عدوّ الحكمة

إنّ للتفكّر واجتناب كثرة الأكل وترك الحرص تأثيراً كبيراً في نيل هذه الأمنيّة؛

---

١ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء ١٣.

٢ . المائدة: ٣٥.

٣ . نهج الفصاحة، ج١، ص٢٦٠.

٤ . المصدر نفسه.

٥ . المصدر نفسه.

قال خاتم المرسلين ﷺ: «إذا رأيتم أهل الجوع والتفكّر فادنوا منهم، فإنّ الحكمة تجري علىٰ ألسنتهم»[١]، وقال أيضاً: «الطمع يُذهب الحكمةَ من قلوب العلماء»[٢].

* * *

١ . نهج البلاغة، ج١، ص٢٠٠١و٢٠٠٢.

٢ . المصدر نفسه، ص٢٦١و٢٦٢.

# وَحَفَظَةِ سِرِّ اللهِ

كلمة «حَفَظة» جمع «حافظ»، مشتقّة من المادّة «حفظ»، على وزان كتَبة وكاتب، طلبة وطالب، و «الحفظ» بمعنى حياطة الشيء من الضياع والتلف[1]، والمحافظة هي المراقبة[2].

وكلمة «السرّ» تقابل كلمة «الاعلان»، والسرّ هو ما يُكتم من الأمور[3].

**علماء الأسرار**

إنّ في مراحل الخلقة المختلفة حقائق مستورة، ينكشف بعضها بالحواسّ الظاهرة أو بالتفكّر، بينما لا ينكشف الكثير منها لا بالحواسّ، ولا بالتجربة، ولا بالعقل والتدبّر، وهي أسرار نظام الوجود، التي قد يحمل كلّ موجود من

---

١. انظر: المصباح المنير، مادة «حفظ».

٢. انظر: الصحاح، مادة «حفظ».

٣. انظر: المصباح المنير والصحاح، مادة «سرر».

موجودات العوالم المختلفة بعضاً منها، وربما لا يعلم هو نفسه بوجود سرّ فيه.

وليس بخفيّ أنّ للذّات الإلهيّة علماً حضوريّاً بمجموعة نظام الوجود؛ لذا فهو سبحانه عالمٌ بكلّ الأسرار[١]، ومنها ما هي خاصّة به تعالىٰ؛ لأنّها في الحقيقة حريم الواجب الباري، وليس لأحد من سبيل للعلم بها، مثل العلم بذاته تعالىٰ وخصوصيّاتها.

ومنها ما يُطلع عليها تعالىٰ عبادَه الأخيار، وأهل بيت الرسول الأكرم ﷺ هم أكثر الخلق نصيباً منها. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «بل اندمجتُ علىٰ مكنون علمٍ لو بحتُ به لاضطربتم اضطرابَ الأرشية في الطوىٰ البعيدة»[٢].

وحفظ كلّ شيء بما يناسبه، فالمال يُحفظ بأن يوقىٰ من التلف والضياع، والأمانة تُحفظ بترك خيانتها وجحودها، والصلاة تُحفظ بأدائها في أوقاتها، والقسَم والعهد يحفظان بالوفاء والبرّ بهما[٣].

## معنى حفظ الأسرار

لحفظ الأسرار معنيان:

**الأول**: القدرة علىٰ الفهم والتحليل وشرح المعارف والأسرار الجليلة، والتسليم بها واحتمالها. قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ حديثنا صعب مستصعب، أجرد ذكوان، وعر شريف كريم، فإذا سمعتم منه شيئاً ولانت له قلوبكم فاحتملوه واحمدوا الله

---

١. إنّ وصفه تعالىٰ بعالم الغيب أو عالم الأسرار بمعنىٰ أنّ ما هو مستور وخافٍ عن غيره معلومٌ له وحاضرٌ عنده سبحانه، لا بمعنىٰ وجود أسرار قد تخفىٰ عليه تعالىٰ إلاّ أنّه فعلاً عالم بها، فإنّ هذا لا معنىٰ له بالنسبة له تعالىٰ.

٢. نهج البلاغة، الخطبة رقم٥.

٣. انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٢، مادة «حفظ».

عليه، وإن لم تحتملوه ولم تطيقوه فردّوه إلى الإمام العالم من آل محمّد عليهم السلام...»[١]، وقال أيضاً: «إنّ أمرنا صعب مستصعب على الكافرين، لا يقرّ بأمرنا إلاّ نبيّ مرسل، أو ملك مقرّب، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان»[٢].

وقال العلاّمة المجلسي معقّباً: «لعلّ المراد الإقرار التامّ الذي يكون عن معرفة تامّة بعلوّ قدرهم»[٣].

وفي رواية أخرى قال الإمام: «حديثنا صعب مستصعب، لا يؤمن به إلاّ ملك مقرب، أو نبيّ مرسل، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان...»[٤].

ويشهد لهذا الفهم حديثٌ رواه جابر عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «فإذا ورد عليك يا جابر شيء من أمرنا فلان له قلبك فاحمد الله، وإن أنكرته فردّه إلينا أهل البيت، ولا تقل: كيف جاء هذا؟ وكيف كان وكيف هو؟ فإن هذا والله الشرك بالله العظيم»[٥].

وبدون هذه القدرة على الاستيعاب والتحليل، وبدون هذا التسليم، ربّما يكون حاله كحال أبي ذر، الذي جهل بعلم سلمان، ولو علم ما في قلب سلمان لقتله، كما في رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام[٦]. وربّما صار إلى ما صار إليه النبيّ موسى عليه السلام، حينما اعترض على معلّمه الخضر عليه السلام، فحُرم من دوام متابعة ذلك العبد الصالح.

وفي الرواية أنّ الأصبغ بن نباتة ذكر لميثم التمّار حديث: «إنّ حديثنا أهل البيت صعب مستصعب...»، فذهب ميثم من فوره إلى أمير المؤمنين ليعرف معنى هذا

---

١ . بحار الأنوار، ج٢، ص١٩٢، ح٣٣.

٢ . المصدر نفسه، ص١٩١، ح٣٠.

٣ . المصدر نفسه، ص١٨٥، ذيل ح٧.

٤ . المصدر نفسه، ص١٩١، ح٢٨.

٥ . المصدر نفسه، ص٢٠٨.

٦ . انظر: بحار الأنوار، ج٢، ص١٩٠، ح٢٥.

الكلام، فذكر له أمير المؤمنين ما كان من قصّة جهل الملائكة بسرّ خلق آدم، وجهل النبيّ موسىٰ بسرّ صنيع الخضر، مع أنّه من أولي العزم من الرسل وصاحب شريعة، لكنّه لم يعلم السرّ فلم يسطع صبراً[١].

**الثاني:** الحذر من إذاعة الأسرار ونشر المعارف الإلهيّة بلا ضابطة وحساب، ومعرفة فنّ الجواب المناسب لطالبيها؛ لأنّ لكلّ شيء نفيس طلاّباً كثراً، لا سيّما إن كان خافياً وبعيداً عن متناول اليد؛ ولكن ليس كلّ طلاّبه عارفين بقيمته الواقعيّة، ومن الممكن أن يضيع ويذهب هدراً إذا ما صار في متناول الأيدي وأُسيئت الإفادة منه، وعلاوة علىٰ هذا ربّما خلقوا المصاعب لهم أو لغيرهم.

إنّ المتّقي الأمين هو من يعرف القيمة الواقعيّة للأمانة المؤتمَن عليها، ويعرف طالبيها الحقيقيين، ويجيب طلب كلّ فرد منهم بما يناسب حاله، فالتقوىٰ والأمانة توجبان عليه السكوت في بعض الحالات، بل وعدم الإخبار بامتلاكه جوهراً ثميناً، وفي بعض الحالات قد تقتضي الحال الإخبار عن امتلاكه ذلك فقط، وقد تقتضي حال آخرين الإخبار بموضع إخفائه، وقد تقتضي حال آخرين إراءته لهم... وهكذا. وعليه فحفظ أو إشاعة كلّ شيء رهن أمرين: قيمة ذلك الشيء، وأمانة صاحبه ومعرفته بقدره.

ثمّ إنّ الأسرار الإلهيّة درر ثمينة، بعضها لا يمكن قوله لأحد أبداً؛ لعدم قدرة أحد علىٰ تحمّله، وهي الأسرار التي عناها الإمام الصادق في رواية أبي الصامت، قال: **«إنّ من حديثنا ما لا يحتمله ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا عبد مؤمن. قلت: فمن يحتمله؟ قال: نحن نحتمله»**[٢].

---

١ . انظر: بحار الأنوار، ج٢، ص٢١٠، ح١٠٦.

٢ . بحار الأنوار، ج٢، ص١٩٣، ح٣٦.

وعن بعض أهل المدائن قال: كتبت إلى أبي محمّد عليه السلام: روي لنا عن آبائكم عليهم السلام أنّ حديثكم صعب مستعصب لا يحتمله ملَك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان؟ قال: فجاءه الجواب: «إنّما معناه: أنّ الملَك لا يحتمله في جوفه حتّى يخرجه إلى ملك مثله، ولا يحتمله نبيّ حتّى يخرجه إلى نبيّ مثله، ولا يحتمله مؤمن حتّى يخرجه إلى مؤمن مثله؛ إنّما معناه أن لا يحتمله في قلبه من حلاوة ما هو في صدره حتّى يخرجه إلى غيره»[1].

وللأسرار والمعارف المأذون إذاعتها مراتب متفاوتة، فلا يمكن تعليم كلّ سر لكلّ أحد؛ لأنّ طاقات الناس متفاوتة. قال أمير المؤمنين عليه السلام في خبر من أتاه مدّعياً للتناقض في القرآن: «... وليس كلّ العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسّره لكلّ الناس؛ لأنّ منهم القويّ والضعيف، ولأنّ منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله، إلاّ من يسهل الله له حمله، وأعانه عليه من خاصّة أوليائه، وإنّما يكفيك أن تعلم أنّ الله المحيي المميت، وأنّه يتوفّى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم»[2].

وفي الرواية عن جابر بن يزيد الجعفي، أنّه قال للإمام الباقر عليه السلام: «جُعلت فداك! إنّك حمّلتني وقراً عظيماً بما حدّثتني به من سرّكم، الذي لا أحدّث به أحداً، وربّما جاش في صدري حتّى يأخذني منه شبيه الجنون، قال: «يا جابر! فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبّان، فاحفر حفيرة ودلّ رأسك فيها، ثمّ قل: حدّثني محمّد بن عليّ بكذا وكذا»[3]. مع أنّ جابراً هذا هو القائل: حدّثني أبو جعفر بسبعين ألف[4]

---

١. بحار الأنوار، ج٢، ص١٨٤.

٢. المصدر نفسه، ج٦، ص١٤٣.

٣. المصدر نفسه، ج٤٦، ص٣٣٩.

٤. لعلّ هذا مبالغة في الكثرة.

حديث لم أحدّثها أحداً قطّ، ولا أحدّث بها أحداً أبداً[١].

وكان خواصّ أصحاب الأئمة عليهم السلام مختلفي الرتب أيضاً، وما يمكن قوله لسلمان مثلاً لا يقال لأبي ذر؛ لعدم تحمّله، كما أنّ بعض الأسرار تُقال لأبي ذر وحده فقط، وهكذا.

## إشارات

### ١ ـ أقسام السرّ والعلن

للسرّ والعلن ـ كما للغيب والشهادة ـ أقسام، منها:

السرّ النفسيّ المطلق، وهو الهويّة الوجوديّة للذات الإلهيّة بنحو اللابشرط المقسمي، وهي الهويّة التي لا يحيط بحرمها الآمن أحد ولا يحيط بها كائن، ولا يخرج شيء من مكمنها النهائي ومن سرّها المطلق.

السرّ النسبيّ القياسيّ، فإنّ الوجود أو الظهور أمر مشكّك، فكلّ مرتبة عالية منه هي سرٌّ وغيبٌ بالنسبة للمرتبة الأنزل؛ لعدم قدرة إحاطة الداني بالعالي، ولكنّها لنفسها وللمرتبة الأعلى منها بمثابة العلن؛ لذا فكلّ موجود مجرّد عالٍ يمثّل حجاباً نوريّاً لما دونه؛ لأنّ العبور من المعبر النورانيّ للمجرّد العالي غير ممكن لما دونه وإن كان مجرّداً، وهو بدوره سرّ وحجابٌ نوريٌّ بالنسبة لما دونه.

العلن النفسي المطلق، مثل عالم المادّة، فإنّه لا سرّ ولا غيبَ فيه.

العلن النسبي القياسيّ، وقد اتّضح معناه في القسم الثاني.

---

١. معجم رجال الحديث، ج٤، ص٢٢، ش٢٠٢٥.

## ٢ ـ الأسرار العلميّة

المسائل العلميّة تماثل المجرّدات التكوينيّة في كونها ذات مراتب ودرجات، بحيث إنّ بعضها يعتبر سرّاً وحجاباً بالنسبة لبعض الأفراد، مثل البحث العلميّ العريق في مسألة القضاء والقدر، فانّه سرٌّ بالنسبة لفريق من الناس، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام للسائل عنه: «... سرّ الله فلا تتكلّفوه»[١].

فالأسرار العلميّة إنّما هي كرموز المواهب والمقامات الإلهيّة، ذات مراتب عديدة، ويجب حفظها عن عبث الأغيار، بمعنىٰ أنّه إذا كان للنبوّة والرسالة والولاية مراتب ومقامات فللمعارف الدينيّة أيضاً مراحل، فالظاهر منها علنٌ لباطن، والباطن منها سرٌّ لظاهر، والإنسان الكامل هو من يطوي هذه المراحل كلّها، ويصون كلّ مرتبة في موطنها الخاصّ بها.

## ٣ ـ الفرق بين كتمان السرّ والصبر

كتمان السرّ علامة العقل، والحكيم يحتفظ بسرّه في صندوق قلبه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صدر العاقل صندوق سرّه»[٢].

ولكن هناك فرق بين كتمان السرّ وتحمّله وبين الصبر علىٰ عيوب الآخرين واحتمال طباعهم، فإنّ الصبر عليهم وإن كان فضيلة في نفسه إلاّ أنّه لا يُعدّ تحمّلاً للسرّ؛ لأنّ السرّ نفسه من أسباب العظمة والرفعة، وسبب لنبع باطنيّ خاصّ، يفور ويفور ليصير بركاناً متفجّراً. ومقاومة غرور تلك الحالة والسيطرة علىٰ ذلك التفجّر ولجمه ومحاصرة ذلك الهيجان عملٌ صعب شاقّ. ومن كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «والاحتمال قبرُ العيوب»[٣]، وظاهرٌ الفرق اللطيف بين

١ . نهج البلاغة، الحكمة٢٨٧.
٢ . نهج البلاغة، الحكمة٦.
٣ . المصدر نفسه.

القبر والصندوق.

## ٤ ـ احتجاب الذات الإلهيّة الأقدس

يتّضح من مطاوي الكلام عن السرّ والحجاب النوريّ، معنى احتجاب الله، في عبارة: «يا محتجباً عن كلّ عين»[١]، مع أنّه تعالى نور السماوات والأرض، ويتّضح أيضاً معنى احتجاب الأئمة الأطهار، في فقرة «وبشرُك المحتجبين»[٢]، مع أنّهم أنوار إلهيّة.

## ٥ ـ حفظ أسرار الناس

أسرار عباد الله من الأسرار الإلهيّة، والأئمة عالمون بها؛ لأنّهم ـ كما ذُكر سابقاً ـ يرون في هذه النشأة باطن أعمال الناس وظاهرها بإذن الله، ليشهدوا بها يوم القيامة.

إنّ الله سبحانه يصون ماء وجوه عباده ولا يخزيهم، حتّى أنّ بعضاً من أعمالهم لا يستره عن الناس وحسب؛ بل يستره أيضاً عن الملائكة الكرام الكاتبين الموكّلين بكتابة الأعمال، فورد في الدعاء: «... الذين وكّلتهم بحفظ ما يكون منّي، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي، وكنتَ أنتَ الرقيبَ عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم، وبرحمتك أخفيته، وبفضلك سترته»[٣]. والأئمة الأطهار عليهم السلام ـ الذين هم أتمّ وأكمل مظاهر الله تعالى ـ أيضاً يحفظون أسرار خلقه، ويصونون ماء وجوههم.

وإنّما وجب كتمان أسرار الناس لأنّ حفظ النظام الاجتماعي والحيلولة دون اختلاله من الأمور المهمّة، وقليلة هي الأمور التي حظيت بما حظي به هذا الأمر من اهتمام التعاليم الإسلاميّة؛ ولذا نُهي عن الغيبة والتهمة والتجسّس، وعن كلّ ما

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء كلّ يوم من رجب، الدعاء الخامس.

٢. المصدر نفسه.

٣. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

يخلّ بالعلاقات الاجتماعيّة.

والحفاظ على انسجام المجتمع وبقاء أركانه رهنٌ بحفظ شخصيّة أفراده وصيانة ماء وجوههم من أن تراق؛ لأنّ الناس يتعاشرون ويتعاضدون في حلّ مغالق الأمور، ويأنسون ببعضهم على أساس حسن الظاهر وما يرونه، فلو انكشفت أسرارهم، وعلم الناس ما قام به فلان سرّاً وخفيةً لانفرط عقد المجتمع وتهاوت عمده. وفي رواية عبد العظيم الحسني، عن الإمام الجواد، عن أمير المؤمنين عليهما السلام، أنّه قال: «لو تكاشفتم ما تدافنتم»[1].

شعر:

كلّ من يظن أنّه صار صاحباً لي...

فلا يسعينّ لمعرفة أسراري

ليس الجسد والنفس مستورين عن بعضهما...

لكن ليس بوسع أحد معرفة أسرار نفسه[2]

إنّ هتك السرّ وإراقة ماء الوجوه ليس من فعال المهذّبين وفنّهم، بل الفنّ أن يصون المرءُ ماء وجوه الناس ويستر عيوبهم.

شعر:

قلتُ لشيخ الحانة: أين طريق النجاة؟

فطلبَ كأس خمر وقال: ستر العيوب[3]

---

١. بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٨٥.

٢. مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيتان ٦ ـ ٧. ونصّ هذين البيتين بالفارسية:

هر كسي از ظنّ خود شد يار من　　از درون من نجست أسرار من

تن زجان و جان زتن مستور نيست　　ليک کس را ديد جان دستور نيست

٣. ديوان حافظ، الغزل رقم ٣٩٣، ص٥٣٥. ونصّ هذا البيت هو:

به پير ميكده گفتم چيست راه نجات؟　　بخواست جام وبگفت عيب پوشيدن

لذا كان ستر عيب المؤمن علامة الإيمان، وهو من حقوق المؤمن على المؤمن. قال أمير المؤمنين عليه السلام في علامات الإيمان: «المؤمن... لا يهتك ستراً ولا يكشف سرّاً... وإن عاين شرّاً ستره، يستر العيب ويحفظ الغيب»[١].

شعر:

إن كنتَ في قوّة الفيل فكن كالنملة تواضعاً...

وإن كنتَ سلطان الكونين فامش على الأرض هوناً

وعِ هذه الحكمة: إنّ عيب كلّ إمرئ... تراه فتعامى عنه تكرّماً[٢]

وفي الرواية يقول الإمام الباقر عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن أن يستر عليه سبعين كبيرة»[٣].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال: لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى تكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربّه وسنّة من نبيّه صلى الله عليه وآله وسنة من وليّه عليه السلام. فأمّا السنّة من ربّه فكتمان السرّ، وأمّا السنّة من نبيّه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس، وأمّا السنّة من وليّه عليه السلام فالصبر في البأساء والضراء»[٤].

* * *

---

١ . أصول الكافي، ج٢، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

٢ . منسوب إلى قهرمان نـامي (نقلاً عن هامش ديوان حافظ، الغزل٣٩٣، ص٥٣٦). ونصّه بالفارسية:

| | |
|---|---|
| بـا قـوّت پيـل، مـور مي بـايـد بود | با ملـك دو كَـون عور مي بايد بود |
| اين طرفه نگر كه عيب هر آدمي اي | مي بـايـد ديـد و كور مي بايـد بود |

٣ . أصول الكافي، ج٢، ص٢٠٧.

٤ . تحف العقول، ص٤٤٢، الكلمات القصار للإمام الرضا.

# وَحَمَلَةِ كتابِ الله

كلمة «حَمَلَة» جمع «حامل» اسم فاعل للفعل «حمل»، على وزان كسَبة وكاسِب. ومعنى «الحمل» في اللغة إقلال الشيء[1]. وقال بعضهم إنّه بمعنى إقلال الشيء وحمله[2]. وعليه فإنّ من يطيق رفع الشيء من الأرض وينقله من مكانه فهو يستخفّ وزنه، ولولا ذلك لم يهمّ بحمله ولم يغامر برفعه، ولكان حاله كحال السماوات والأرض والجبال، اللاتي خشين من حمل الأمانة الإلهيّة: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ**﴾[3]، ولكنّ الإنسان لما لم ينتابه الخوف حملها.

ويقال للقبول والحميل تحمّلاً واحتمالاً، فمعنى الآية: ﴿**فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً**﴾[4] أنّ السيل احتمل الزبد على ظهره وقبله حمولةً، ومن يحمل شيئاً فسعته

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة «حمل».

٢. انظر: أقرب الموارد، ج١، مادة «حمل».

٣. الأحزاب: ٧٢.

٤. الرعد: ١٧.

الوجوديّة لن تكون أقلّ من محموله.

ولكلمة «حمل» مفهوم كلّي عامّ، وإطلاقه من جهات عدّة:

١. إن الحامل قد يكون انساناً، أو حيواناً، أو نباتاً، أو جماداً، أو ملَكاً... أو غير ذلك.

٢. المحمول قد يكون مادّياً وقد يكون معنويّاً.

٣. الحمل قد يكون على الظهر أو على الرقبة، وقد يكون في البطن، وقد يكون على ما شابه ذلك، (ويدلّ على ذلك اختلاف حركتي الفتح والكسر).

ممّا سبق بيانه يتّضح أنّ تعلّم أمر ما والتبحّر فيه يعتبر تحمّلاً أيضاً؛ من هنا وصف القرآن الكريم علماء التوراة بالحمَلَة، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾[1]، وسمّى رسول الله ﷺ علماء القرآن بذلك أيضاً، فقال: «أشراف أمّتي حمَلة القرآن وأصحاب الليل»[2]، وقال: «حمَلَة القرآن أهل الجنّة»[3].

وكلمة «كتاب» مصدر ثلاثي مجرّد، ومادّته «كتب»، وتطلق هذه الكلمة غالباً على النصوص المخطوطة يدويّاً أو المكتوبة بالآلة الطابعة. والمعنى اللغوي لكلمة «كتب» هو تثبيت الشيء وتقريره بما يناسبه من الأسباب، فالعلوم والدعاوى والعهود والعقائد وما شابه تثبّت وتوثّق بالنصوص الحرفيّة المكتوبة، وهناك أمور أخرى يتمّ تثبيتها بما يناسبها. ويسمّى الحُكم والقضاء والتقدير والفرض «كتابة» لأنّ فيها تقريراً وإثباتاً لوجود شيء.

والتثبيت تارةً يكون بكتابة الحروف، كما في آية: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ

---

١. الجمعة: ٥

٢. بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٧٧.

٣. المصدر نفسه.

بِالْعَدْلِ﴾[١]، وتارةً يكون بالحكم والفرض، كما في آية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[٢]، وتارةً يكون بتقدير وتعيين المصير والعاقبة، كما في آية: ﴿وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾[٣]، وتارةً يكون بمعنى الوصف والذات، كما في آية: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٤]، بمعنى أنّ الرحمة هي مقتضى الذات الإلهيّة والمناسبة لما هي عليه[٥]. وعليه فعنوان «الكتاب» ليس مقتصراً على الأمر الماديّ، بل يستعمل في كلّ ما تُثبت فيه الأشياء وتُجمع، سواء كانت ماديّة أم معنويّة.

وإذا ما أطلق عنوان «الكتاب» على مجموع ما بين الدفّتين، الأعمّ من المكتوب وغيره، فمن باب المبالغة؛ لأنّ الأوراق نفسها ليست هي المقصودة، بل العلوم المكتوبة فيها[٦].

والحاصل: إنّ فائدة الكتاب والغرض منه ضبط وحفظ مجموعة من المعاني فيه، بحيث يكون الكتاب تحت تصرّف كاتبه أو غيره، ويستطيع الرجوع إليه متى ما شاء.

---

١. البقرة: ٢٨٢.

٢. البقرة: ١٨٣.

٣. التوبة: ١٢١.

٤. الأنعام: ١٢.

٥. الظاهر أنّ معنى الكتابة في هاتين الآيتين الأخيرتين هو معناها في آية الصيام، فهي فيهما بمعنى الفرض والإيجاب أيضاً، والمعنى: أنّهم لا يقطعون وادياً إلاّ وجب وكُتب لهم ثواب ذلك، بقرينة كلمة «لهم»، ولو كانت بمعنى التقدير لقال: «عليهم»، ولقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وفي الآية الثانية معناها أنّه تعالى أوجب وفرض على نفسه الرحمة. (المعرّب).

٦. انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «كتب».

## معاني واستعمالات «الكتاب» في القرآن الكريم

جاءت كلمة «الكتاب» في القرآن بمعانٍ عدّة:

أ. بمعنى مجموعة التعاليم والمقرّرات الموحاة إلى الأنبياء أولي العزم وأصحاب الشرائع، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والرسول الأكرم، صلوات الله عليهم أجمعين[١]. قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٢].

وأمّا الوحي غير المشتمل على أحكام وتعاليم، فله عناوين أخرى، مثل الزبور: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[٣].

ب. ما تُثبت فيه العقائد والأخلاق وأعمال العباد، ويستفاد من مجموع الآيات القرآنيّة أنّ ذلك على أقسام ثلاثة:

١. الكتاب الشخصيّ: وهو الخاصّ بكلّ فرد فرد، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً﴾[٤]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾[٥].

٢. الكتاب العامّ، وهو الخاصّ بكلّ أمّة أمّة، قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾[٦].

---

١. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

٢. البقرة: ٢١٣.

٣. النساء: ١٦٣.

٤. الإسراء: ١٣.

٥. الانشقاق: ٧.

٦. الجاثية: ٢٨.

٣. الكتاب الكلّي الأعمّ، وهو يشمل الخلائق كلّهم، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾[٢].

وهذا الكتاب ينقسم إلى كتاب أبرار وكتاب فجّار[٣]، وهو ليس على شاكلة الكتب المعهودة في أذهاننا، بل هو متن العقائد والأخلاق والأعمال، متمثّلة في صورها الخاصّة.

ج. الحقيقة المندرج فيها تفصيل نظام الوجود بكلّ جزئياته ودقائقه، وهو ما ورد في آية: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[٤]، وآية: ﴿... وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٥]. ويعبَّر عن هذه الحقيقة في بعض مراتب العلم الإلهي باللوح المحفوظ وغيره.

د. وثيقة النكاح وسند التجارات التي يكتبها البشر فيما بينهم، نحو آية: ﴿وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾[٦]، وآية: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[٧]، وآية: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾[٨]، وآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[٩].

---

١. الكهف: ٤٩.

٢. الجاثية: ٢٩.

٣. انظر: المطفّفين: ٧و١٨.

٤. ق: ٤.

٥. الأنعام: ٥٩.

٦. البقرة: ٢٣٥.

٧. البقرة: ٢٨٢.

٨. النمل: ٢٩.

٩. البقرة: ٧٩.

وهذا القسم غالباً ما يكون مقروناً بالقرينة[١]. مع العلم أنّ المعنىٰ اللغوي ينطبق علىٰ هذه الأقسام كلّها.

والتأمّل في موارد الاستعمال القرآنيّ لكلمة «كتاب» يهدي إلىٰ استعمالها فيه بمعنىٰ الكتاب التكويني تارةً وبمعنىٰ الكتاب التدويني تارةً أخرىٰ.

## حمَلة الكتاب الإلهي

تفيد جملة «كتاب الله» أنّ هذا الكتاب يحتوي الأقسام المذكورة كلّها؛ لإطلاقها وعدم وجود قيد مخرج لبعض الأقسام.

والمراد من تحمّل كتاب الله في هذه الفقرة منحصر في معنىٰ العلم به ومعرفة مدلولاته حقّ المعرفة، والإحاطة الكاملة بأبعاده المعرفيّة؛ لأنّ التحمّل بمعنىٰ الحمل الحسّي باليد أو بوضعه علىٰ الظهر أو الرأس وما شابه ذلك ليس بالأمر المهم، وليس فضلاً يستحقّ التمجيد، كي يُذكر في عداد الفضائل والكمالات الإنسانيّة العالية، علاوةً علىٰ أنّه كيف يمكن تناول العلم الإلهي أو صحيفة أعمال الخلق باليد أو وضعها علىٰ الرأس؛ وهما ليسا من قبيل الكتب الماديّة المعروفة لدينا؟ بل وحتّىٰ كتاب التدوين التشريعي كذلك، فإنّه ليس من قبيل الكتب الماديّة، اللهمّ إلاّ في مرحلة الوجود الكتبيّ البشري.

وعليه فحامل الكتاب الإلهي، التدوينيّ والتكوينيّ علىٰ السواء، يجب أن يكون محيطاً إحاطةً تامّة بمعارفهما وعلومهما، وهذا لا يتيسّر إلاّ للإنسان الكامل المعصوم، وذلك للتالي:

**أولاً**: إنّ معرفة الأئمّة بكتب التدوين، من قرآن وغيره من الكتب السماويّة، من صميم عقائد الإماميّة القطعيّة والمسلّمة، فهم عليهم السلام ليسوا مفسّرين ومعلّمين

---

١. انظر: تفسير تسنيم، ج٢، ص١٣١.

للقرآن وحسب؛ بل إنّهم متّحدي الحقيقة معه، طبقاً لمفاد حديث الثقلين، ولم ولن ينفصلوا عنه في كلّ النشئات، والمغايرة الظاهرة بينهما إنّما هي من مقتضيات هذه النشأة الماديّة، وإلاّ فقد كانا في النشئات القبليّة شيئاً واحداً، ولسوف يعودان بعد هذه النشأة حقيقةً واحدة، كما قال الرسول الأكرم ﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين... لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض»[1]، وقال: «عليٌّ مع القرآن والقرآن معه، لا يفترقان حتّىٰ يردا عليّ الحوض»[2].

وقد أكّد القرآن علىٰ علمهم بحقيقته في آية: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[3]، وورد في تفسير هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إيّانا عنىٰ، وعليٌّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ»[4]، وفي الرواية عنه أيضاً أنّه قال: «ما ادّعىٰ أحدٌ من الناس أنّه جمع القرآن كلّه كما أُنزل إلاّ كذّاب، وما جمعه وحفظه كما نزّله الله تعالىٰ إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام والأئمّة من بعده عليهم السلام»[5].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلىٰ آخره كأنّه في كفّي»[6].

**ثانياً**: من العقائد القطعيّة عند الإماميّة أيضاً علم الأئمة عليهم السلام بكتاب أعمال الخلق، فهم يرون أعمالهم في دار الدنيا، ويشهدون عليهم أمام محكمة العدل الإلهي في الآخرة.

---

١ . بحار الأنوار، ج٢٢، ص٣١١.

٢ . المصدر نفسه، ص٢٢٣.

٣ . الرعد: ٤٣.

٤ . أصول الكافي، ص٢٢٨.

٥ . المصدر نفسه، ص٢٢٩.

٦ . المصدر نفسه.

ومن الأعمال المشهودة للأئمة عليهم السلام الكتابات البشريّة، فإنّ ما يخطّه البشر داخلٌ في القسم الثاني من معاني «الكتاب» الواردة في القرآن، وهو ـ كما عرفتَ ـ صحيفة أعمال العباد كلّهم؛ لأنّ «الأعمال» يراد منها الأعمّ من الكتابة والتكلّم والسلوك وغير ذلك، وهي كلّها منظورة للأئمة عليهم السلام.

**ثالثاً**: إنّ علم الأئمة عليهم السلام بالغيب ـ وهو أيضاً من المعتقدات الأساسيّة للإماميّة غير القابلة للنقاش ـ عبارة أخرىٰ عن علمهم بكتاب العلم الإلهي، ضمن الحدّ المأذون فيه من قِبل الله تعالىٰ.

ثمّ إنّه قد ورد عنوان «الحمل» في القرآن بمعنىٰ العمل الخارجي، كما في آية: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾[١]، فكلمة ﴿**حُمِّلُوا**﴾ هنا بمعنىٰ عُلّموا وأُمروا، وعبارة ﴿**لَمْ يَحْمِلُوهَا**﴾ بمعنىٰ لم يعملوا بها، وكلمة ﴿**يَحْمِلُ**﴾ بمعنىٰ رفع الشيء المحمول باليد وما شابه.

بناءً علىٰ هذه الاستعمالات القرآنيّة، قد يكون معنىٰ «حملة كتاب الله» العاملين بكتاب الله؛ لكن لا بمعنىٰ العمل الظاهري به، فإنّ العمل بظاهره أمر ممكن لكثير من الناس، بل بمعنىٰ أنّهم عاملون به في جميع مراتبه، الظاهريّة والباطنيّة.

إنّ القرآن عصارة نظام الوجود، بمعنىٰ أنّه إن اختُزل هذا النظام الوجودي بأكمله فسيتبدّل إلىٰ هذا الكتاب، وإن فُصّل هذا الكتاب فسيتبدّل إلىٰ هذا النظام، وهذا معنىٰ اتّحاد الكتاب التكويني مع التدويني، كما أنّ هويّة الإنسان الكامل المعصوم لو ظهرت في صورة كتاب تدويني لتجلّت في القرآن الكريم، ولو أنّ القرآن تمثّل في صورة إنسان كامل لتجلّىٰ في شخص الرسول الكريم، وأهل بيت العصمة؛ فالقرآن الحكيم بيانٌ جامعٌ بين الإنسان والكون.

---

١. الجمعة: ٥.

# إشارات

## ١ ـ القيمة الذاتيّة أو العرضيّة للحمل

يكتسب «الحمل» أهميّته وحرمته من عظمة المحمول وقيمته، فإن كان المحمول من قبيل الوزر أو الخطأ أو النميمة وما شابه فالحمل مذموم، كما في الآيات: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[١]، ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٢]، ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[٣]؛ وإن كان المحمول من قبيل المعرفة والحكمة فالحمل ممدوح، كالحمل الوارد في فقرة «حمَلَة كتاب الله» وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[٤]، و ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٥].

## ٢ ـ الشرط في حمل لواء الوحي وراية الدفاع

إنّ وجود رجل مجاهد وبصير أمر ضروريّ في حمل راية الدفاع؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يحمل هذا العَلَم إلاّ أهل البصَر والصّبر والعلْم بمواضع الحقّ»[٦]، وإنّ وجود رجل متفوّق في العلم والتُّقى العملي ضروريّ لتحمّل الوحي والإلهام، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ أمرنا صعب مستصعب، لا يحمله

١ . العنكبوت: ١٣.

٢ . النحل: ٢٥.

٣ . المسد: ٤.

٤ . الحاقّة: ١٧.

٥ . غافر: ٧.

٦ . نهج البلاغة، الخطبة ١٧٣.

الاّ عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا الاّ صدور أمينة، وأحلام رزينة»[١]؛ ذلك أنّ الإيمان الخالص الكامل ضروريّ في فهم مضمون الوحي، والعمل بحكمه وصيانة معارفه من آفة الشبهات، وحياطة حدوده العمليّة من خطر الفتن، والسعي في نشر غرره ليأمن من النسيان وعاديات الزمان، ولئلاّ يظنّ ظانّ بأنّ وقته قد انقضى وفات.

والإيمان الخالص هو عصارة الحكمة النظريّة والعمليّة من جهة، وعجين العقل النظري والعملي من جهة أخرى.

## ٣ ـ التفاعل المتبادل بين الحامل والمحمول

قد يكون بين الحامل والمحمول تفاعل متقابل، بمعنى أنّ الحامل يتحمّل ثقل المحمول ويصونه ويضعه في مكانه المناسب، والمحمول أيضاً بدوره يحتمل حامله ويحفظه وينقله إلى مقام أرفع. إنّ القرآن الكريم حبلٌ إلهي، والاعتصام بهذا الحبل المرير حياتيٌّ؛ لأنّه لم يُسقط حين نزوله إسقاط المطر على الأرض، بل دُلّي من السقف الربوبي وتدلّى من جانب العرش الإلهي الأبدي، فالتمسّك به سببٌ للصعود، فيكون المتمسّك به محمولاً.

علماً بأنّ التمسّك به يعدّ حملاً له في نفسه، فالمعتصم به حامل ومحمول، بمعنى أنّه كلّما عمل المتمسّك بشيء منه اعتلى درجة؛ وعليه فإنّ حمل القرآن من سنخ الحمل التفاعليّ المتبادل، وهو بذلك يعكس قاعدة كليّة للكرم الإلهي، وهي قاعدة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]؛ لأنّ حفظ العطيّة الإلهيّة ومعرفة حقّها ورعاية حرمتها والعمل بها سببٌ لزيادة النعم، وفيض الله تعالى يكون عن إرادته التي لا يحدّها

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

٢ . إبراهيم: ٧.

شيء، فلا خشية من نفاد فيضه وانحسار كرمه، بل «لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً»[١].

## ٤ ـ حمل القرآن توفيق خاصّ

إنّ حمل معاني القرآن الكريم من نعم الله المعنويّة، وهو لا يكون إلاّ بتوفيق خاصّ منه سبحانه، وطلب هذا التوفيق من أحسن أدعية العباد الصالحين السالكين؛ لأنّ تحمّل معانيه واحتمال معارفه لم تطقه الجبال الراسيات وأشفقن من حمله، ومن يروم عملاً يفوق طاقة الجبل عليه أن يعدّ له قوّةً ما استطاع؛ لتكون قدرته فوق كلّ قدرة. ومن هذا المنطلق كان من دعاء الإمام السجّاد عليه السلام لختم القرآن: «اللهمّ... واجعل القرآن... حتّى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه التي ضعفت الجبال الرواسي على صلابتها عن احتماله»[٢].

## ٥ ـ الإمام المعصوم عِدل القرآن

القرآن والإمام وجهان لواقع واحد، ومظهران لحقيقة فرد، والإنسان الكامل قرآن ممثّل، والقرآن إنسان كامل مدوَّن.

الإمام قرآن عينيّ والقرآن إمام علميّ؛ الإمام قرآن ناطق والقرآن إمام صامت؛ الإمام صراط عينيّ، والقرآن صراط علميّ.

ولهذا الاتحاد والعينيّة آثار، منها على سبيل المثال:

أ. إنّ القرآن العينيّ يدعو البشريّة إلى اتبّاع القرآن العلمي؛ ومن هنا قال الإمام الرّضا عليه السلام: «لا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا»[٣]، كما أنّ القرآن العلميّ يدعو

---

١ . مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

٢ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء٤٢.

٣ . بحار الأنوار، ج٨٩، ص١١٧.

أيضاً إلىٰ متابعة القرآن العينيّ، فقال تعالىٰ: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1].

ب. إنّ الإفراط في التمسّك بالقرآن العلميّ ورفع شعار الانحراف (حسبنا كتاب الله) عمل خاطئ، ولا يكون إلاّ عن زيغ ضلال، وهو مساوق للتفريط في التمسّك بالقرآن العينيّ، ومثله الإفراط في التمسّك بالإمام العينيّ وحده، ورفع شعار (حسبنا ما جاء عن العترة الطاهرة)، فإنّه مساوق أيضاً للتفريط في التمسّك بالإمام العلميّ، وهو طريق غيّ وغفلة، ولن يؤدّي إلاّ الىٰ الحيرة والغواية؛ لأنّ الإفراط والتفريط جهل، ولا دور للعقل فيهما، وفي الحكمة: «لا ترىٰ الجاهل إلاّ مفرطاً أو مفرّطاً»[2].

والدّاعي للقول بكفاية أحد هذين الثقلين توّهم عدم عصمة الآخر، فالقائل: «حسبنا كتاب الله» تخيّل بأنّ العترة الطاهرة غير معصومة، لا في العلم ولا في العمل، كما أنّ القائل: «حسبنا ما جاء عن العترة الطاهرة»، تخيّل بأنّ القرآن قد حُرّف.

ج. إنّ زعم تحريف القرآن وعدم عصمة هذا الإمام العلميّ يعني سقوط حجيّة ظواهره وانتفاء دليليّته ومحوريّته في التعليم وتفهيم الأحكام الإلهيّة، وابتلائه بما ابتليت به الكتب السماوية السابقة، كما أنّ دعوىٰ عدم عصمة القرآن العينيّ، وتجويز صدور الخطأ والذنب من تلك الذوات المقدّسة، هو أيضاً بمعنىٰ إلغاء حجيّة سيرتهم وسنّتهم، وهما سيرة وسنّة الرسول الأكرم ﷺ.

والنتيجة المترتّبة علىٰ دعوىٰ عدم عصمة واحد من هذين الثقلين العظيمين هي نفي عصمة الآخر؛ لأنّ كلاّ من هذين الإمامين العظيمين، العيني والعلمي، يدعو

١. الحشر: ٧.

٢. نهج البلاغة، الحكمة ٧٠.

البشريّة بلا قيد ولا شرط إلى اتبّاع الآخر، كما سمعت في الإشارة (أ) المتقدّمة. وعلى هذا الأساس، من يزعم عدم عصمة الإمام العينيّ يقول بأنّ القرآن يدعو الناس إلى الضلالة؛ كما أنّ من يزعم عدم عصمة القرآن يقول بأنّ الإمام العينيّ يدعوهم إلى الغواية! (نعوذ بالله ونستجير به).

لقد ذكر الله سبحانه في كتابه عصمة هذين الإمامين، فقال تعالى في عصمة العترة الطاهرة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]. وقال في عصمة القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٣]. فكتاب الله مصون أبداً من كلّ باطل ومَيْن، حين النزول وما بعده من حين.

د. إنّ القرآن العيني والإمام العلمي يدعوان المجتمع الإنساني إلى الصراط الأقوم، الذي به تكون الحياة الطيّبة والنجاة من الميتة الجاهليّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٤]، وليس لرسول الله ـ وهو أظهر مصداق للقرآن العينيّ الذي هو كلام الله ـ دعوة غير دعوة الله تعالى؛ ولذا جاء الفعل «دعا» بصيغة المفرد[٥].

---

١. الأحزاب: ٣٣. وسيأتي الكلام حول دلالة الآية على عصمة الأئمّة قريباً، وانظر كتاب: «تجلّي الولاية في آية التطهير» (باللغة الفارسية).

٢. الحجر: ٩.

٣. فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

٤. الأنفال: ٢٤.

٥. بمعنى أنّ مقتضى تعدّد الداعي في الآية (الله والرسول) مجيء الفعل بصيغة المثنى (دعياكم)، لكن لمّا كانت دعوتهما واحدة، وكان الرسول تجلّياً للقرآن وهو كلام الله تعالى، أفرد الفعل. (المعرّب).

فمنكر القرآن العينيّ جاهليّ، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «من مات وليس له إمام مات ميتة جاهليّة»[١]، كما أنّ منكر الإمام العلميّ نابذٌ لطريقة العقلاء، آخذٌ بمسلك الجاهلين، كما قالت الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام في مقام تثبيت ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وإبطال حكومة الغاصبين: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢].

إنّ الموت هو زبدة الحياة، وميتة كلّ امرئ مسانخة لحياته؛ فيتبيّن ممّن مات ميتة جاهليّة أنّ حياته كانت كذلك. والحاصل: إنّ الإعراض عن الإمام العلميّ أو القرآن العينيّ عمل جاهليّ، ولا يمتّ إلى العقل ولا إلى سيرة العقلاء بصلة.

هـ. بما أنّ دعوة ذينك الإمامين واحدة، فإنّ سبيل دعوتهما متماثلة أيضاً، ولمّا كان القرآن الكريم يمثّل الركيزة الأساس في تبليغ الرسالة، فقد أوصى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بأن يسلك في دعوته سبيل الحكمة والجدال الأحسن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣]، وهي السبيل التي اتّبعها القرآن نفسه في دعوته ومحاججته.

وهذا ما التزم به الأئمّة المعصومون عليهم السلام أيضاً، فورد: «الإمام.. ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجّة البالغة»[٤].

و. انطلاقاً من أنّ القرآن الكريم تبيان لكلّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٥]، فمن باب أولى كونه نفسه بيّناً لا إبهام فيه، فلا تتخالف

---

١. بحار الأنوار، ج٢٣، ص٧٨.

٢. المائدة: ٥٠.

٣. النحل: ١٢٥.

٤. بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٣، وانظر بحث دعوة القرآن بالجدال الأحسن في تفسير تسنيم، ج١، ص٣٥، ذيل الآية ٢ من سورة الحمد.

٥. النحل: ٨٩.

آياته ولا تتناقض، بل بين مجموعها كمال الانسجام والتلائم والموافقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1]؛ ولذا تصبح كلّ آيةٍ متشابهةٍ محكمةً ببركة الآيات الأخرىٰ المفسّرة لها والناظرة إليها: «إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً»[2]. وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك قائلاً: «... فيه تبيان كلّ شيء، وذكَرَ أنّ الكتاب يصدّق بعضه بعضاً، وأنّه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[3]، وأنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنىٰ عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشف الظلمات إلاّ به...»[4]. وقال أيضاً: «ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه علىٰ بعض»[5].

ولا ريب في أنّ أهل بيت العصمة عليهم السلام متنعّمون بفيض تعلّم الأسماء الحسنىٰ في المحضر الربوبي؛ لأنّهم مبيّنو أحكام الكتاب الإلهي وحِكمه، والمفسّرون بالحقّ لآيات التكوين والتشريع الإلهيين، فلا تجد اختلافاً وتبايناً في سير تلك الذوات النورانيّة، بل وتجد أنّ كلام أيٍّ من أولئك الأئمّة الهداة مفسّر وموضّح لإجمال كلام الآخر. ولأجل ذلك، قال الفقيه الإمامي العلم صاحب الجواهر: «إنّ كلامهم جميعاً بمنزلة كلام واحدٍ، يفسّر بعضه بعضاً»[6].

ومن هنا لك أن تُسند حديث أيّ منهم للآخر، اللهمّ إلاّ أن يصدر الحديث في ظرف زمانيّ أو مكانيّ خاصّ بما يؤثر في دلالته، فلا يمكن إسناده إلىٰ غير قائله.

---

١. النساء: ٨٢.

٢. بحار الأنوار، ج٥٤، ص٢١٨.

٣. النساء: ٨٢.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٨.

٥. المصدر نفسه، الخطبة ١٣٣.

٦. جواهر الكلام، ج٢٦، ص٢٧.

ز. بما أنّ الإنسان الكامل المعصوم مظهر للاسم «الباقي»، فهو يستحقّ صفة «بقيّة الله»، وهو اللقب المبارك لصاحب العصر ﷺ، والقرآن يضارع الإنسان الكامل المعصوم في هذا؛ لأنّه أيضاً مظهر لهذا الاسم السامي، ويمتاز من بين الصحف السماويّة بخصّيصة بقاء وخلود سوره وآياته وكلماته وحروفه، فهو «بقيّة الله» أيضاً كثَقَله الآخر. قال الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام: «ما بقي في الدنيا بقيّة غير هذا القرآن، فاتّخذوه إماماً يدلّكم علىٰ هداكم»[1].

## ٦ ـ المعيّة في جميع المراحل

لا يقتصر اتّحاد القرآن العلميّ والقرآن العينيّ علىٰ بُعدٍ واحد فقط، بل إنّهما متّحدان في الأبعاد كافّة، وهذه المعيّة المطلقة والشاملة مستفادة من حديث الثقلين المعروف، الوارد بعبارات مختلفة في صحاح أهل السنّة، فقد جاء فيه علىٰ لسان النبيّ الأكرم ﷺ: «إنّي تارك فيكم ثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي؛ لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني في عترتي»[2].

وقوله: «لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض» بمعنىٰ أنّ هذين الثقلين العظيمين لن ينفصلا عن بعضهما في أيّ مرحلة من المراحل العينيّة ولا في أيّ بُعد من الأبعاد العلميّة، ولو كان ذلك حاصلاً وممكناً لاستثناه الحديث.

وجاء في هذه الرواية أنّ: «أحدهما أعظم من الآخر» وفي بعض الروايات: «أحدهما أكبرمن الآخر»[3]؛ ولذا يعبّر عن القرآن الكريم بالثقل الأكبر وعن الأئمة

---

١ . إرشاد القلوب، مج١ ـ ٢؛ كشف الغمّة، ص٥٧٣.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٣، ص١٠٨، وقد حكىٰ العلامة المجلسي هذه الرواية عن عدد من كتب أهل السنّة، فانظر علىٰ سبيل المثال: سنن الترمذي، ج٥، ح٣٧٨٨.

٣ . المصدر نفسه، ص١٠٦.

المعصومين بالثقل الأصغر؛ ولكنّ النظر في هذه العناوين إلىٰ نشأة الطبيعة الدنيا، التي هي نشأة التكليف، فإنّ الأئمّة المعصومين مكلّفون في هذه النشأة بحفظ وصيانة القرآن وإن بحياتهم، غير أنّ هذا ليس دليل علوّ مكانته علىٰ مقاماتهم الشامخة، كما أنّ الكعبة والحجر الأسود ليسا بأفضل منهم، وإن كان تكليفهم الشرعيّ يتطلّب الطواف حولها واستلامه.

وإنّما أنيطت هذه الوظيفة بالرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام لأنّ لهم آجالاً مُلكيّة مقدّرة، وأبدانهم عرضة للآفات كغيرهم من البشر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. وبعبارة أخرىٰ: إنّ حفظ أبدانهم من البلايا خلاف مقتضىٰ التكليف، لكنّ حفظ القرآن ـ حتّىٰ في مرتبة وجوده اللفظيّ والكتبيّ ـ أحد أبعاد إعجازه؛ وعليه فإذا افتُرض لزوم كون أحدهما فداءً للآخر فالمناسب أن يكون ذا العمر الفاني ـ وهو بدن الإمام ـ فداءً للخالد الباقي؛ من هنا صار أحدهما في نشأة الطبيعة ثقلاً أكبر والآخر ثقلاً أصغر، ويجب علىٰ الثقل الأصغر المجاهدة في سبيل إحياء الثقل الأكبر والتضحية في سبيل إقامته، وإن ببذل المهجة.

إنّ الإنسان الكامل ـ وأهل بيت العصمة والطهارة المثال الأمثل له ـ لن يكون أبداً أقلّ رتبةً من القرآن الكريم في جامعيّته للكمال والجمال، وإلاّ لحصل بينهما الافتراق بمقدار التفاوت الرتبي، والحال أنّ إطلاق النصوص المتواترة ينفي مطلق الافتراق.

إنّ هذه المعيّة والتطابق بين القرآن الناطق والإمام الصامت تفيد أنّ البشريّة بحاجة دائمة وأبديّة إلىٰ إمامة وإرشاد القرآن والعترة في بُعدي العلم والعمل، وإلىٰ أن ينقضي عمر البشريّة لن يوجد مذهب فكريّ إلاّ وهو بحاجة لعرض رؤيته عن

---

١. الزمر: ٣٠.

العالم على القرآن والعترة، وكلّ توجّه فكريّ لا بدّ أن يُقَرّ أو يُنكَر من قِبل هذين الثقلين.

تنبيه: بما أنّ الإنسان الكامل هو الصادر الأول، بل الظاهر الأول، فلا يمكن فرض شيء غيره ـ وإن كان صادراً أو ظاهراً في صورة كلام الله ـ إلاّ وهو مساوٍ له أو أقلّ منه، ولا يوجد شيء أعلى من الإنسان الكامل؛ لأنّه لا شيء أرقى من الصادر أو الظاهر الأول.

## ٧ ـ الصفات المشتركة بين القرآن العلميّ والعينيّ

ذُكر لك أنّ القرآن الكريم والإمام المعصوم وجهان لواقع واحد وظهوران لحقيقة واحدة، ولا يوجد فرض صحيح للتفكيك بينهما، فقرآن بلا إمام ليس قرآناً حقيقيّاً، وإمام بدون قرآن ليس إماماً واقعيّاً؛ ونتيجة هذا التطابق والتلاحم الاشتراك في مجموعة صفات، نذكر بعض أمثلتها ممّا ورد في الزيارة الجامعة:

أ. النور: خاصيّة النور أنّه نيّر في نفسه ومنوّر لغيره، وقد وصف سبحانه به القرآن، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾[١]؛ ووُصف به الأئمّة أيضاً فورد: «السلام على... نوره»، و «أنتم نور الأخيار»، و «كلامكم نور». والوجه المشترك بين القرآن والعترة أنّ المُنزِل لهما هو: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢].

ب. الرُّشد: القرآن كتاب رشد و ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[٣]، والمجتمع العامل به مجتمع راشد وأفراده ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[٤]؛ وهذه الخصّيصة موصوف بها

---

١. النساء: ١٧٤.

٢. النور: ٣٥.

٣. الجن: ٢.

٤. الحجرات: ٧.

الأئمّة أيضاً، فقد ورد في الزيارة: «أمـركم رُشـد»، و «الأئمّـة الراشـدون»، و «إلى سبيله ترشدون».

ج. القول الفصل: الكلام الأخير في فضّ النزاع وحلّ الاختلاف هو كـلام الله وفتوى كتابه المجيد: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[1]. وجاء في وصـف كـلام الأئمّة: «قولكم حُكم وحَتم»، و «فصل الخطاب عندكم»؛ فكلامهم الفيـصل بـين الحقّ والباطل، والصدق والكذب، والحسن والقبيح.

د. الهدى: القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]، ولكنّ الذين يسترشدون وينتفعون به هم المتّقون من الناس؛ لأنّه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3]. والأئمّة وُصفوا بـذلك في مثـل فقـرة: «السلام على أئمّة الهدى»، و «السلام على... القادة الهداة»، و «هداة الأبرار».

هـ. الحقّ: القرآن كتاب ينطق بحقّ لا باطل فيه، و ﴿لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِـن بَـيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[4]، ولأنّه حقّ كلّه فهو كتاب: ﴿لاَرَيْبَ فِيهِ﴾[5]. وهذا أيضاً شأن الأئمّة عليهم السلام، ففي الزيارة: «شأنكم الحقّ»، فليس للباطل إليهم سبيل ولا نفاذ.

و. الكرامة: القرآن كتاب كريم، رفيع الشأن، منزّه عـن كـلّ دنـاءة ووضـاعة، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَـرِيمٌ﴾[6]، ومـا كـرمَ القـرآن وشرفَ إلاّ بنزولـه مـن لـدن ﴿رَبُّكَ الْأَكْـرَمُ﴾[7]، وبكونـه ﴿فِي صُـحُفٍ مُّكَرَّمَـةٍ﴾[8] وبكونـه ﴿بِأَيْـدِي سَـفَرَةٍ *

١. الطارق: ١٣ ـ ١٤.

٢. البقرة: ١٨٥.

٣. البقرة: ٢.

٤. فصلت: ٤٢.

٥. البقرة: ٢.

٦. الواقعة: ٧٧.

٧. العلق: ٣.

٨. عبس: ١٣.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[١]، وبتنزّله في شهر الكرامة: «السلام عليك يا أكرم مصحوب من الأوقات»[٢]، وبُلّغ بلسان رسول كريم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٣]؛ ونتيجة هذا أنّ درس القرآن هو درس الكرامة ورسالته للناس هي تربية الأفراد على الكرامة والرفعة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ الله أَتْقَاكُمْ﴾[٤]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٥]. وهذا الوصف من نصيب الأئمّة أيضاً، فهم كريمو المقام عند الله تعالىٰ: «كرامتكم عليه»، وتربّوا على الكرم: «سجيّتكم الكرم»، وهم بناة أساس: «وأصول الكرم».

ز. الوصيّة بالتقوىٰ: التقوىٰ من المحاور الأساسية في وصايا القرآن، وهي تارةً تُذكر فيه بعنوان التذكرة، كما في آية: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٦]، وتارةً بعنوان البشارة، كما في آية: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾[٧]، وتارةً بعنوان الموعظة، كما في آية: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٨]؛ وهي أيضاً وصيّة الأئمّة، كما في فقرة: «وصيّتكم التقوىٰ».

ح. الرحمة: القرآن كتاب رحمة، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٩]؛ لأنّه ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[١٠]، ولأنّ ﴿الرَّحْمَنُ *

---

١. عبس: ١٥ ـ ١٦.
٢. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٤٥، من أدعية وداع شهر رمضان المبارك.
٣. الحاقة: ٤٠.
٤. الحجرات: ١٣.
٥. الإسراء: ٧٠.
٦. الحاقّة: ٤٨.
٧. مريم: ٩٧.
٨. آل عمران: ١٣٨.
٩. الإسراء: ٨٢.
١٠. فصّلت: ٢.

عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾[١]. وقد خوطب أهل البيت في هذه الزيارة بـ «السلام عليكم يا... معدن الرحمة»، ووصفوا بـ «الرحمة الموصولة».

ط. الشفاء: القرآن الدواء الناجع لأمراض النفس: ﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[٢]، فهو ليس محض دواء ربّما لا ينفع ولا يؤثّر شيئاً، بل شفاء مضمون ودواء ناجع حتميّ الأثر إذا ما عُمل به، وهو شفاء خالص غير مشوب بضرر؛ لكن بشرط العمل به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء﴾[٣]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]. وهذا الأثر ثابت لأهل البيت عليهم السلام أيضاً، فقد جاء في هذه الزيارة: «بكم ينفّس الهمّ ويكشف الضرّ»، وأعظم همّ تعيشه البشريّة هو الأمراض الروحيّة والمعنويّة، وبأيديهم الحلّ لزوال سوء الحال وطبابة الأدواء.

ي. البرهان: البرهان هو الحجّة البيّنة والدليل القاطع الذي لا شكّ فيه؛ لذا احتمل بعضهم أنّ المراد بالبرهان في آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٥] هو القرآن الكريم[٦]. وقد وُصف الأئمّة في هذه الزيارة بذلك أيضاً في فقرتي: «وبرهانه»، و «خصّكم ببرهانه».

ك. العزيز: العزّة لغةً بمعنى القوّة والشدّة، فالعزيز هو الذي لا يُقدر عليه ولا يُنفذ إليه، والقرآن عزيز لأنّه لا نفوذ للباطل والاختلاف إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ

---

١. الرحمن: ١ ـ ٢.

٢. يونس: ٥٧.

٣. فصلت: ٤٤.

٤. الإسراء: ٨٢.

٥. النساء: ١٧٤.

٦. تفسير الميزان، ج٥، ص١٥٤.

لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[١]، وورد في الزيارة بشأن الأئمّة الكرام: «وأعزّكم بهداه».

ل. الحكيم: تنزّل القرآن من الحكيم، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢]، ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾[٣]، فهو ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[٤]، وفي غاية الحكمة والإحكام، لا تهزّه عواصف الشبهات. وفي هذه الزيارة نقرأ: «السلام على... معادن حكمة الله»، و «رضيكم... مستودعاً لحكمته».

م. المطهّر: القرآن الكريم كتاب مطهّر، ومنزّه عن كلّ رجس: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً﴾[٥]؛ والأئمّة مطهّرون أيضاً، فنقرأ في الزيارة: «طهّركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيراً».

ن. غير ذي عوج: العوج هنا بمعنى الميل إلى الباطل والانحراف عن الحقّ، فمعنى «غير ذي عوج» أنّ القرآن لا ميلَ فيه إلى الباطل، وقد أنزله تعالى: ﴿قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[٦]، فهو كلام الله، وكلامه صراط مستقيم، لا يعوجّ ولا يميل عن الحقّ، لا بالفعل ولا بالقوّة؛ وهذا شأن أهل البيت عليهم السلام، ففي هذه الزيارة جاء: «عصمكم الله من الزلل»، ومفاده ذلك مفاد آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٧]، فإنّ «يريد» فعل مضارع،

---

١. فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

٢. فصلت: ٤٢.

٣. يس: ١ ـ ٢.

٤. هود: ١.

٥. البيّنة: ٢.

٦. الزمر: ٢٨.

٧. الأحزاب: ٣٣. وسيأتي الكلام حول دلالة الآية على عصمة الأئمة قريباً، وانظر كتاب: «تجلّي الولاية في آية التطهير» (باللغة الفارسية).

وهو يدلّ علىٰ الاستمرار، فالمعنىٰ أنّ الإرادة الإلهيّة دائمة التعلّق بتطهيرهم عليهم السلام، وإذا ما كانت إرادة تطهيرهم مستمرّة فلا سبيل للاعوجاج والميل عن الحقّ إلىٰ ساحتهم، فيكونون غير ذوي عوج، ولا يصحّ فرض انحرافهم. وهذا نظير التعبير في آية: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[١]، فإنّه ليس بمعنىٰ أنّ ذلك الوادي الخالي من الزرع فعلاً صالحٌ للزراعة، وليس بمعنىٰ أنّه بور وغير صالح للزراعة فعلاً، لكنّه قابل للمعالجة والاستزراع، بل بمعنىٰ أنّه غير قابل في نفسه للزراعة، مثل الأرض الصخريّة والملحيّة.

س. المصدّق: وُصف القرآن بالمصدّق؛ لأنّه نزل بتصديق الرسل الماضين وكتبهم السماوية: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢]، وقد وُصف أهل البيت أيضاً بذلك في فقرة: «وصدّقتم من رسله من مضىٰ».

ع. الذكْر: سُمّي القرآن بالذكر في آية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ...﴾[٣]؛ لأنّه مذكّر بالمعارف الدينيّة الفطريّة، ووُصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالمذكّر في آية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[٤]؛ لأنّه يذكّر بالقرآن، فالقرآن هو العماد في تذكيره. وقد وصف أهل البيت عليهم السلام بأهل الذكر في فقرة: «وأهل الذكر»؛ لأنّهم ورثة النبيّ صلى الله عليه وآله وحملة قرآنه، فهم المذكّرون به، وهم في ذكر دائم أيضاً: «وأدمتم ذكره». ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا الذكر الذي عنه ضُلّ»[٥].

ف. العظيم: إنّ القرآن النازل من لدن الربّ العظيم هو عظيم عند الله، عظيم

---

١. إبراهيم: ٣٧.
٢. آل عمران: ٣.
٣. الحجر: ٩.
٤. الغاشية: ٢١.
٥. روضة الكافي، ص٢٨.

عند الرسول المنزّل عليه، عظيم عند الأمّة المنزل عليها: ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[١]. وهذا شأن الأئمّة أيضاً، فقد جاء في الزيارة: «لكم... الجاه العظيم»، و «فما... أعظم شأنكم وأجلّ خطركم».

ص. حبل الله: قال تعالىٰ في الحثّ علىٰ التمسّك بكتابه: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾[٢]، وإنّما وُصف القرآنُ بحبل الله لأنّ طرفاً منه بيد الله سبحانه، وطرفاً دُلّي إلىٰ عباده؛ لكي يعلوا بالأخذ به، فإنّ تنزيل القرآن ليس علىٰ حدّ إسقاط المطر، بل نوعٌ من التجلّي المتدلّي من الأعلىٰ إلىٰ الأسفل.

شعر:

سمّىٰ الحقُّ القرآنَ حبلاً... لتتمسّك إذن بذاك الحبل

تنجو من بئر النفس والهوىٰ... وتصعد إلىٰ العالم الأعلىٰ[٣]

والأئمة عليهم السلام هم الصراط المستقيم للوصول إلىٰ الله: «أنتم الصراط الأقوم»؛ ولهذا قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع:

«إنّي مخلّف فيكم الثقلين: الثقل الأكبر القرآن، والثقل الأصغر عترتي وأهل بيتي، هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عزّ وجل، ما إن تمسّكتم به لم تضلّوا، سببٌ منه بيد الله وسببٌ بأيديكم ـ وفي رواية أخرىٰ: طرف بيد الله وطرف بأيديكم ـ إنّ اللطيف الخبير قد نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض، كأصبعيّ هاتين ـ وجمع بين سبّابتيه ـ ولا أقول: كهاتين ـ وجمع بين سبّابتيه والوسطىٰ ـ فتفضل هذه

---

١. الحجر: ٨٧.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. بيتان بالفارسية نصّهما:

حق از ان، حبل خوانْد قرآن را — كه بگيري بسان حبل آن را

بدر آيي زچاه نفس و هوا — كني آهنگ عالم بالا

على هذه»[١].

وممّا يُلفت النظر في هذه الحديث مجيء الضمير مفرداً في الكلمتين «تمسّكتم به ـ سببٌ منه»، وهما ضميران يعودان إلى القرآن والعترة، ممّا يدلّ على أنّهما معاً حبل مُحصد واحد مفتول من سلكين.

ق. البيان: وُصف القرآن بالبيان والبيّنة في آية: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾[٢] وآية: ﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٣]؛ لأنّه مبيّن للأحكام والحدود الإلهيّة. والأئمة عليهم السلام هم أيضاً مبيّنون لأحكامه سبحانه: «بيّنتم فرائضه»، ومظهرون لحدوده: «السلام على... المظهرين لأمر الله ونهيه».

ر. القيّم: القرآن حاوٍ للمعارف الإلهيّة في مجال العقيدة والأخلاق والأحكام، وهو قائم بنفسه وقيّوم البشريّة وقوامها؛ لذا فهو مصون من التحريف والعوج في ذاته، وفي الأمّة الراضية به حاكماً: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً * قَيِّماً﴾[٤]. وقد كان الأئمة في جهاد دائم وكدح مستمر في سبيل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والدعوة إلى حفظ الحدود الإلهيّة: «أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر وجاهدتم في الله حقّ جهاده، حتّى أعلنتم دعوته، وبيّنتم فرائضه، وأقمتم حدوده...»، هذا.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ الكثير من خصائص القرآن وأسمائه تنطبق من حيث المعنى على الصفات والخصائص المذكورة للأئمة عليهم السلام في هذه الزيارة، وإن اختلفت من حيث اللفظ؛ وعليه فما من وصف للقرآن إلاّ وهو ثابت للمعصوم

---

١. بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٠٢.

٢. آل عمران: ١٣٨.

٣. الأنعام: ١٥٧.

٤. الكهف: ١ ـ ٢.

أيضاً، بدليل:

**أولاً**: إنّ القرآن يرىٰ اختصاصه بتلك الكمالات والخصائص.

**ثانياً**: ويقيم البرهان علىٰ ذلك، ويدعو إلىٰ تلك الكمالات.

**ثالثاً**: إنّ كلّ من يسمع تلك الدعوة ويعيها ويعمل بها ويستجيب لها يتّصف بصفات القرآن ويتخلّق بأخلاقه.

والأئمة المعصومون عليهم السلام قد سمعوا كلام الله ودعوته، ووعوها واستجابوا لها قبل غيرهم، فلا جرم أن يتّصفوا بصفات القرآن ويتحلّوا بسمته قبل غيرهم، حتّىٰ صاروا قرآناً ناطقاً، وبلغوا به قمّة الكمال الممكن، ومن ثمّ دعونا لتلك القمّة، المفتوح طريقها للجميع، كما دعانا القرآن نفسه أيضاً إلىٰ التنافس في بلوغ تلك القمّة واتّباع الأحسن: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[١]، ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم**﴾[٢]، ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[٣].

وكلّ أمرئ يتّصف بالصفات الإلهيّة والقرآنية بقدر اتّباعه للقرآن والعترة الصادقة والعمل بأخلاقهما وهديهما.

**ملاحظة**

إنّ مهيع الكمال مشرع لكلّ وارد، والكلّ مدعوٌّ للصعود إلىٰ ذروة الكمال، لكنّ بلوغ قمّة كمالات المعصومين ليس بمقدور أحد من العالمين؛ لأنّه «**لا يُقاس بآل محمّد من هذه الأمّة أحد، ولا يُسوّىٰ بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً**»[٤]،

---

١ . الحديد: ٢١.

٢ . الزمر: ٥٥.

٣ . المطففين: ٢٦

٤ . "

فمثلهم عليهم السلام السيل العارم والنهر العباب، الذي يشقّ الأرض شقّاً، وليس بحاجة إلى ممهّد يمهّد له مجراه، ولا يصدّه عن جريانه صادّ، بل يحمل بتيّاره كلّ صادٍ وعقبة عن الطريق، فهو بنفسه يشقّ الوادي ويفتح له المسيل[1]، ومَثَل غيرهم كمثل جدول الماء، فإنّه تابعٌ لمسايل المياه، يجري ما دام المسيل مفتوحاً، ويركد إذا ما انغلق، ومن ثمّ يتسرّب ماؤه في جوف الأرض ويفقد الطريق إلى البحر الموّاج، وحتّى إن وصل إليه فسيكون مبهوتاً من جلاله وجبروته، وسيرد في صمت مطبق ليحلّ بشاطئه، ويقنع بالمقام في طرف منه ويصرف همّته عن التقدّم في المسير.

والحاصل: إنّ الأئمّة عليهم السلام هم في ذروة الكمالات التي لا ينبغي لأحد بلوغها.

## ٨ ـ تحدّي القرآن والإمام

لقد عرض القرآن الكريم التحدّي على الناس كافّة بغية إثبات إعجازه، ودعاهم إلى المغالبة في الإتيان بمثل آياته، وأخبر بأنّ أحداً لا يقدر على التغلّب عليه، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2].

وليس هذا التحدّي خاصّاً بزمان ولا بمحيطٍ ولا بأمّة ولا بثقافة، بل هو باقٍ منذ عصر النزول إلى الآن وإلى الأبد، فكلّ أمّة ـ مهما كانت خلفيّتها الثقافية والبيئية ـ تسمع هذا الخطاب مدعوّة لساحة السجال هذا. ولكن لم يستطع أحد إلى الآن اقتحام هذه الساحة، ولن يقدر أحد على ذلك مستقبلاً؛ لأنّ هذا الكتاب مظهر

---

١ . وفي الأمثال قالوا: «صر سيلاً تصل»، أي: لا تسأل عن الطريق، بل كن كالسيل الجارف حتّى تكن دليل نفسك في تبيّن الطريق؛ لأنّك إن صرت جدولاً صغيراً فسوف يغوص ماؤك في رمال الصحراء الهيم، وتفنى.

٢ . الإسراء: ٨٨.

علم إلهٍ قادرٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١]، بمعنىٰ أنّ الاسم الشريف: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ متجلٍّ في هذا الكتاب الإلهي، فما من كلام يكون عِدلاً للقرآن.

والإمام المعصوم عليه السلام أيضاً مظهر عينيّ لعلم وقدرة الإله الذي لا شبيه له، فلا يسع فرد من الموجودات الإمكانيّة أن يشركه في كمالاته ويعدله في خصائصه العلميّة والعمليّة؛ لأنّ «الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالِم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كلّه من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب،...»[٢].

لذا نجد في الروايات أنّ الإمام المعصوم يتحدّىٰ غيره في المساجلة العلميّة والفكريّة، والمنافسة العمليّة في العدل والإحسان والعبادة وما شابه، ويدعو إلىٰ المغالبة، ويخبر بأنّ أحداً لا يقدر علىٰ مجاراته في ذلك؛ فمهما كبر جناح العلم والعمل واستطال لن يستطيع سبقهم. وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك التحدّي بعبارته المعروفة: «ينحدر عنّي السيل ولا يرقىٰ إليّ الطير»[٣]؛ لأنّ مغالبته مغالبة لوليّ الله تعالىٰ، فهو عليه السلام يشبّه نفسه بالجبل الشامخ الفيّاض بعباب من العلم والحكمة، يجري علىٰ أحضابه وقرار الأرض من حوله.

والعطشان المسهوف وإن كان المطلوب منه السعي والبحث في جوانب سفوح الجبل طلباً لماء الحياة ليرتوي وينجو من الهلاك، لكنّ أحداً لا يستطيع تجاوز سفح الجبل ولا أن يرتقي قمتّه المنيعة، وهي المنبع الفيّاض من العلم والحكمة؛ لأنّ فورة هذا السيل العرم ستغرقه، كما أنّه ما من طائر بعيد المدىٰ بقادرٍ علىٰ أن يحطّ علىٰ قمّة علمه ومعرفته، فطريقا الأرض والسماء مسدودان عن المعرفة العلَويّة.

١ . الشورىٰ: ١١.

٢ . بحار الأنوار، ج٢٥، ص١٢٤.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة٣. (الشقشقيّة).

والسرّ في ذلك أنّهم عليهم السلام خواصّ جند الله تعالى، كتب الله لهم النصر والغلبة في كلّ موطن: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[١]، ﴿إِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٢]، وإن كان العالم بأسره مجنّد لإرادته سبحانه: ﴿وَلِلهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٣]. ودليل ذلك القول العليّ لسيّد الأوصياء عليّ بن أبي طالب عليه السلام وخاتم الأوصياء صاحب الزمان عجل الله فرجه: «فإنّا صنائع ربّنا والناس بعدُ صنائع لنا»[٤].

وبلحاظ هذه التفوّق المعنوي، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد من عباد الله»[٥]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمّة أحد، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، و لهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة»[٦].

وفي رواية أخرى عن رجل قال لأبي عبد الله عليه السلام: أليس قال رسول الله صلى الله عليه وآله في أبي ذر رحمة الله عليه: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر؟ قال: بلى، قال: قلت: فأين رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين؟ وأين الحسن والحسين؟ قال: فقال لي: كم السنة شهراً؟ قال: قلت: اثنا عشر شهراً، قال: كم منها حرم؟ قال: قلت: أربعة أشهر، قال: فشهر رمضان منها؟ قال: قلت: لا، قال: «إنّ في شهر رمضان ليلة أفضل من ألف شهر، إنّا أهل البيت لا يقاس بنا

١. المجادلة: ٢١.
٢. الصافات: ١٧٣.
٣. الفتح: ٤.
٤. نهج البلاغة، الكتاب٢٨؛ بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٧٨، ح٩، باختلاف يسير.
٥. بحار الأنوار، ج٦٥، ص٤٥.
٦. نهج البلاغة، الخطبة٢.

أحد»[١].

وهذا نظير آيات القرآن الكريم، فإنّها لا تقاس بكلام مخلوق، وإن كانت بعض الآيات أرقى وأكمل قياساً بآيات أخرى.

وعلّة خلل هذا القياس أنّ القرآن كلام الله تعالى، وأهل البيت عليهم السلام هم المظاهر الأتمّ لأسمائه الحسنى، والذات الإلهيّة المقدّسة لا يُقاس بها شيء؛ لأنّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٢]، ولأنّه كما قال أمير المؤمنين: «لا يُدرك بالحواس ولا يقاس بالناس»[٣]. فلا يقاس كلامه التدويني (القرآن) وكلماته التكوينيّة (أهل بيت العصمة) بكلامٍ تدويني وتكويني آخر.

**ملاحظة**

توجد بين تحدّي القرآن الكريم وتحدّي المعصومين جهة اشتراك وجهة افتراق؛ فهما يشتركان في كونهما معجزةً في العلم والمعنى، قد أعجزا في العلوم والمعارف كلّ أحد؛ ويفترقان في أنّ القرآن معجزةٌ أيضاً في ألفاظ آياته، فلا طاقة لأحد على المجيء بمثلها في سبكها، وأمّا كلام المعصومين فهو ليس بمعجز في لفظه؛ لذا حذّر النبيّ الأكرم في حجّة الوداع من الكذب عليه، فقال: «قد كثُرت عليّ الكذّابة وستكثر، فمن كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النّار»[٤].

وكان هذا التحذير النبويّ معروفاً ومتناقلاً منذ صدر الإسلام، حتّى أنّ معاوية ـ وهو أحد كبار أولئك الكذابة وواضعي الحديث عن ترغيب وترهيب ـ قال

١ . بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٠٦، ح٢٢.
٢ . الشورى: ١١.
٣ . نهج البلاغة، الخطبة١٨٢.
٤ . أصول الكافي، ج١، ص٦٢.

لعائشة: «إنّ الكذّابة قد كثرت على رسول الله [ﷺ] بعده، فلا يزال قائل يقول: قال رسول الله [ﷺ] ما لم يقل»[١].

لذا صارت ألفاظ القرآن الكريم هي المعيار والميزان لكلمات المعصومين عليهم السلام. قال النبي ﷺ في الرواية عن الإمام الجواد عليه السلام: «... فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنّتي، فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به»[٢]. وهذا النحو من التعامل مع الأخبار هو ما اتّبعه الإمام الجواد عليه السلام في مناظرته مع يحي بن أكثم.

## ٩ ـ حمل الكتاب والقدرة على التصرّف في التكوين

إنّ العالم بكتاب الله تعالى والحامل له حقّ الحمل يتمتّع بقدرة عالية خاصّة، تمكنّه من التصرّف في نظام التكوين. ولمّا كان أحد أصحاب النبي سليمان عليه السلام ذا حظّ من علم الكتاب، كما هو صريح القرآن، كانت له قدرة خاصّة بسبب ذلك، مكّنته من الإتيان بعرش ملكة سبأ إلى النبيّ سليمان بأسرع من لمحة عين: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[٣]. والقرآن وإن لم يذكر لنا اسمه[٤]، لكنّه وصفه بأنّ: ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾، وهذا الوصف يدلّ على أنّ قدرته الخارقة تلك ناشئة من علمه بالكتاب[٥]، فهناك ترابط وثيق ومباشر بين العلم بالكتاب والقدرة على

---

١. بحار الأنوار، ج٣٨، ص٣٣.
٢. بحار الأنوار، ج٥٠، ص٨٠.
٣. النمل: ٤٠.
٤. اسمه آصف بن برخيا، (انظر: تفسير القمّي، ج٢، ص١٢٨). وكان وزير ووصيّ النبي سليمان (انظر: الميزان، ج١٥، ذيل الآية ٤٠ من سورة النمل).
٥. وهذا مفاد قولهم: إنّ تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلّيّة.

التصرّف في نظام التكوين، وكلّما ازدادت المعرفة به تعاظمت القدرة.

لقد أُمر النبيّ الأكرم ﷺ وهو بصدد إثبات حقيّة القرآن وصواب دعوته بأن يجيب على المنكرين ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ ويقول لهم: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1]؛ وقد ثبت أنّ المراد ممّن ﴿عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ لا يمكن أن يكون غير الإمام المعصوم، كعليّ بن أبي طالب[2].

وتؤيّد هذا المعنى روايات عديدة، منها ما رواه أبو سعيد الخدريّ، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قال: ذاك أخي عليّ بن أبي طالب»[3]. وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في هذه الآية: «إيّانا عنى، وعليّ أوّلنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبيّ ﷺ»[4]. وقال في جواب عبد الله بن عجلان في معناها: «نزلت في عليّ بعد رسول الله ﷺ، وفي الائمّة بعده، وعليّ عنده علم الكتاب»[5].

إنّ آصف بن برخيا لم يكن له علم بكلّ الكتاب، بل ببعضه؛ لمكان «من» التبعيضيّة، بيد أنّ الشخص المقصود في سورة الرعد له علم بكلّ الكتاب؛ لذا قال الإمام الصادق عليه السلام حينما سُئل عن الأعلم منهما: «ما كان علم الذي عنده علم من الكتاب عند الذي عنده علم الكتاب إلاّ بقدر ما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر»[6].

وجاء في بعض الروايات: «إنّ اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنّما

١. الرعد: ٤٣.
٢. انظر: تفسير الميزان، ج١١، ذيل الآية المذكورة.
٣. تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٥٢٣، ح٢١١.
٤. المصدر نفسه، ص٥٢٢، ح٢٠٧.
٥. المصدر نفسه، ص٥٢٣، ح٢١٣.
٦. تفسير القمي، ج١، ص٣٦٧، ذيل الآية ٤٣ من سورة الرعد.

كان عند آصف منها حرف، فتكلّم به فخسف بالأرض بينه وما بين سرير بلقيس، ثمّ تناول السرير بيده ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين؛ وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف عند الله، استأثر به في علم الغيب عنده»[١].

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «ألا إنّ العلم الذي هبط به آدم من السماء إلى الأرض وجميع ما فُضّلت به النبيّون إلى خاتم النبيّين، في عترة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله»[٢]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «عليّ بن أبي طالب عنده علم الكتاب الأوّل والآخر»[٣].

وبهذا فقد اتّضح مدى قدرة الأئمّة عليهم السلام على التصرّف التكويني، وتبيّن أنّه لا مانع عقليّ ممّا يُنسب إليهم من أفعال تكوينيّة. أجل؛ إثبات المنسوب إليهم بحاجة إلى دليل معتبر.

**ملاحظتان**

الأولى: قد يلجأ الأئمّة في حالات (كالتقيّة وضيق فهم المخاطب وما شابه) إلى إنكار علمهم بالغيب. ومن هنا، قال الإمام الصادق عليه السلام في جمع: «إنّي لأعلم ما في السماوات، وما في الأرضين، وأعلم ما في الجنّة، وأعلم ما في النار، وأعلم ما كان وما يكون، ثمّ مكث هنيئة، فرأى أنّ ذلك كبر على من سمعه، فقال: علمت ذلك من كتاب الله، إنّ الله يقول: ﴿فِيهِ تِبْيَان كُلِّ شَيْءٍ﴾»[٤].

وعن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البزّاز وداود بن كثير في مجلس أبي

---

١ . تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٨٨، ح٦٧ ـ ٦٩.

٢ . تفسير نور الثقلين، ج٢، ح٢١٠.

٣ . المصدر نفسه، ح٢١٦.

٤ . بحار الأنوار، ج٨٩، ص٨٦، ح٢١.

عبد الله عليه السلام، إذ خرج علينا وهو مغضب، فلمّا أخذ مجلسه قال: يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجلّ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت منّي، فما علمت في أيّ بيوت الدار هي؟ قال سدير: فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر، فقلنا له: جُعلنا فداك! سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً، ولا ننسبك إلى علم الغيب؟ قال: فقال: يا سدير! ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجل: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟ قال: قلت: جُعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت الرجل، وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: أخبرني به، قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟ قال: قلت: جُعلت فداك ما أقلّ هذا! قال: فقال: يا سدير! ما أكثر هذا أن ينسبه الله عزّ وجلّ إلى العلم الذي أخبرك به، يا سدير! فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّ وجلّ أيضاً: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قلت: قد قرأته جُعلت فداك، قال: فمن عنده علم من الكتاب أفهم أم من عنده علم الكتاب؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأومى بيده إلى صدره، وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا[1].

ولا ريب في أنّ الداعي لإنكار الإمام علمه بالغيب هو رعاية التقيّة؛ لأنّ المُتّقى منه ليس هم الأعداء وحسب، بل الشيعة قليلي الاستيعاب، الذين لا يتحمّلون فهم المطالب العميقة، أو الذين يذيعون ما يسمعون ويعلمون في غير محلّه، ويخلقون بذلك المشاكل لأنفسهم أو للأئمّة عليهم السلام. وممّا يدلّ بصراحة على هذا

---

١. بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٩٧؛ تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٥٢٢، ذيل الآية ٤٣ من سورة الرعد.

المعنىٰ ما رواه ابن أبي نصر، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن مسألة، فأبىٰ وأمسك، ثمّ قال: «لو أعطيناكم كلّ ما تريدون كان شرّاً لكم، وأُخذ برقبة صاحب هذا الأمر»[1].

**الثانية**: إنّ أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام متكثّرون في عالم الناسوت وبعض مراتب الوجود، ولكنّهم نور واحد في عالم التجرّد التامّ، وتعدّد القرآن والعترة إنّما هو في عالم الطبيعة وما شابهه، لا في مرتبة التجرّد التامّ، فإنّه لا مجال لتعدّدهما فيها؛ لذا طُبّق عنوان «الكتاب المبين» في آية: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] علىٰ القرآن تارةً وعلىٰ الإنسان الكامل المعصوم أخرىٰ؛ وعليه فحقيقة القرآن والمعصوم واحدة، وإن تفاوتا بلحاظ الألفاظ والمفاهيم والمصاديق والتفسير والتأويل و... .

## ١٠ ـ الأئمّة والقدرة على تغيير المصير

علىٰ ضوء ما ذُكر من علم الأئمّة وقدرتهم التكوينيّة يتبادر سؤالان:

**الأوّل**: هل كان للأئمّة عليهم السلام علم بما سيجري عليهم؟ فهل كان أمير المؤمنين عليه السلام عالماً بكمون ابن ملجم له حين ذهابه إلىٰ المسجد في سحر الليلة التاسعة عشر من شهر رمضان المبارك؟ وهل كان سيّد قافلة العشق حينما عزم علىٰ السفر إلىٰ الكوفة علىٰ علم بمصيره إلىٰ كربلاء وشهادته فيها؟ وإن كان علىٰ علم فلمَ ذهب؟ وإلاّ فكيف نوجّه هذه الروايات الدالّة علىٰ علمهم بالغيب؟

**الثاني**: ألم يكونوا قادرين حين مواجهة العدوّ علىٰ القضاء عليه بالقدرة التكوينيّة؟ فإن كانوا قادرين فلمَ لم يعملوا بها، وطلبوا العون من الناس بنداء «هل

---

١. أصول الكافي، ج٢، ص٢٢٤؛ بحار الأنوار، ج٧٢، ص٧٧، ح٢٧.

٢. المائدة: ٥٩.

من ناصر ينصرني»؟ وإن لم يكونوا قادرين فكيف تُوجّه تلك الروايات؟

جواب السؤال الأوّل:

أ: إنّ وصيّة الإمام الحسين عليه السلام حين خروجه من المدينة، وما قاله في طريق سفره لمن لاقاه، تدلّ على علمه بعاقبة سفره وما سيصير إليه، وكان علمه القطعيّ الملكوتيّ بذلك مستند إلى إخبار جبرئيل والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والإمام المجتبى عليهم السلام. وأمّا علمه العادي المُلكي بذلك فكان مستنداً إلى تحليل الأوضاع آنذاك، وكانت كلّ المؤشّرات دالّة على مصير الشهادة، حتّى أنّ عدداً من شخصيّات ذلك العصر كان قد حدس بذلك، مثل عبد الله بن عمر ومحمّد بن الحنفيّة وابن عباس والشاعر الفرزدق، وهم ممّن لا علم لهم بالغيب، لكنّهم عرفوا بالعلم العادي (لابالعلم القطعي غير القابل للبداء) بمصير سفر الإمام إلى العراق بحسب المعطيات الملموسة لهم؛ وعليه فإنّ إنكار علم الإمام الحسين عليه السلام بمآل ثورته ضدّ النظام الأموي الظالم إنكارٌ لضرورة تاريخيّة.

ب: يحصل أن يجد المرء نفسه ملزماً (لاقتضاء الظرف ذلك) بالقيام بفعلٍ لتحقيق أهدافه، وإن أدّى ذلك إلى موته. وعلى هذا الأساس، كان جند الإسلام في زمن الدفاع المقدّس يتسابقون لعبور حقول الألغام، وكانوا عالمين بأنّ عاقبة ذلك هو القتل والشهادة؛ لكنّهم علموا بأنّ لا حيلةَ لهم غير ذلك للدفاع عن النظام الإسلامي، فعبروا تلك الميادين التي لا رجعة منها.

إنّ مسير الإمام الحسين إلى كربلاء كان من هذا النوع؛ لأنّ الانحراف في النظام الإسلامي كان قد بلغ مبلغاً خطيراً، بحيث إنّه لولا ثورة الإمام وصحبه الأوفياء لقُضي على الإسلام، كما قال عليه السلام: «وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد»[١]، ولم يكن ليسوّى ذلك الاعوجاج بغير شهادته عليه السلام.

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٦؛ مقتل الخوارزمي، ج١، ص١٨٥.

ج: يتلقّى النبيُّ والأئمة عليهم السلام علومهم من طريقين: علوم يحصلون عليها بالطرق الطبيعيّة المعروفة، وعلوم يتلقّونها من طريق إلهي خاصّ.

ولكنّهم مكلّفون في نشأة التكليف هذه بالعمل طبق النوع الأوّل من العلوم، وعلمهم الغيبي بمآلهم ليس بمنجّز للتكليف، فهم يأخذون بالعلم العادي في تكاليفهم وتصرّفاتهم اليوميّة، إلاّ في الحالات المأذون لهم بالإفادة من العلم الخاصّ، كما في حالات إثبات حقيّة الدين والإمامة وما شابه، وهم في ذلك تابعون لإرادة الله تعالى في العلم والعمل؛ لأنّهم معصومون عن الزيغ والعصيان، فلا يوظّفون علمهم الغيبيّ الخاصّ فيما لا إذن فيه، حتّى في مسائل القضاء بين الناس؛ لذا ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان، وبعضكم ألحن بحجّته من بعض، فأيّما رجل قطعتُ له من مال أخيه شيئاً فإنّما قطعتُ له به قطعة من النار»[١].

فمدار التكليف على العلم الحاصل من الطرق البشريّة المعروفة؛ ولذا لو أنّهم عليهم السلام علموا بالعلم العادي بمكر العدوّ للنيل منهم، وكانت حالهم مختلفة عن حال الإمام الحسين عليه السلام، لأفسدوا عليه مكره وفوّتوا عليه الفرصة[٢].

د. روى أبو بصير، عن الإمام الصادق عليه السلام: «أيّ إمام لا يعلم ما يصيبه وإلى ما يصير فليس ذلك بحجّة لله على خلقه»[٣]. وقال في رواية أخرى: «... إنّ لكلّ واحد منّا صحيفة فيها ما يحتاج إليه أن يعمل به في مدّته، فإذا انقضى ما فيها ممّا أُمر به عرف أنّ أجله قد حضر...»[٤].

---

١ . تهذيب الأحكام، ج٦، ص٢٢٩، ح٥٥٢.

٢ . للمزيد انظر عنوان: «خزائن العلم» في الجزء الأوّل من هذا الكتاب.

٣ . الكافي، ج١، ص٢٥٨.

٤ . الكافي،ج١، ص٢٨٣، باب أنّ الأئمّة لم يفعلوا شيئاً ولا يفعلونه إلاّ بعهد من الله عزّ وجلّ.

وفي رواية ثالثة، قال: إنّ الله عزّ وجلّ أنزل على نبيّه ﷺ كتاباً قبل وفاته، فقال: يا محمد! هذه وصيّتك إلى النجبة من أهلك، قال: وما النجبة يا جبرئيل؟ فقال: عليّ بن أبي طالب ووُلده عليهم السلام، وكان على الكتاب خواتيم من ذهب، فدفعه النبيّ ﷺ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وأمره أن يفكّ خاتماً منه ويعمل بما فيه، ففكّ أمير المؤمنين عليه السلام خاتماً وعمل بما فيه، ثمّ دفعه إلى ابنه الحسن عليه السلام ففكّ خاتماً وعمل بما فيه، ثمّ دفعه إلى الحسين عليه السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه: «أن اخرج بقوم إلى الشهادة، فلا شهادة لهم إلاّ معك، واشرِ نفسك لله عزّ وجلّ» ففعل، ثمّ دفعه إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه: «أن أطرق واصمت والزم منزلك واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين»، ففعل، ثمّ دفعه إلى ابنه محمّد بن علي عليهما السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه: «حدّث الناس وافتهم، ولا تخافنّ إلاّ الله عزّ وجلّ، فإنّه لا سبيل لأحد عليك» [ففعل]، ثمّ دفعه إلى ابنه جعفر، ففكّ خاتماً فوجد فيه: «حدّث الناس وافتهم، وانشر علوم أهل بيتك وصدّق آبائك الصالحين، ولا تخافنّ إلاّ الله عزّ وجلّ وأنت في حرز وأمان» ففعل، ثمّ دفعه إلى ابنه موسى عليه السلام، وكذلك يدفعه موسى إلى الذي بعده، ثمّ كذلك إلى قيام المهدي، صلى الله عليه[1].

**جواب السؤال الثاني:**

أ: لا شكّ في أنّ الأئمّة يملكون القدرة التكوينيّة على إبادة أعدائهم وبمحض الإرادة منهم عليهم السلام؛ لأنّهم واسطة الفيض الإلهي، وما حركة أيدي وأرجل أعدائهم، ونور عيونهم و... بل وحدّة أسلحتهم وصرامتها إلاّ ببركة إذنهم التكويني؛ لأنّ ذلك كلّه فيض إلهي، وهم عليهم السلام الواسطة فيه؛ غير أنّ هذه القدرة الخاصّة ليست بملاكٍ في التكليف، والنبي والأئمّة لا يُعملونها في سبيل نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، والدفاع عن أنفسهم؛ لأنّ ذلك رهن الإرادة الإلهيّة، وعلّة

---

١. الكافي، ج١، ص١٨٣.

هذا أنّ هذه الدنيا نشأة تكليف، ومداره كما سمعتَ على العلم البشري. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1]، فالأئمّة من هذه الجهة ـ كغيرهم ـ مكلّفون بالأخذ بالأسباب الظاهريّة في نشر الدين، ولو أنّهم أعملوا قدراتهم الخاصّة في إهلاك خصومهم لانهار أساس التكليف الإلهي؛ لأنّه لن يكون حينئذٍ تمحيص لهم عليهم السلام ولا لشيعتهم الصادقين.

روي أنّ خارجيّاً اختصم مع آخر إلى علي عليه السلام، فحكم بينهما بحكم الله ورسوله، فقال الخارجيّ: لا عدلت في القضيّة! فقال عليه السلام: اخسأ يا عدوّ الله! فاستحال كلباً وطارت ثيابه في الهواء، فجعل يبصبص وقد دمعت عيناه، فرقّ له عليه السلام فدعا الله فأعاده إلى حال الإنسانيّة، وتراجعت إليه ثيابه من الهواء، فقال: آصف وصيّ سليمان قصّ الله عنه بقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2]، أيّهما أكبر على الله نبيّكم أم سليمان[3]؟ فقيل: ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار؟ قال: إنّما أدعو على هؤلاء بثبوت الحجّة وكمال المحنة، ولو أُذن لي في الدعاء لما تأخّر[4].

بناءً على ذلك، فاستصراخ الإمام الحسين عليه السلام بنداء «هل من ناصر ينصرني؟» كان بغرض إتمام الحجّة.

ب: إنّ الإمام مثال لغيره في تبليغ الدين، فلو اعتمد في ذلك على قدرته

---

١. محمد: ٤.

٢. النمل: ٤٠.

٣. بيّن الإمام في هذه الجملة أنّه كما أنّ رتبة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أعلى من رتبة النبيّ سليمان عليه السلام؛ فرتبة وصيّه يجب أن تكون أيضاً أعلى من رتبة وصيّ النبيّ سليمان.

٤. نور الثقلين، ج٤، ص٩١، ح٧٨. وإثبات تفاصيل مثل هذه الرواية بخبر الواحد وإن كان صعباً؛ لكنّ إثبات كليّاتها ـ وهي قدرة الأئمّة على التصرّف التكويني ـ بالآيات والروايات القطعيّة في غاية اليسر والسهولة.

الخاصّة، وأعملها في إزاحة العراقيل والعقبات من طريقه، لما صار قدوةً لغيره، ولما وسعه أن يقول: لا تخشوا الموت والعطش والجوع والحبس والتعذيب والأسر في سبيل حفظ الإسلام وحياطته؛ لأنّه سيقال له: لماذا خشيتَ أنت ذلك، وأعملت قدرتك الخاصّة في إزاحة العقبات؟

ج: إنّ بلوغ المقامات العالية التي أرادها الله تعالى للأئمة عليهم السلام مرحلة الفعليّة منوط بتحمّل البلاء ونيل الشهادة؛ فكما «إنّ للعباس عند الله عزّ وجلّ منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة»[1]، بسبب تحمّله للعطش والقتل و... فإنّ المكانة الرفيعة المتميّزة للإمام الحسين عليه السلام من بين سائر الأئمة عليهم السلام إنّما هي بسبب معاناة مصائب كربلاء وكرباتها، فتلك المعاناة هي الموجبة لفعليّة المقام الإلهي المقدّر له عليه السلام.

* * *

١. بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٩٨.

# وأوصياء نبيّ الله

كلمة «أوصياء» جمع «وصيّ»، مشتقّة من المادة «وصي»، بمعنى وَصلِ شيء بشيء[1]. ووَصَيْتُ اللّيلَةَ باليوم: وصَلْتُها، وذلك في عملٍ تَعمَلُه، (كصلاة الليل و...)، والوصِيَّة من هذا القياس، كأنّه كلامٌ يُوصَى، أي يُوصَل به ما قبل الموت بما بعده؛ لأنّ المُوصي يتمكّن بها من التصرّف في ماله، فهو يصل تصرّفه بعد الموت بتصرّفه حال الحياة[2].

ولمّا كان نفوذ تصرّفات الموصي في ماله بعد موته بحاجة إلى عهدٍ منه في ذلك، فقد استعملت كلمة «وصيّة» في مطلق التواصي، وصارت كلمة التوصيّة يراد بها ذلك أيضاً. وقد استُعمل هذا المعنى في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كما في آية: **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**[3]، وآية: **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾**[4]،

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادّة «وصي». قال: «ووَصَيْتُ الشّيءَ: وصَلْتُه».

٢. انظر: العروة الوثقى، كتاب الوصيّة.

٣. العصر: ٣.

٤. العنكبوت: ٨.

وآية: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[١]، وآية: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ﴾[٢].

وكلمة «نبيّ» مشتقّة من المادة «نبو» أو «نبأ»، والنبيّ يُطلق على الإنسان الكامل المتّصل بما وراء الطبيعة[٣].

## استمرار طريق النبوّة

إنّ الموت يقصي ابن آدم عن مكنوزاته، ويسلب منه القدرة على حفظها والتصرّف فيها وزيادتها، فعلى من له مدّخر ماديّ أو معنويّ يريد التصرّف فيه بعد موته أو حفظه أو زيادته أن يوصي بذلك، والوصيّة عهد مشترك بين الأمم والطوائف كافّة، وهو مورد تأكيد شديد من قِبل الدين الإسلامي المقدّس، حتّى ورد فيه: «من مات بغير وصيّة مات ميتةً جاهليّة»[٤].

والتناسب بين الوصيّ والشيء الموصى به أمر ضروريّ، فما من عالم يعهد بطباعة كتابه أو تصحيحه أو توضيحه إلى عاميٍّ أمّيّ، وما من تاجر يفوّض إدارة تجارته إلى رجل لا يعرفه ولا يثق به.

والقرآن الكريم بصفته كتاب سعادة، والإسلام بما هو دين حياة، لم يأتيا بسهولة وراحة بال، بل تحمّل النبيّ الأكرم ﷺ في سبيل تلقّي كلام الله المجيد والحفاظ عليه وتبليغه أعباء الرسالة الثقيلة على مدى سنوات، حتى قال: «ما أوذي

---

١. مريم: ٣١.

٢. النساء: ١١.

٣. سبق تحقيق معنى هذه المفردة اللغويّة في الجزء الأول من هذا الكتاب، تحت فقرة «يا أهل بيت النبوة»، فلاحظ.

٤. وسائل الشيعة، ج١٩، كتاب الوصايا، ب١، ح٢٤٥٤٦، وستذكر بعض هذه الروايات في الإشارات.

نبيّ مثل ما أوذيت»[١]، و «ما أوذي أحدٌ مثل ما أذيت في الله»[٢]. فكان أول الأمور المتوقّعة منه ﷺ وأظهر التدابير العقلائيّة الموافقة لطبيعة الأشياء أن ينظر لحال ما بعد مماته؛ لئلاّ تذهب حصيلة حياته وثمرة بلائه هدراً، وذلك التدبير والنظر يحصل بالوصيّة، وما من شكّ في أنّ اختيار وصيّ من قِبل النبيّ إنّما هو استمرارٌ للرسالة واجتناءٌ لأهدافها.

وعليه فإنّ المنكر لتعيين النبيّ وصيّاً له والإشارة إليه إمّا أن يتجاهل محنةَ النبيّ في أداء الرسالة ومصاعب تحمّلها؛ ويدّعي أنّ الرسول لم يصبه في سبيل ذلك أذىً، وبالتالي فهو غير حريص على حفظها، بل ألقى حبلها على غاربها؛ وإمّا أن يقول: إنّ الرسول وإن تحمّل ما تحمّل من آلام وكدح، لكنّه لم يخطّط ولم يهتمّ لمصير رسالته بعد موته!

وبقليل من التأمّل نعرف أنّ هذا الكلام واردٌ أيضاً على مدبّر نظام الوجود، الربّ المتعال (نعوذ بالله ونستجير منه)؛ والحال أنّ الخليفتين الأوّل والثاني كانا من سعة النظر وحُسن التدبير والشفقة على الدين أنّ أصرّا على الاستخلاف والوصيّة بإمرة المسلمين بعد موتهما!

وهنا قد يقال: إنّ النبيّ الأكرم ﷺ قد فوّض نصب الوصيّ للأمّة، فهو عمل بتكليفه وأثبت بذلك حُسن تدبيره للمستقبل.

والجواب:

**أولاً**: إنّ المفترض في الوصيّة أن تحلّ المشكل، لا أن توجد لنا مشكلاً آخر! فليس بحسبان أحدٍ أن يكون تخطيط الرسول الأكرم ـ وهو عقل الكلّ، والذي تمكّن بحكمته من إنهاء نزاع دمويّ طويل بين الأوس والخزرج ـ سبباً لبدء نزاع

---

١. بحار الأنوار، ج٣٩، ص٥٦.

٢. كنز العمال، ج٣، ص١٣٠، ح٥٨١٨.

وحرب جديدة في أمّته، وأن يبقى مستمرّاً في أجيالها كشوكة في الحلق! فكيف يُعقل من مثله ﷺ أن يكون تدبيره لأمّته من بعده غير مرضيّ من أقرب الناس إليه، كسلمان وأبي ذر والمقداد، بل وابنته الحبيبة السيدة الزهراء وابن عمّه وصهره الإمام عليّ؟!

**ثانياً**: إنّ ذلك التدبير النبويّ المفترض لم يقبل به الخليفتان الأول والثاني، بدليل أنّ الأول قرّر تنصيب خليفة له بنفسه، وجعل الثانيّ الخلافة شورى في ستّة نفر، وكلّفهم بانتخاب خليفة له بعد وفاته.

**ثالثاً**: إنّ فرضيّة تفويض تعيين الوصيّ إلى الأمّة تفويضاً مفتوحاً ومطلقاً، بدون تبيين ما يجب أن يكون عليه المنتخِب والمنتخَب من صفات ومزايا وأحوال، وبدون بيان شروط الانتخاب نفسه وحدوده و... لا تعكس حكمة المفوِّض وعلمه؛ لأنّه لو لم يقدم النبيُّ نفسه على مثل هذه الخطوة المفترضة لخطتها الأمّةُ من بعده تلقائيّاً؛ وعليه فالنتيجة واحدة، إذ وجود هذه الخطوة المدّعاة وعدمها سواء.

**رابعاً**: إنّ الأمر هنا يدور حول تعيين وصيّ لنبيّ الله، فهو وصيّ للنبيّ بلحاظ الشخصيّة الحقوقيّة للنبيّ ﷺ لا بلحاظ الشخصيّة الحقيقيّة.

ومما لا يخفى أنّ لكلّ أحد كشخص الحقّ في تعيين وصيّ شخصيّ له، لكنّ تعيين وصيّ للشخصيّة الحقوقيّة له ضوابط وشرائط خاصّة؛ لأنّ السعة الوجوديّة لوصيّ الشخصيّة الحقوقيّة يجب أن تكون بقدر ما للمُوصي، وأن يكون له من الثقل الاجتماعي كما له. وتعيين وصيّ لمقام النبوّة ليس من الأمور المنوطة بالأمّة، بل ولا بالنبيّ نفسه كشخص؛ لأنّ تعيينه أمر إلهي، وما على الرسول فيه إلاّ البلاغ، فهو نظير اختيار الله تعالى شخصاً للنبوّة، فإنّه منوط بالإرادة الإلهيّة المحضة، وليس للمنتخَب للنبوّة دور فيه: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1]، فليس لنبيّ أن يبادر

---

١ . الأنعام: ١٢٤.

لتعيين وصيّ لمقام النبوّة بمعزل عن إرادة الله تعالىٰ؛ لا سيّما لنبيّ قُدّر أن يبعث للعالمين من جنّ وإنس، وأن تكون رسالته خاتمة الرسالات، وأن يكون كتابه أحسن الكتب ودينه أعلىٰ الأديان.

**خامساً**: إنّ الخليفة الأول انتُخب للخلافة بطريق الإجماع المُدّعىٰ لأهل السقيفة المعدودين، وانتُخب الخليفة الثاني بطريق النصّ عليه من سابقه، وانتُخب الخليفة الثالث بطريق شورىٰ ستّة رجال فيهم عبد الرحمن بن عوف، وكان له حقّ النقض «الفيتو». أمّا الإمام عليّ فقد تقلّد الخلافة الظاهريّة بواسطة اجتماع الأمّة علىٰ مبايعته. وقد تمكّن معاوية من التسلّط علىٰ الشام بالانقلاب العسكري ومكر عمرو بن العاص.

واختلاف هذه الطرق يدلّ علىٰ أنّ النبيّ الأكرم ﷺ لم يوص بوصيّة كليّة عامّة.

ولا يمكن القول إنّه ﷺ ترك أمّته هملاً، ولم يوص في هذا الأمر المهمّ بشيء، فلا مناص من القول بأنّه ﷺ قد عيّن وصيّاً بعينه، وليس من بين مَن ذُكروا من الصحابة أحدٌ تولّىٰ الخلافة بعنوان أنّه موصىٰ به من قِبل الرسول نفسه، إلاّ عليّ بن أبي طالب، فإنّه ادّعىٰ ذلك بصدق.

## حدود صلاحيات وصيّ النبيّ

إنّ دائرة صلاحيات الوصيّ محدودة بنصّ الوصيّة، فليس من حقّ الوصيّ العمل وفق ما يراه هو، بل هو مكلّف بالاقتصار علىٰ ما أراده الموصي في وصيّته، فلو أوصىٰ المُوصي بأن توقف كتبٌ معيّنة علىٰ مكتبة معيّنة بعد استئذان أبيه فليس للوصيّ أن يوقف أكثر منها أو أقل، ولا أن يوقفها بلا إذن الأب، كما ليس له أن يبيع تلك الكتب علىٰ تلك المكتبة أو يهديها إليها، ولا أن يوقفها علىٰ غير المكتبة المنصوص عليها.

وقد مرّ عليك أنّ الوصاية عن النبيّ منصب حقوقيّ لا شخصيّ، وهذا يعني:

١ ـ أنّ دائرة وظائف وصيّ النبيّ ذات صلة مباشرة بأمور النبوّة، من تعليم وتفسير للوحي والكتاب، والمجاهدة لهداية الناس وتزكيتهم، ونشر الدين وتطبيق أحكامه..

٢ ـ التوفّر على العلم والمعرفة بكتاب الله وسنّة نبيّه، وهذا أمر ضروريّ في الوصيّ ولا مجال للتساهل فيه، بل يجب أن يكون علم الوصيّ بذلك يفوق بمراتب علم غيره؛ لأنّ نبيّ الإسلام كان رسولاً للأمم كافّة.

٣ ـ أنّ ما فعله الخلفاء من إلغاء متعتيّ الحجّ والنساء وحذف جملة: «حيّ على خير العمل» من الأذان والإقامة لم يكن من باب منصب الوصاية للنبيّ، وكصلاحية من صلاحيات الخلافة عنه ﷺ، بل كان تصرّفاً جزافيّاً ناشئاً عن هوى نفس وتشهٍّ[١].

## إشارات

### ١ ـ التشديد على الوصيّة في الروايات

أ. سأل أبو الصباح الكناني الإمام الصادق عليه السلام عن الوصيّة فقال: «هي حقّ على كلّ مسلم»[٢]..

ب. ورد في الرواية: «ما ينبغي لإمرئ مسلم أن يبيت ليلةً إلاّ ووصيّته تحت رأسه»[٣]؛ بمعنى أنّه يجب كتابة الوصيّة سلفاً وجعلها قريبة التناول.

---

١ . انظر: الإشارة الرابعة من الإشارات الآتية قريباً.

٢ . وسائل الشيعة، ج١٩، كتاب الوصايا، ب١، ح٢٤٥٤٠.

٣ . المصدر نفسه، ح٢٤٥٤٥.

ج. قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من ميّت تحضره الوفاة إلاّ ردّ الله عليه من بصره وسمعه وعقله للوصيّة، أخذ الوصيّة أو ترك، وهي الراحة التي يقال لها: راحة الموت، فهي حقّ على كلّ مسلم»[١].

**ملاحظة**

إنّ من يموت أثناء النوم أو البهت أو الإغماء الطويل لا يخلو شأنه من حالتين: إمّا أن يُذكّر ويُنبّه للإيصاء وتنظيم أموره لما بعد الموت قبل النوم والابتلاء بالاغماء، وإمّا أن يُحرم من هذه النعمة بسبب تجاهله المكرّر للمواعظ، واستخفافه بتعاليم الدين وعناده لما جاء به، فتصيبه مصيبة الموت حال نومه أو إغمائه ولمّا يعهد عهده؛ لأنّ المعاندين للدّين المستكبرين عليه لا يختلف حالهم بين النوم واليقظة والوعي والإغماء والغفلة عن الموت والاستعداد له، وإطلاق أو عموم الرواية المذكورة قابل للتقييد والتخصيص كغيرها من الأدلّة المطلقة والعامّة.

د. إنّ الوصيّة وإن جرى التأكيد عليها كثيراً؛ لكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الإيصاء محدود بالأمور التي لا يستطيع المُوصي القيام بها حال حياته، أمّا ما يمكنه إنجازه منها حيّاً فلا ينبغي تكليف الآخرين بها بعد الموت. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا ابن آدم! كن وصيّ نفسك في مالك، واعمل فيه بما تؤثر أن يُعمل فيه من بعدك»[٢].

## ٢ ـ نظريّتان في وصيّ رسول الله

كان لرسول الله صلى الله عليه وآله منصبان أساسيّان:

أ. النبوّة والرسالة، فقد كان نبيّاً رسولاً إلى أن توفّاه الله، وقد امتدّت رسالته

---

١ . وسائل الشيعة، ح٢٤٥٥١.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٤.

ثلاث وعشرين سنة.

ب. الحكومة والرئاسة العامّة على المجتمع الإسلامي، وقد طوت حكومته عشر سنين قضاها كلّها في المدينة.

ويعتقد الشيعة أنّ الحاجة لخلافة النبيّ ﷺ لا تنحصر في المنصب الثاني وحسب، بل تعمّ المنصب الأول أيضاً؛ لأنّ الوحي الرسالي والتشريعي وإن انقطع بموت النبيّ ﷺ وانقضت بذلك نبوّته؛ إلاّ أنّ حفظ الدين يبقى واجباً وأمراً لازماً، ولم تُتح للرسول الأكرم ﷺ الفرصة الكافية لتفسير كثير من الآيات وبيان كثير من الأحكام وتفاصيلها، ووصيّه هو المتكفّل بكلّ ذلك والقائم به.

إنّ الإمام هو مَن يخلف النبيّ ﷺ ويقوم مقامه في المنصبين معاً؛ لذا وجب أن يتعلّم منه علوم الظاهر والباطن والتفسير والتأويل، ويتلقّى منه أخبار الملاحم والفتن، وكلّ شيء يعنى بالكيان الإسلامي ووجوده، كما يجب أن يكون إنساناً كاملاً ومعصوماً في ميدان العمل.

أمّا أهل السنّة فيعتقدون أنّ المنصب النبويّ الأول ليس بحاجة لوصيّ، تمسّكاً منهم بمقولة «حسبنا كتاب الله»، واكتفوا بتعيين خليفة لمقام المنصب الثاني، وهو رئاسة الحكومة والدولة.

ومنه يتبيّن أنّ مرجع اختلاف الشيعة والسنّة في صفات خليفة النبيّ وطريقة اختياره هو هذا التفاوت النظريّ.

## ٣ـ أوصياء النبيّ في الروايات

ذُكرت أسماء الأئمّة الأطهار عليهم السلام في الكثير من الروايات كأوصياء للنبيّ ﷺ، ومن أشهرها الحديث المعروف بحديث لوح فاطمة عليها السلام، وهو تهنئة من الله تعالى بمناسبة ميلاد الإمام الحسين عليه السلام، خُطّ بشبه لون الشمس على مثل

الزمرّد، أهداه اللهُ لنبيّة قرّة عين وأعطاه النبيّ للزهـراء عليها السلام بـشارةً لهـا، وقـد رأىٰ جابر بن عبد الله الأنصاري هذا اللـوح واستنـسخه، وكـان مثبتـاً فيـه اسـم النبـيّ وأسماء أوصيائه، عليّ وبنيه بصفاتهم وخصالهم. قالت فاطمة: «هذا لوح أهـداه الله إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابنيَّ واسم الأوصياء من ولدي، وأعطانيه أبي ليبشّرني بذلك...».

قال عبد الرحمن بن سالم: قال أبو بصير: لو لم تسمع في دهرك إلاّ هـذا الحـديث لكفاك، فصنه إلاّ عن أهله[1].

## ٤ ـ الاجتهاد مقابل النصّ

روي عن الخليفة الثاني أنّه قال: «ثلاث كنّ علىٰ عهـد رسـول الله أنـا محـرمهنّ ومعاقب عليهنّ: متعة الحجّ ومتعـة النـساء وحـيّ عـلىٰ خـير العمـل في الأذان»[2]. وروي عنه قوله: «متعتان كانتا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أنـا أنهـىٰ عـنهما وأضرب فيهما»[3].

يستفاد من هذه الروايات ـ وهي تربو علىٰ أربعين رواية، نقل [بعـضها] المتّقـيّ الهندي في «كنز العمال» والعلاّمة الأميني في «الغدير» ـ أنّ الخليفة الثاني يضع نفـسه مقابل رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقابل سنّة النبيّ بنهيـه، وهـذا مـا يـسمّىٰ في الاصـطلاح بالاجتهاد مقابل النصّ.

ولقد كان هذا الاجتهاد منه مذموماً حتّىٰ من قِبل ابنه عبد الله، فقد سأله رجـل عن متعة الحجّ، فقال: هي حلال، فقال له السائل: إنّ أبـاك قـد نهـىٰ عنهـا! فقـال عبد الله بن عمر: أرأيت إن كان أبي نهىٰ عنهـا وصـنعها رسـول الله صلى الله عليه وآله، أأمـر أبي

---

١. أصول الكافي، ج١، ص٥٢٧.

٢. الغدير، ج٦، ص٢١٣، ح٧.

٣. كنز العمال، الحديثان ٤٥٧١٥ و٤٥٧٢٢.

نتّبع أم أمرَ رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: بل أمر رسول الله ﷺ، فقال: لقد صنعها رسول الله ﷺ[١].

بل يتبيّن من كلام آخر للخليفة الثاني أنّه لم يكن يجتهد مقابل النصّ النبويّ وحسب؛ بل كان يتعمّد مواجهة الحكم الإلهي ومعارضته، فعن يحيى بن أكثم أنّه قال لشيخ بالبصرة: بمن اقتديت في جواز المتعة؟ قال: بعمر بن الخطاب، قال: كيف! وعمر كان أشدّ الناس فيها؟ قال: لأنّ الخبر الصحيح أنّه صعد المنبر فقال: إنّ الله ورسوله قد أحلاّ لكم متعتين، وإنّي محرّمهما عليكم وأعاقب عليهما، فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه[٢].

فلا شكّ في حصول الاجتهاد الشخصيّ من الخليفة الثاني، لكنّ علماء العامّة سعوا إلى الاستدلال على النَسخ ببعض الروايات غير المعتبرة عندنا تبرئةً له من وصمة الابتداع في الدين، وهو استدلال ضعيف جدّاً[٣]، بل وينافيه عدد من الروايات الواردة في كتبهم أنفسهم. فعن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله، قالا: تمتّعنا إلى نصف من خلافة عمر حتّى نهى عمر الناس عنها في شأن عمرو بن حريث[٤]. كما أنّ الخليفة الثاني نفسه لم يدّع النسخ، بمعنى انقضاء أجل الحكم

---

١. سنن الترمذي، ج٣، ح٨٢٤.

٢. الغدير، ج٦، ص٢١٢، ح٥.

٣. انظر: الميزان، ج٤، ذيل الآية ٢٤ من سورة النساء.

٤. عمدة القاري في شرح صحيح البخاري. وحكى فيه عن أبي عمر قال: وأمّا الصحابة فإنّهم اختلفوا في نكاح المتعة، فذهب ابن عباس إلى إجازتها وتحليلها لا خلاف عنه في ذلك، وعليه أكثر أصحابه، منهم عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير وطاووس، قال: وروي أيضاً تحليلها وإجازتها عن أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله قالا: تمتّعنا... ح٤٢١٦. وجاء في صحيح مسلم (ج٢، ح١٢١٧) عن أبي نضرة، قال: كان ابن عباس يأمر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى

←

الشرعي، بل يصرّح باستناده إلى ميله الشخصيّ!

ومن هنا كان يقول في تبرير أفعاله: «أنا زميل محمّد»[١]، والزَّمِيل: «العَدِيل الذي حِمْله مع حِمْلك على البَعِير، والزَّميل وهو الرَّديف أيضاً»[٢]؛ لذا يقال لرفيق الدراسة: زميل، وتتضمّن «الزمالة» معنى التساوي في الشأن والقدر. وقد حاول مثل الطبري أن يبرّر كلام الخليفة الثاني هذا بالقول: إنّ مراده أنّه زامله على المركب في غزوة «قرقرة الكدر»؛ لكنّ بعض علماء العامّة[٣] صرّح بأنّ اجتهاد عمر كاجتهاد النبيّ الأكرم ﷺ، وهذا معناه أنّهم يرون للخلفاء شأناً وقدراً يضاهي شأن الرسول ومنزلته، فلا يبعد أن يكون مراد عمر من تلك الكلمة التساوي في الشأنيّة أيضاً.

**ملاحظة**

إنّ متعة الحجّ وإن كانت مثار اختلاف في تفسيرها وقد ذكرت فيها وجوه[٤]؛ إلاّ أنّ المهمّ هنا ثبوت اجتهاد الخليفة الثاني مقابل السنّة النبويّة والأحكام الإلهيّة القطعيّة، ووضع نفسه قُبالة النبيّ الأكرم ومعارضته، وهو اجتهاد لا يلتقي مع شيء من تلك الوجوه في تفسيرها.

* * *

← عنها، قال: فذكرت ذلك لجابر بن عبد الله، فقال: على يديّ دار الحديث، تمتّعنا مع رسول الله ﷺ، فلما قام عمر، قال: إنّ الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء (!!)، وإنّ القرآن قد نزل منازله، فأتمّوا الحجّ والعمرة لله كما أمركم الله، وأبتوا نكاح هذه النساء، فلن أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلاّ رجمته بالحجارة.

١ . تاريخ الأمم والملوك، ط الاستقامة، ج٣، ص٢٩١.

٢ . النهاية، ج٢، مادة «زمل».

٣ . شرح القوشجي على التجريد، ذيل البحوث المتعلقة بالخليفة الثاني.

٤ . انظر: الغدير، ج٦، ص٢١٣.

# وَذُرِّيّة رَسُولِ الله

كلمة «ذريّة» ـ المستعملة في المفرد والجمع على حدّ سواء ـ مشتقّة من المادة «ذرر» بمعنى اللطافة والانتشار؛ لذا يقال للنمل الصغار: «ذرّ»، و «ذرت الشمس ذروراً»، إذا طلعت، وهو ضوء لطيف منتشر[1]، والذريرة أو الذرور نوع من الطيب[2]، سميّ بذلك لانتشاره. و «الذرّ» بمعنى النسل أيضاً[3]، وقيل للنسل: ذريّة لأنّ منشأها ذرّات متناهية في الصغر منتشرة في الأرحام[4].

فكلمة «ذريّة» مستلّة من كلمة «ذُرّة»، والياء فيها للنسبة والتاء للتأنيث، أضيفت إليها باعتبار الكثرة[5]. وبعضهم يجعل الذريّة من ذرأ الله تعالى الخلق، وترك

---

١. معجم مقاييس اللغة، مادة «ذرّ».

٢. المصباح المنير، مادة «ذرّ».

٣. المصدر نفسه.

٤. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٣، مادة «ذرّ».

٥. المصدر نفسه.

همزها للتخفيف[١].

و «الرسول» هو المرسل من الله تعالى، وقد سبق الكلام في معناه اللغويّ[٢].

وعلى هذا الأساس، فمعنى «ذريّة رسول الله» نسله وأبناؤه.

## ذراري الرسالة

إنّ انتقال الكمالات والنقائص البدنيّة بالوراثة أمر مسلّم علميّاً اليوم. والكثير من أمراض الأبوين تنتقل إلى الابن عبر الجينات، كما يرث منهما خصوصيات فرديّة عديدة، مثل اللون والطول ولون العينين وغير ذلك. وليس هذا وحسب، بل إنّ الخصائص الروحيّة والصلاح والفساد تنتقل إيضا إلى النسل، وعلاوة على ذلك فإنّ آثار كلّ فعل وخصلة حميدة ترجع ارتداديّاً إلى صاحبها أو إلى ذراريه وأهله؛ لذا نجد أنّ العالم في أيّ مجال كان علمه وتخصّصه يُحترم هو ومن يمتّ له بصلة وقرابة، كما إنّ آثار وعواقب الأعمال المذمومة للمرء يبوء بها هو ومن تربطه به قرابة نسبيّة أو سببيّة. قال الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الله ليخلف العبد الصالح من بعد موته في أهله وماله، وإن كان أهله أهل السوء، ثمّ قرأ هذه الآية إلى آخرها: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾»[٣].

كما أنّ لشعاع أعمال الإنسان وآثارها امتداداً واسعاً بحيث يصل إلى عدّة أجيال بعيدة من النسل، فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ الله ليحفظ ولد المؤمن إلى ألف سنة، وإنّ الغلامين كان بينهما وبين أبويهما سبعمائة سنة»[٤].

---

١. انظر: المصباح المنير؛ مفردات غريب القرآن، مادة «ذرّ».

٢. انظر الجزء الأول في الكلام حول فقرة «موضع الرسالة».

٣. تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٢٩٠، ح١٩١.

٤. المصدر نفسه، ح١٨٧.

وعنه أيضاً قال: «لمّا أقام العالم الجدار أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «إنّي مجازي الأبناء بسعي الآباء، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، لا تزنوا فتزني نساؤكم، من وطئ فراش امرئ مسلم وُطئ فراشه، كما تدين تدان»[١].

وعن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام مبتدءاً: «من ظلم يتيماً سلّط الله عليه من يظلمه أو على عقبه أو على عقب عقبه»، قال: قلت: هو يظلم فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟ فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً﴾»[٢].

**ملاحظة**

إنّ مَن يُظلم ويُتعدّى عليه إن كان غير خانع للظلم ولا مستكين له، ولم يكن هو الممهّد له، فهو مأجور مثاب، وإن كان هو المتسبّب فيه فليس بمأجور عليه؛ ومن هنا فإنّ النسل الذي يُظلم كنتيجة لظلم سلفه، إن كان غير متسبّب فيما لحقه من شرّ ولا مستكين له فهو مأجور، لكنّ سلفه الظالم ليس بمأجور، وإن صار مظلوماً بما لحق خلفه؛ فصلاح السلف وفساده يوجبان إعزاز الخلف والعقب وإذلاله؛ لذا قالوا: يُكرم الرجل في وِلده.

ولا ريب في أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أشرف مخلوق في الوجود كلّه، وجاء للبشريّة بأكمل دين وأهدى شريعة، وأبلى في هداية المجتمع البشريّ أحسن بلاء وجاهد أعظم جهاد، حتّى لم يعد هناك موجود إلاّ وهو مدين له وواجب عليه تعظيمه وعرفان حقّه؛ لذا قالت ابنته الحبيبة في بثّها لشكواها: «أما كان أبي رسول

---

١ . تفسير نور الثقلين، ج٣، ص٢٩٠، ح١٧٧.

٢ . المصدر نفسه، ج١، ص٤٤٧، ح٧٥.

الله؟ ألا يُحفظ في ولده؟»[١].

وقد أوصى القرآن بمودّة ذي القربى، واعتبرها أجر الرسالة لرسول الله: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٢].

وعلى هذا فإنّ من كمالات الأئمة الأطهار عليهم السلام كونهم من ذريّة رسول الله، وهذا ما تشير إليه الفقرة المذكورة هنا، وقد جاء في الكثير من الزيارات مخاطبة الإمام المزور بعبارة: «السلام عليك يابن رسول الله».

## إشارات

### ١ ـ التمادي في العناد

إنّ نزغة الحرب ومزاولة الغارات عند العرب كانت تزهّدهم في البنات وتبغضّهن في نفوسهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣]، فكان هذا سبباً في نشوء عادة وأد البنات ودفنهنّ أحياء عند بعض القبائل العربيّة. وقد برز هذا الكره لهنّ في أشعارهم وأدبهم، فمن الشعر الجاهلي في ذلك:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا        بنوهنّ أبناءُ الرجال الأباعدِ

وكانت مثل هذه الأشعار متأثّرة بالثقافة السائدة على المجتمع الجاهليّ المتخلّف آنذاك، ومكرّسة لها عبر تأثيرها في الجيل المعاصر وتغذيته بها.

---

١ . بحار الأنوار، ج٤٣، ص٣٥.

٢ . الشورى: ٢٣.

٣ . النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

ولم تفتّ الفرصة على الأمويين، الذين يصنعون من كلّ خشبة راية خلافٍ لأهل البيت عليهم السلام، ويرفعون عقيرتهم في كلّ نغمة عناداً لهم؛ فاستغلّوا مثل هذه الأشعار الجاهليّة للتشكيك في انتساب الإمامين الحسنين لرسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ جاء من بعدهم بنو مروان وبنو العباس ليزيدوا في الطنبور نغمة، خاصّة العباسيين؛ لأنّهم بنو عمّ النبيّ لانحدارهم من نسل العباس بن عبد المطلب. ومن هنا كانوا كثيراً ما ينوّهون بفضلهم أمام الأئمّة عليهم السلام، ويؤكّدون على أنّهم ليسوا بمنأى عن نسب رسول الله صلى الله عليه وآله، بدعوى أنّ الأئمّة ليسوا بأقرب ولا بأولى به صلى الله عليه وآله منهم؛ وربّما استغلّوا ذلك في التفاخر واستمالة عواطف الأئمة عليهم السلام لئلاّ ينهضوا بمخالفتهم والخروج على حكومتهم، بحجّة أنّهم بنو عمومة، وأنّ الخلافة لم تخرج من أسرة النبوّة وأهل الرسالة.

وكان الأئمّة عليهم السلام يقابلون تلك الحيلة بتبيين الحقائق تارةً والردّ على التفاخر بالمثل تارةً أخرى.

روي أنّه لما سار المأمون إلى خراسان وكان معه الرضا عليّ بن موسى عليهما السلام، فبينا هما يسيران إذ قال له المأمون: يا أبا الحسن! إنّي فكّرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه، فكّرت في أمرنا وأمركم ونسبنا ونسبكم؛ فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية، فقال له أبو الحسن عليه السلام: إنّ لهذا الكلام جواباً إن شئتَ ذكرته لك، وإن شئتَ أمسكت، فقال له المأمون: إنّي لم أقله إلاّ لأعلم ما عندك فيه، قال له الرضا عليه السلام: أنشدك الله يا أمير المؤمنين[1] لو أنّ الله بعث نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله فخرج علينا من وراء أكمة من هذه

---

١ . كان أحد الأساتذة يتمعّر وجهه حينما يصل الكلام إلى عبارة «أمير المؤمنين» وتنهمر عيناه بالدموع، ويقول: أمثال هذه الروايات تدلّ على مدى صعوبة الزمن الذي عاشه الأئمّة، بحيث

←

الآكام يخطب إليك ابنتك، كنت مزوّجه إيّاها؟ فقال: يا سبحان الله! وهل يرغب أحد عن رسول الله ﷺ؟! فقال له الرضا عليه السلام: أفتراه كان يحلّ له أن يخطب إليّ؟ قال: فسكت المأمون هنيئة، ثمّ قال: أنتم والله أمسّ برسول الله ﷺ رحماً[1].

وثمّة مناظرة أخرىٰ مشابهة لهذه المناظرة، فقد روي أنّ هارون قال للإمام الكاظم عليه السلام: لِمَ جوّزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلىٰ رسول الله ﷺ ويقولون لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو عليّ، وإنّما يُنسب المرء إلىٰ أبيه، وفاطمة إنّما هي وعاء، والنبيّ ﷺ جدّكم من قبل أمّكم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أنّ النبي ﷺ نُشر فخطب إليك كريمتك؛ هل كنت تجيبه؟ فقال: سبحان الله ولِمَ لا أجيبه؟! بل أفتخر علىٰ العرب والعجم وقريش بذلك، فقلت: لكنّه لا يخطب إلي ولا أزوّجه، فقال: ولِمَ؟ فقلت: لأنّه ولدني ولم يلدك، فقال: أحسنت يا موسىٰ[2].

وروي أنّه لما حجّ الرشيد ونزل في المدينة اجتمع إليه بنو هاشم وبقايا المهاجرين والأنصار ووجوه الناس، وكان في القوم الإمام أبو الحسن موسىٰ بن جعفر صلوات الله عليهما، فقال لهم الرشيد: قوموا بنا إلىٰ زيارة رسول الله، ثمّ نهض معتمداً علىٰ يد أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام، حتّىٰ انتهىٰ إلىٰ قبر رسول الله، فوقف عليه وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا بن عمّ؛ افتخاراً علىٰ قبائل العرب الذين حضروا معه، واستطالةً عليهم بالنسب. قال: فنزع

---

← تضطرّ تلك الذوات المقدّسة المعصومة إلىٰ تلقيب مجرمين كهارون والمأمون باللقب الخاص بالإمام عليّ عليه السلام. قال العلامة المجلسي بعد نقله كتاب الإمام الكاظم عليه السلام إلىٰ الخيزران أمّ الخليفة يعزّيها بموسىٰ ابنها: «انظر إلىٰ شدّة التقيّة في زمانه عليه السلام حتّىٰ أحوجته إلىٰ أن يكتب مثل هذا الكتاب لموت كافر لا يؤمن بيوم الحساب، فهذا يفتح لك من التقيّة كلّ باب». (بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٣٥، ذيل الحديث٧).

١. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٤٢.

٢. المصدر نفسه، ج٤٨، ص١٢٧.

أبو الحسن موسىٰ عليه‌السلام يده من يده، وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه. قال: فتغيّر وجه الرشيد، ثمّ قال: يا أبا الحسن! إنّ هذا لهو الفخر[1].

ولم يدخّر الأمويون والمروانيّون وسعاً في العناد والخبث في هذا السبيل الأسود؛ بغية تحقيق مآربهم المشؤومة. قال الشعبيّ: كنت بواسط وكان يوم أضحىٰ، فحضرت صلاة العيد مع الحجّاج، فخطب خطبة بليغة، فلمّا انصرف جاءني رسوله، فأتيته فوجدته جالساً مستوفزاً[2]، قال: يا شعبيّ! هذا يوم أضحىٰ، وقد أردت أن أضحّي فيه برجل من أهل العراق، وأحببت أن تسمع قوله فتعلم أنّي قد أصبت الرأيَ فيما أفعل به. فقلت: أيّها الأمير! أوَ ترىٰ أن تستنّ بسنّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله، وتضحّي بما أمر أن يضحّىٰ به، وتفعل مثل فعله وتدع ما أردت أن تفعله به في هذا اليوم العظيم إلىٰ غيره؟ فقال: يا شعبيّ! إنّك إذا سمعت ما يقول صوّبت رأيي فيه، لكذبه علىٰ الله وعلىٰ رسوله وإدخاله الشبهة في الإسلام، قلت: أفيرىٰ الأمير أن يعفيني من ذلك؟ قال: لا بدّ منه، ثمّ أمر بنطع فبسط وبالسيّاف فأحضر، وقال: أحضروا الشيخ، فأتوا به، فإذا هو يحيىٰ بن يعمر، فاغتممت غمّاً شديداً، وقلت في نفسي: وأيّ شيء يقوله يحيىٰ ممّا يوجب قتله؟ فقال له الحجّاج: أنت تزعم أنّك زعيم أهل العراق؟ قال يحيىٰ: أنا فقيه من فقهاء أهل العراق. قال: فمن أيّ فقهك زعمت أنّ الحسن والحسين من ذرّيّة رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله؟ قال: ما أنا زاعم ذلك بل قائله بحقّ. قال: وأيّ حقّ قلته؟ قال: بكتاب الله عزّ وجل، فنظر إليّ الحجاج وقال: اسمع ما يقول، فإنّ هذا ممّا لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله عزّ وجلّ أن الحسن والحسين من ذريّة محمّد رسول الله؟ فجعلت أفكّر في ذلك فلم أجد في القرآن شيئاً يدلّ علىٰ ذلك، وفكّر الحجّاج مليّاً ثمّ قال ليحيىٰ: لعلّك

---

١. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٤٣.

٢. أي قعد غير مطمئن وكأنه يتهيأ للوثوب.

تريد قول الله عزّ وجل: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١]، وأنّ رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه عليّ وفاطمة والحسن والحسين؟ قال الشعبي: فكأنّما أهدىٰ إلىٰ قلبي سروراً، وقلت في نفسي: وقد خلص يحيىٰ، وكان الحجّاج حافظاً للقرآن. فقال له يحيىٰ: والله إنّها لحجّة في ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتجّ لما قلت، فاصفرّ وجه الحجّاج وأطرق مليّاً، ثمّ رفع رأسه إلىٰ يحيىٰ وقال له: إن أنت جئت من كتاب الله بغيرها في ذلك فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها فأنا في حلّ من دمك؟ قال: نعم. قال الشعبي: فغمّني قوله: وقلت: أما كان في الذي نزع به الحجّاج ما يحتجّ به يحيىٰ ويرضيه بأنّه قد عرفه وسبقه إليه ويتخلّص منه حتّىٰ ردّ عليه وأفحمه، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه من القول ما يبطل به حجّته لئلاّ يدّعي أنّه قد علم ما قد جهله هو، فقال يحيىٰ للحجاج: قول الله عزّ وجل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ مَن عنىٰ بذلك؟ قال الحجاج: إبراهيم، قال: فداود وسليمان من ذرّيته؟ قال: نعم، قال يحيىٰ: ومَن نصّ الله عليه بعد هذا أنّه من ذرّيته؟ فقرأ الحجاج: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]. قال يحيىٰ: ومَن؟ قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾[٣]. قال يحيىٰ: ومن أين كان عيسىٰ من ذريّة إبراهيم ولا أب له؟ قال: من قِبل أمّه مريم. قال يحيىٰ: فمن أقرب؟ مريم من إبراهيم أمّ فاطمة من محمّد ﷺ؟ وعيسىٰ من إبراهيم، أمّ الحسن والحسين من رسول الله؟ قال الشعبيّ: فكأنّما ألقمه حجراً، فقال: أطلقوه قبّحه الله، وادفعوا إليه عشرة آلاف درهم، لا بارك الله له فيها. ثمّ

---

١. آل عمران: ٦١.

٢. الأنعام: ٨٤.

٣. الأنعام: ٨٥.

أقبل عليّ فقال: قد كان رأيك صواباً ولكنّا أبيناه، ودعا بجزور فنحره، وقام فدعا بالطعام فأكل وأكلنا معه، وما تكلّم بكلمة[١].

وقد جرت بين هارون والإمام الكاظم عليه السلام نظير هذه المناظرة، فقد قال هارون للإمام:

فأنتم تدعون ـ معشر ولد عليّ ـ أنّه لا يسقط عنكم منه [القرآن] شيء ألف ولا واو، إلاّ وتأويله عندكم، واحتججتم بقوله عزّ وجلّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٢]، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم، فقال الإمام: تأذن لي في الجواب؟ قال: هات، فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾[٣]، من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس لعيسى أب، فقال الإمام: إنّما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام، وكذلك أُلحقنا بذراري النبيّ صلى الله عليه وآله من قبل أمّنا فاطمة عليها السلام. أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، فقال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤]، ولم يدّع أحدٌ أنّه أدخل النبيُّ صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلاّ عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فكان تأويل قوله عزّ وجلّ: ﴿أَبْنَاءنَا﴾ الحسن والحسين، ﴿وَنِسَاءنَا﴾ فاطمة، ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ عليّ بن أبي طالب.

---

١. بحار الأنوار، ج٢٥، ص٢٤٣، ح٢٦.

٢. الأنعام: ٣٨.

٣. الأنعام: ٨٤.

٤. آل عمران: ٦١.

إنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ جبرئيل قال يوم أحد: يا محمّد! إنّ هذه لهي المواساة من عليّ، قال: لأنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله، ثمّ قال: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ، فكان كما مدح الله عزّ وجلّ به خليله عليه السلام، إذ يقول: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[1]، إنّا معشر بني عمّك نفتخر بقول جبرئيل إنّه منّا. فقال: أحسنت يا موسى[2].

وحقيقة الحال إنّ تلك الشعارات زائغة عن الصواب، ساهم الحقد الأمويّ والمروانيّ والعباسيّ في خلق أجوائها، وإلاّ فإنّ انتساب الابن لأمّه على حدّ انتسابه لأبيه، ويشهد لهذا تساويهما في كثير من الأحكام، كالإرث ووجوب الطاعة وغير ذلك، فالأمّ وابنها يتوارثان كما يتوارث الأب وابنه، وطاعة الأمّ على ابنها واجبةٌ كطاعة الأب عليه، بل تأكيد الروايات على طاعتها أشدّ، كما أنّ تربية الابن وإعداد الجوّ المناسب لتنشئته معنوياً وأخلاقياً مطلوب منهما على حدّ سواء. أجل؛ هما يختلفان عن بعضهما في بعض الأحكام، ولكنّ ذلك لا يوجد بينهما فرقاً جوهريّاً بلحاظ نسبة الابن إليهما معاً.

يُروى أنّ أبا الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا الجارود! ما يقولون في الحسن والحسين؟ قلت: ينكرون علينا أنّهما ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فبأي شيء احتججتم عليهم؟ قلت: بقول الله في عيسى بن مريم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾[3]، فجعل عيسى من ذريّة إبراهيم، واحتججنا عليهم بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾، قال: فأيّ شيء

١. الأنبياء: ٦٠.

٢. بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

٣. الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥.

قالوا؟ قال: قلت: قالوا: قد يكون ولد البنت من الولد ولا يكون من الصلب. قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: والله يا أبا الجارود لأعطينّكها من كتاب الله آية تسمّي لصلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردّها إلاّ كافر، قال: قلت: جُعلت فداك وأين؟ قال: حيث قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ... وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ﴾[١]، فسلهم يا أبا الجارود: هل يحلّ لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم فكذبوا والله، وإن قالوا: لا، فهما والله ابنا رسول الله لصلبه، وما حُرّمت عليه إلاّ للصلب[٢].

ثمّ لو سلّمنا جدلاً بما جاء في الشعر الجاهليّ، وحكمنا بأنّ أبناء البنات أبناء الرجال الأباعد، وليسوا بأبناء لأجدادهم من أمّهاتهم؛ فهذا لا ينطبق على الحسنين عليهما السلام بالنسبة لجدّهم النبيّ؛ لأنّهما ابنا بنتٍ ليست بالغريبة ولا بالبعيدة عن رسول الله، بل هي نفسه بنصّ آية المباهلة: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾.

وفي الرواية عن الإمام الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ الله تعالى جعل ذريّة كلّ نبي من صلبه، وجعل ذريّتي من صلب عليّ بن أبي طالب مع فاطمة ابنتي»[٣]. وقد نصّ النبيّ بذلك في خطبة الغدير أيضاً[٤]. وحينما عرض النبيّ الأكرم على الزهراء الزواج من الإمام عليّ قالت له: إنّ نساء قريش يعيبونه بكذا وكذا! فقال لها فيما قال: «يا فاطمة! ما بعث الله نبياً إلاّ جعل له ذريّة من صلبه وجعل ذريّتي من صلب عليّ، ولولا عليّ ما كانت لي ذريّة»[٥].

---

١. النساء: ٢٣.

٢. بحار الأنوار، ج٤٣، ص٢٣٢، ح٨.

٣. المصدر نفسه، ج٢٣، ص١٤٤، ح٩٨.

٤. المصدر نفسه، ج٣٧، ص٢١٠. قال فيها: «معاشر الناس! ذريّة كلّ نبيّ من صلبه، وذريّتي من صلب عليّ».

٥. المصدر نفسه، ج٤٣، ص١٠١.

**ملاحظة**

لم يكن استفهام السيدة الزهراء عليها السلام حول كلام نسوة قريش في عليّ شكّاً في فضائله معاذ الله أو تأثّراً بقولهنّ فيه، بل قصدت من نقل كلامهنّ لرسول الله أن يكون الردّ عليهنّ على لسانه الشريف صلى الله عليه وآله؛ لأنّه: ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، ليبيّنَ لهنّ شيءٌ من بحر كمالاته عليه السلام.

**٢ ـ الكمال الاختياريّ والقهريّ**

كثيرة هي الكمالات الحاصلة للإنسان باختياره وإرادته، وما عليه لاكتسابها إلاّ أن يحسن الاختيار ويعزم ويسعى جادّاً؛ إلاّ أنّ هناك كمالات أخرى يحظى بها الإنسان قهراً وبلا اختيار منه، مثل: الولادة في مكان وزمان مباركين، التوّفر على أعضاء وجوارح سليمة من العيوب، التمتّع بنعمة وجود الأبوين والتربّي في أحضانهما، وما شابه ذلك؛ والوقوع في سلسلة ذريّة رسول الله صلى الله عليه وآله من هذه الكمالات.

وهذه وإن عُدّت كمالات، إلاّ أنّها تستتبع مسؤوليّات وواجبات؛ لأنّها نِعمٌ حاصلة بلا تعب وكدّ من جهة؛ ولأنّ في البين شرف أولياء الله من جهةٍ أخرى. قال تعالى مخاطباً زوجات النبيّ: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ[2] يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾[3].

---

١ . النجم: ٣ ـ ٤.

٢ . التعبير بالفاحشة المبيّنة هنا يدلّ على أنّ مضاعفة العذاب بسبب تلويثهنّ شرف ذكر النبيّ.

٣ . الأحزاب: ٣٠ ـ ٣١.

إنّ احترام وتوقير المنتسبين سبباً أو نسباً إلى أولياء الله تعالى وإن كان لازماً؛ لكنّ لا بدّ أن يعلم أولئك المنتسبون بالمسؤوليّة الجسيمة الملقاة عليهم، ويعوا أنّ ثوابهم وعقابهم مضاعَفَين، وعليهم أن يعلموا أنّ هذا الانتساب لا يمثّل كمالاً لهم ولا يكون نافعاً بحالهم إلاّ عند اقترانه بالإيمان والعمل الصالح؛ وإلاّ فإنّ الانتساب وحدَه لا يجديهم نفعاً ولا يخرجهم من مأزق، ولن يتمكّن وليٌّ من أولياء الله أن يشفع شفاعة غير مأذونٍ بها، ولا أن يُدخل أحداً من أهله وصحبه الجنّةَ خفيةً، بل ليس له أن يستغفر للمشركين من أهله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[2]، فهو جواب اعتراض مقدّر، فإبراهيم كان قد وعد آزر ـ وكان يمتّ له بصلة قرابة ـ بأن يستغفر له الله رجاءَ أن يؤمن، قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[3]؛ لكنّه لمّا آيس منه وتبيّن له أنّه عدو لله تبرّأ منه.

ولقد كان النبيّ نوح عليه السلام قلقاً على ابنه غير المؤمن، بعدما تلقّى وعداً من الله بالإنجاء، وجاءه الوحي الإلهي بتحذيره من هذا القلق وأنّه لا يليق بمقام النبوّة: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ

---

١ . التوبة: ١١٣.

٢ . التوبة: ١١٤.

٣ . مريم: ٤٧.

لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]، فتدارك نوحٌ أمره واستعاذ بالله و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

وعليه، فإنّ العمدة في النجاة هو الانتساب الوَلَوي وهو الكمال الحقيقي، لا التولّد المادّيّ والانتساب الظاهريّ، وإن كان للنسب الظاهريّ كماله أيضاً. قال الإمام الصادق عليه السلام: «ولايتي لعليّ بن أبي طالب عليه السلام أحبّ إليّ من ولادتي منه؛ لأنّ ولايتي لعليّ بن أبي طالب فرض، وولادتي منه فضل»[3].

وبهذا يتّضح ما على السادات الكرام ذريّة رسول الله والمتشرّفين بالانتساب إليه صلى الله عليه وآله.

## ۳ ـ أمير المؤمنين ذريّة النبيّ

إنّ الإمام عليّ عليه السلام وإن لم يصدق عليه عنوان ذريّة النبيّ بحسب التبادر والمعنى اللغويّ؛ إلاّ أنّه صادق عليه بحسب المعنى والحقيقة؛ لأنّ كلّ الفضائل المذكورة في هذه الزيارة ـ من بدايتها إلى نهايتها ـ مسوقة لأهل بيت العصمة والطهارة، وأمير المؤمنين عليه السلام سيّدهم وكوكبهم، ومن هو بمثابة نفس النبيّ فهو منه، كما أنّ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله هو أيضاً من عليّ؛ وبهذا فإنّ عليّاً داخل في عنوان «ذريّة رسول الله» بلا ريب.

* * *

١. هود: ٤٥ ـ ٤٦.

٢. هود: ٤٧.

٣. بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢٩٩.

# صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَرَحمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ

كلمة «صلّى» ثلاثيّ مزيد من «صَلَىَ». وذكر بعضهم أنّ لهذا الأصل معنيين: «أحدهما النار وما أشبهها من الحُمّى، والآخر جنسٌ من العبادة»[1]. ولكنّ من لا يقول بالاشتراك اللفظي في القرآن يفرّق بين كلمتى «صَلَوَ» و«صَلَى»، ويقول: إنّ معنى صَلَىَ التقريب والعرض على النار حتّى يكون مشويّاً أو محرّقاً، وأمّا «صَلَوَ» فبمعنى مطلق الثناء والحمد الجميل[2].

وقد قام الفاضل الأديب السيّد على خان الشيرازي، صاحب كتاب «رياض السالكين»، في شرحه للدعاء الثاني من الصحيفة السجّاديّة بتحقيق موسّع لكلمة «صلاة»، وقال بعد نقله عدداً من الأقوال:

«وقال المحقّقون: إنّها لغة بمعنى واحد هو العطف، ثمّ العطف بالنسبة إلى الله تعالى الرحمة اللائقة به، وإلى الملائكة الاستغفار، وإلى الآدميّين دعاء بعضهم

---

١ . معجم مقاييس اللغة، مادّة «صلى».

٢ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٦، ص٣١٦ و٣١٩.

لبعض». ثمّ حكىٰ عن «نتائج الفكر» للسهيلي قوله: «الصلاة كلّها وإن اختلفت معانيها راجعة إلىٰ أصل واحد، فلا تظنّها لفظ اشتراك ولا استعارة»[١].

ويردّ الأستاذ العلامة الطباطبائي علىٰ القائل أنّ الصلوات بمعنىٰ الرحمة بقوله: إنّ عطف الرحمة علىٰ الصلوات في آية: ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، يعطي أنّ الصلاة غير الرحمة بوجه، ويشهد به جمع الصلاة وإفراد الرحمة، كما أنّ آية: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[٢] تفيد ذلك أيضاً؛ لأنّ الرحمةَ فيها في موقع العلّة للصلاة، فنسبة الصلاة إلىٰ الرحمة نسبة المقدّمة إلىٰ ذيها. وفي النتيجة يخلص إلىٰ تقوية القول بأنّ الصلاة بمعنىٰ الانعطاف، فقال: «وهذا يناسب ما قيل في معنىٰ الصلاة: إنّها الانعطاف والميل، فالصلاة من الله سبحانه انعطاف إلىٰ العبد بالرحمة، ومن الملائكة انعطاف إلىٰ الإنسان بالتوسّط في إيصال الرحمة، ومن المؤمنين رجوع ودعاء بالعبوديّة»[٣].

وكلمة «آل» مشتقّة من المادّة «أوّل». والأصل في معنىٰ «أوّل» الرجوع، ويقال لأهل بيت الرجل آله؛ لأنّه إليه مآلُهم وإليهم مآلُه، وهو القائم بحوائجهم وأمور حياتهم، ومآله هو أيضاً إليهم، وآلُ الجَبَلِ أطرافُه ونَواحِيه، وآلُ الخَيْمة: عُمُدُها[٤].

وعليه فمن يؤول إلىٰ أحدٍ نسباً أو ديناً وملّةً فهو آله، مثل آل يعقوب وآل عمران وآل موسىٰ وآل فرعون وآل النبيّ[٥]. فتدخل الأمّة في نطاق الآل مفهوماً،

---

١. رياض السالكين، ج١، شرح الدعاء الثاني.
٢. الأحزاب: ٤٣.
٣. الميزان، ج١، ص٣٦١.
٤. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادّة «أوّل».
٥. انظر: التحقيق، ج١، ص١٦٣، مادة «أوّل».

وإن كان المصداق ليس بسعة المفهوم، بل هناك معايير تؤخذ بالحسبان غير المعنىٰ اللغويّ، سيأتي ذكرها في بحث الإشارات[١]، هذا.

وقد ذكر البعض أنّ الآل مقلوب عن الأهل؛ لأنّه تصغيره أُهيل، وردّ آخر ذلك، بحجّة أنّ تصغيره أُوَيل[٢]. وبقيّة اللغويين يذهبون إلىٰ اختلاف مادّة الاشتقاق فيهما؛ لذا فهم يفرّقون بينهما.

**ملاحظة**

لا يمكن الجزم بأنّ كلمة «أهل» هي أصل «آل» وأنّهما من اشتقاق واحد، وإن وجدت شواهد دالّة علىٰ ترادفهما وتقارب معناهما؛ وذلك لما يلي:

١ ـ اختلاف اللغويين في اشتقاق إحداهما من الأخرىٰ وعدمه.

٢ ـ اختلافهم في تصغير آل، هل هو أُهيل أو أويل؟

٣ ـ تغايرهما فيما يُضاف إليهما، فإنّ كلمة «آل» أضيق دائرةً من «أهل»، إذ إنّها لا تُضاف إلىٰ أمور من قبيل الزمان والمكان واللسان والديانة، فلا يقال: آل هذا الزمان، ولا آل البصرة، ولا آل اللسان العربيّ؛ أمّا الثانية فتضاف وتُستعمل في ذلك كلّه بكثرة، فيقال: أهل الكتاب مثلاً.

٤ ـ اختلافهما الجوهريّ في بعض المصاديق، كما في عَمد الخيمة، والمَعْلم المنصوب في البراري للدلالة والإرشاد، فتسمّىٰ «آل» ولا تسمّىٰ «أهل».

٥ ـ اختلافهما في حيثيّات المضاف المشترك بينهما، كالأسرة والأقارب النَسَبيّين، فإنّ عنوان «أهل» عامّ، وعنوان «الآل» خاصّ بالأسر التاريخيّة ذات الشأن الرفيع ماديّاً أو معنويّاً؛ فلا يُدخلون «آل» علىٰ أسرة مثل الحَرَّاض والحجّام والحمّال وما

---

١ . انظر: الإشارة الرابعة في آتي الإشارات.

٢ . انظر: مفردات غريب القرآن، مادة «آل».

شابه، بل يقولون: أهل الحرّاض[1] وأهل الحجّام[2].

## أفضل التحيّات

إنّ تكريم وإجلال العظماء من التقاليد الطيّبة والعادات الرائجة عند البشر، وهم لا يفرّقون في ذلك بين الحيّ والميت، وتفاوت مراتب الإجلال تؤول إلى أسباب عديدة، منها منزلة ذلك الفرد ومكانته، وثقافة المكرِّمين ووعيهم، وما شابه ذلك؛ وعليه فالتكريم في كلّ ثقافة يوائم تلك الثقافة ويجانس قيم أهلها.

فالمسلمون يطلبون في تكريمهم لعظماء أئمّة الدين والعلماء ونافعي البشريّة المقاماتِ المعنويّة والأجرَ الأخرويّ الكبير لهم؛ وذلك بسبب ثقافتهم التوحيديّة واعتقادهم بالمعاد؛ لذا تراهم يحيّون محيي الشريعة ومعلّمي التوحيد وناشريه ـ وهم محمّد وآل محمّد ـ بأحسن التحيّات وأسناها؛ لأنّ محمّداً وآله هم الأكثر نصيباً في تبليغ الفكر التوحيديّ. على أنّ شعار المسلمين «الصلوات»[3]، وهنّ أحسن تحيّة تحيّي بها الأمّة الإسلاميّة قادتها وأئمّتها، ولهذه الصلوات منفعتان، إذ ينتفع بها المحيُّون والمحيَّون بها، وهذه السنّة الحسنة لها مآل قرآني وروائي، علاوة على كونها دليلاً على وفاء الأمّة وعرفانها إحسان المحسنين؛ لأنّ الرسول الأكرم ﷺ وآله عليهم السلام هم واسطة الفيوض الإلهيّة بما فيها فيوض الصلوات، وبعهدتهم هداية البشريّة.

---

١ . الحُرُض هو الجصّ، والحَرّاض الذي يوقد النار عليه ويعالجه.

٢ . معجم الفروق اللغويّة، ص٦، ٨٤، ٣٥٠، الرقم٣٣٥ و١٤٠٤، ذيل الكلمات: آل، أهل، ذريّة، عترة.

٣ . إنّ الصلاة على رسول الله ﷺ وإن كانت رائجة ومعروفة عند المسلمين كافّة؛ إلاّ أنّ الحثّ على رفع الصوت بها لما في ذلك من بركات وآثار إيجابيّة أكثر ما يكون عند الشيعة، وفي الرواية: «ارفعوا أصواتكم بالصلاة عليّ فإنّها تُذهب بالنفاق» (الكافي، ج٢، ص٤٩٣).

# إشارات

## ١ ـ توصية القرآن بالصلوات

إنّ إحدىٰ مظاهر تكريم الله سبحانه للنبيّ الأكرم ﷺ أنّه تعالىٰ يصلّي عليه وملائكتُه، ويوصي المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١]، وفي هذه الآية فوائد عديدة:

أ. إن لم تكن الصلاة علىٰ النبيّ أحسن العبادات فهي من أحسنها؛ لأنّ سائر العبادات إنّما يأتي بها العبادُ وحسب، أمّا هذه العبادة فهي هديّة للنبيّ مرسلة أوّلاً من الله تعالىٰ ذاته ثمّ من الملائكة؛ فإهداء الصلوات للنبيّ الأكرم اقتداءٌ بالذات الإلهيّة الأقدس وتشبّهٌ بها في العمل.

ب. إنّ الآية بُدئت بجملة اسميّة: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾، والجملة الاسميّة دالّة علىٰ استمرار الفعل ودوام هذا الفيض الخاصّ، كما أنّ الفعل المضارع في قوله تعالىٰ ﴿يُصَلُّونَ﴾ دليل آخر علىٰ هذه الدوام.

ج. إنّ الصياغة الطبيعيّة للآية تقتضي أن يقال: «إنّ الله والملائكة»؛ ولكن أضيف الضمير في «ملائكته» الراجع إلىٰ الله والمبيّن نسبتهم إليه تعالىٰ لمعنيين:

الأول: تعظيم شأن الملائكة بإضافتهم الىٰ الله تعالىٰ؛ فهم ليسوا ملائكة وحسب، بل ملائكة الله سبحانه.

الثاني: تعظيم شأن النبيّ الكريم؛ لأنّ العظيم ـ وهم الملائكة هنا ـ لا يفعلون إلاّ الفعل العظيم الجليل.

---

١. الأحزاب: ٥٦.

د. التعبير بـ ﴿النَّبِيِّ﴾ بدلاً عن «محمّد» أو الأسماء الأخرىٰ له من باب تعليق الحكم علىٰ الوصف، وهو مشعر بالعليّة.

هـ. لا شكّ في أنّ الرسالة مقامٌ أعلىٰ من النبوّة، فإذا ما عظّم الله تعالىٰ وملائكتُه نبوّة النبيّ فإنّ مقام رسالته يجلّ عن الوصف ويعلو علىٰ التعظيم.

وعليه فهذه الآية دليل ضمنيّ علىٰ حرمة إيذاء النبيّ ﷺ المذكورة في الآيتين السابقتين لها: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ الله...﴾[1]؛ بمعنىٰ: إن كان مقام نبوّته معظّماً من قِبل الله تعالىٰ وملائكته فإنّ مقام رسالته ﷺ أرفع من أن يُمسّ بأذىٰ.

و. إنّ نبيّ الإسلام ﷺ هو النبيّ الوحيد المخاطب بـ ﴿النَّبِيِّ﴾ والمعبّر عنه بـ ﴿الرَّسُولُ﴾[2] و﴿بِعَبْدِهِ﴾[3] و﴿عَبْدِنَا﴾[4] بنحوٍ مطلق وبلا قيد؛ أمّا بقيّة الأنبياء فلم يصلوا إلىٰ مقام العبوديّة المطلقة، ولم ينالوا مقام النبوّة والرسالة المطلقتين، فإذا ما ذُكروا بعنوان «عبد أو رسول أو نبيّ» ذُكرت أسماؤهم أو قرينة تعيّن المراد منهم، كما في آية: ﴿عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[5]، و﴿عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[6].

ز. إنّ الله وملائكته يصلّون أيضاً علىٰ المؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾[7]، والنبيّ وإن شملته هذه الصلوات العامّة؛ إلاّ أنّ الآية محلّ البحث دالّة علىٰ صلوات خاصّة من الله وملائكته علىٰ النبيّ، تكريماً استثنائيّاً له؛ علىٰ أنّ الغرض من الصلوات العامّة هو: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، بينما

---

١. الأحزاب: ٥٣.

٢. في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧).

٣. في قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ (الإسراء: ١).

٤. في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣).

٥. ص: ٤١.

٦. ص: ٤٥.

٧. الأحزاب: ٤٣.

الغرض من الصلوات الخاصّة على النبيّ ليس هو ذلك، بل إنزال رحمة خاصّة مع التعظيم والإجلال.

وقد فهم بعضٌ من هذا التفاوت أنّ الرحمة المقرونة بالتعظيم حينما تكون منزلة على النبيّ ستشمل كلّ شيء؛ لأنّ رحمة النبيّ مظهر للرحمة الإلهيّة، فالنبيّ هو مهبط الرحمات ومنبع التجليّات وأفضل المخلوقات[1].

ح. دلّ الجمع بين ﴿صلّوا﴾ و ﴿سلّموا﴾ على عدم كفاية إحداهما عن الأخرى، بل لا بدّ من تحيّته بالصلاة والسلام معاً.

ط. كلمة ﴿تَسْليماً﴾ مصدر يفيد التأكيد، بمعنى: سلّموا على النبيّ تسليماً يليق بشأنه ومقامه. والتأكيد على الصلاة يُفهم من صدر الآية: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، بمعنى أنّه يجب أن تصلّوا عليه كما يصلّي عليه الله تعالى.

ي. احتمل بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ معنيين: التسليم عليه، والتسليم له وطاعته فيما يقول. وعلى الاحتمال الثاني يكون المصدر ﴿تَسْلِيماً﴾ للتأكيد على الطاعة المناسبة لشأن النبيّ[2].

ك. قال البعض: قولنا: «اللّهمّ صلِّ على محمّد» معناه: «عظّمه في الدنيا بإعلاء ذِكره وإظهار دعوته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمّته وتضعيف أجره ومثوبته. وقيل: المعنى لمّا أمر الله سُبحانه بالصلاة عليه، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك، أحَلْناه على الله وقلنا: اللهمّ صلِّ أنت على محمّد؛ لأنّك أعلم بما يليق به»[3].

ل. إنّ هناك فرقاً مهمّاً بين إهداء الصلوات لروح النبيّ الخاتم وأهل بيته

---

١ . حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ج٥، ص٤٨، ذيل الآية محلّ البحث. والنقل بالمعنى عن اللغة الفارسيّة.

٢ . انظر: تفسير أبي السعود، ج٥، ص٤٢٧.

٣ . النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٥٠، مادّة «صلا».

المعصومين وبين التسليم والانقياد في ساحتهم المقدّسة؛ لأنّ إهداء الصلوات ربّما أوهم أنّ للأمّة فيضاً يصل إلى تلك الذوات المقدّسة، لكنّ الطاعة والتسليم لهم ليس فيهما إيهام بذلك.

**إطلالة تنوير على الصلوات**

• إنّ للإنسان الكامل في قوس النزول الكمالات الوجوديّة كلّها متجليّةً في أسماء الله الحسنى؛ لأنّ الله سبحانه علّمها وأعطاها إيّاه.

• حينما يصل إلى قوس الصعود ويجتاز دائرة التكليف والتكامل، يتدرّج حينها في الخلاص من النقص الطبيعيّ ليصل إلى الكمال ما فوق الطبيعيّ.

• إنّ المبدأ الفاعلي والغائي بالذات في مراحل الترقيّ كلّها هو الله تعالى لا غير؛ إلاّ أنّ الملائك المدبّرة، المنوط بها التعليم (جبرئيل عليه السلام) والإحياء (اسرافيل عليه السلام) والرزق (ميكائيل عليه السلام) والتوفّي (عزرائيل عليه السلام) وأمثالهم؛ جميعهم يستلهمون ويتعلّمون من مسجودهم العالم والمنبئ بأسماء الله الحسنى، بمعنى أنّ الفيض الإلهيّ الخاصّ يفيض من باطن الإنسان الكامل ليصل إلى عالمه الطبيعيّ، وبذلك تتهيّأ له فرصة الرجوع إلى واقع حقيقته وباطنه.

• إنّ الأمّة التي توّفق للصلاة على النبيّ مثلها مثل البستانيّ الذي يقتطف من حديقة المالك باقةً من الزهور ليهديها له، فالبستانيّ وإن تقرّب إلى صاحب الحديقة بهذا الإهداء وأظهر به الأدب له؛ لكنّه في الحقيقة لم يعطه شيئاً لم يكن يملكه، وإن كان ظاهر الحال أنّ صاحبها حصل على ما لم يكن عنده.

• نلاحظ في هذا المثال والممثّل أنّ الأمّة والبستانيّ ليسا واسطة فيضٍ في حقيقة الأمر، وإن نالا بذلك كمالاً بوصول فيض جديد إلى أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ لأنّ المبدأ الفاعليّ لذلك هو الله دون غيره. فصاحب الحديقة وإن حظي بباقة الزهور

بلحاظ الملك الاعتباريّ؛ إلاّ أنّ البستانيّ ليس هو واسطة الفيض بحيث يكون واقعاً في سلسلة العلل الفاعليّة؛ فلا يُتوهّم كونه أعلىٰ رتبةً من صاحب الحديقة، أو كون المصلّي أعلىٰ مقاماً من الإنسان الكامل.

## ٢ ـ الصلوات في الروايات[١]

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من صلّىٰ عليّ صلاةً صلّىٰ الله عليه بها عشراً وحطّ عنه عشر خطيئات»[٢].

وقال: «من صلّىٰ عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يصلّون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[٣].

وفي مقابل هذا الترغيب في الصلاة علىٰ النبيّ، وردت روايات تذمّ التارك لها والمستخفّ بها؛ فقد روي عنه ﷺ أنّه قال: «لا يرىٰ وجهي ثلاثة أقوام: أحدها العاقّ لوالديه، والثاني تارك سنّتي، والثالث مَن ذكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ»[٤]. وفي رواية أخرىٰ: «مَن ذُكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ فدخل النار فأبعده الله»[٥].

ولذا قال بعض علماء أهل السنّة: تجب الصلاة علىٰ النبيّ كلّما ذُكر اسمه[٦].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: إنّ النبيّ ﷺ رقي المنبر، فلمّا رقي

١ . قد وردت في جوامعنا الحديثيّة روايات عالية المضامين في الصلاة علىٰ النبيّ وآله ﷺ (انظر: أصول الكافي، ج٢، باب الصلاة علىٰ النبيّ وأهل بيته)؛ لكنّنا آثرنا في هذا البحث أن ننقل من كتب أهل السنّة ما دلّ علىٰ الترغيب في ذلك والتحذير من تركه.

٢ . الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٥١، ذيل الآية ٥٦ من سورة الأحزاب.

٣ . صحيح مسلم، ج٢، باب الصلاة علىٰ النبيّ ﷺ بعد التشهّد.

٤ . تفسير روح البيان، ج٧، ص٢٢٧.

٥ . تفسير غرائب القرآن، ج٥، ص٢٧٥، نقلاً عن سنن الترمذي ومسند أحمد.

٦ . المصدر نفسه.

الدرجة الأولىٰ قال: آمين، ثمّ رقي الثانية فقال: آمين، ثمّ رقي الثالثة فقال: آمين. فقالوا: يا رسول الله! سمعناك تقول: آمين ثلاث مرّات؟ قال: لّما رقيتُ الدرجة الأولىٰ جاءني جبريل فقال: شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يُغفر له، فقلت: آمين. ثمّ قال: شقي عبد أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنّة، فقلت: آمين. ثمّ قال: شقي عبد ذُكرتَ عنده ولم يصلّ عليك، فقلت: آمين[١].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم ثمّ تفرّقوا عن غير ذكر الله، وصلاة علىٰ النبيّ ﷺ إلاّ قاموا عن أنتن جيفة»[٢].

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت قول الله: ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النبّي﴾؟ فقال: «إنّ هذا لمن المكتوم، ولولا أنّكم سألتموني عنه ما أخبرتكم! إنّ الله وكّل بي ملكين؛ لا أُذكر عند عبد مسلم فيصلّي عليَّ إلاّ قال ذانك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين. ولا أُذكر عند عبد مسلم فلا يصلّي عليّ إلاّ قال ذلك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته لذينك الملكين: آمين»[٣].

وورد في بعض الروايات: «أنّ من كانت له إلىٰ الله عزّ وجلّ حاجة فليبدأ بالصلاة علىٰ محمّد وآله، ثمّ يسأل حاجته، ثمّ يختم بالصلاة علىٰ محمّد وآل محمد، فإنّ الله عزّ وجلّ أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة علىٰ محمّد وآل محمّد لا تُحجب عنه»[٤].

---

١. الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٥١.

٢. المصدر نفسه، ص٦٥٣.

٣. المصدر نفسه، ص٦٥٢.

٤. الكافي، ج٢، ص٤٩٤؛ نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١. وورد نظير هذا قولاً لأبي سليمان الداراني، انظر: تفسير القرطبي، ج١٤، ص٢١٣، ذيل الآية٥٦ من سورة الأحزاب.

وفي رواية أنّ: «الدعاء محجوب حتّىٰ يصلّي علىٰ محمّد وأهل بيته، اللهمّ صلّ علىٰ محمّد وآله»[١].

شعر:

بلا مشايعة الصلاة عليه... لن يُجاب أيّ دعاء[٢]

واستناداً إلىٰ هذه الروايات والآية ٥٦ من سورة الأحزاب، أوجب كثيرٌ من علماء العامّة الصلاة عليه في تشهّد الصلاة[٣]، وقد نظم الشافعيّ هذه الفتوىٰ في أبيات معروفة[٤].

والجدير بالذكر أنّ القرطبيّ نقل عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أنّه قال: «لو صلّيتُ صلاة لم أصلّ فيها علىٰ النبيّ ﷺ ولا علىٰ أهل بيته لرأيت أنّها لا تتمّ»[٥].

## ٣ ـ الصلاة البتراء

روىٰ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، قال: أتىٰ رجل النبي ﷺ فقال: سمعت الله يقول: ﴿**إنّ اللهَ وَملائكتَهُ يُصلّونَ عَلى النَّبيّ**﴾ فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللهمّ صلّ علىٰ محمّد وعلىٰ آل محمّد، كما صلّيت علىٰ إبراهيم إنّك حميد

---

١ . ينابيع المودّة، ج٢، ص٤٣٤؛ وانظر: أصول الكافي، ج٢، ص٤٩١.

٢ . بيت بالفارسية هذا نصّه:

بي بدرقه درود او هيچ دعا البته به منزل اجابت نرسد

٣ . ذكر ذلك أكثر مفسّريهم في تفسير الآية المذكورة، انظر: تفسير القرطبي، ج١٤، المسألة الخامسة، في بحث الآية.

٤ . ستأتي أبياته بعد قليل.

٥ . تفسير القرطبي، ج١٤، ص٢١٤. أقول: القرطبي نقلها عن الدارقطني، وهي في سننه؛ لكنّها عن محمّد بن عليّ (الإمام الباقر عليه السلام) عن أبي مسعود الأنصاري.

مجيد، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد»[١].

وقد أورد جلال الدين السيوطي عدداً من الروايات، جاء فيها أنّ النبيّ الأكرم ذكر الصلاة على الآل حينما علّمهم كيفيّة الصلاة عليه، وقد نقل مفسّرو العامّة ومحدّثوهم تلك الروايات، بل ورد في بعض الروايات أنّ النبيّ سمّى الصلاة الخالية من ذكر الآل «البتراء»؛ فقد نقل العالم السنّي الكبير ابن حجر العسقلاني عن النبيّ أنّه قال: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: صلّ على محمّد وتمسكون، بل قولوا: اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمد»[٢].

ومن شعر الشافعي، وهو أحد أئمّة العامّة الأربعة:

يا أهل بيت رسول الله حبّكمُ ... فرضٌ من الله في القرآن أنزله
كفاكمُ من عظيم الفخر أنّكم ... من لم يصلّ عليكم لا صلاةَ له[٣]

**ملاحظة**

المثير للعجب أنّ مفسّري العامّة ومحدّثيهم حينما يصلّون على النبيّ ﷺ في كتبهم الروائيّة والتفسيريّة يصلّون عليه بالصلاة الناقصة غالباً، أي بصيغة «صلّى الله عليه وسلّم»، ولا يذكرون الآل معه ﷺ؛ فقال السيوطي في معنى آية: ﴿يا أيها الذين ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ في تفسير الجلالين: أي قولوا: اللهمّ صلِّ على سيّدنا محمّد وسلِّم.اهـ فلم يذكر الآل.

وقيل للشافعي: إنّ أناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت، وإذا سمعوا أحداً يذكرها قالوا: هذا رافضيّ، وأخذوا في حديث آخر. فأنشأ يقول:

---

١. الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٤٨؛ السنن الكبرى للبيهقي، ح٢٩٦٢.

٢. ينابيع المودة، ج٢، ص٤٣٤، نقلاً من الصواعق المحرقة، ب١١، الفصل الأول، ص١٤٧.

٣. المصدر نفسه، ص٤٣٤.

إذا ذكروا عليّاً أو بنيه تشاغل بالروايات العليّة
وقال: تجاوزوا يا قوم هذا فهذا من حديث الرافضيّة
برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حبّ الفاطميّة
على آل الرسول صلاة ربّي ولعنته لتلك الجاهليّة[1]

## ٤ ـ مصاديق آل محمد

### أ. القدر المتيقّن

سبق القول إنّ لكلمة «آل» معنى عام، بحيث يسع حتّى الأمّة، كما في آل عمران وآل فرعون. وينبغي الآن معرفة مَن هم آل محمّد الذين لا تتمّ الصلاة إلاّ بدخولهم فيها وإلاّ كانت مبتورةً.

بدايةً لا بدّ من التذكير بأنّ الفرق الإسلاميّة كافّة متّفقة على دخول الإمام عليّ والسيّدة فاطمة والحسنين في هذا العنوان، حتّى أنّ إمام المشكّكين الرازي قال في تفسير آية: ﴿قل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[2]، بعد نقله الحديث المعروف بـ«حبّ آل محمد» عن تفسير الزمخشري: «آل محمّد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولا شكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف الناس في الآل؛ فقيل: هم الأقارب وقيل: هم أمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمّة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل، وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه».

---

١ . حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص٣٧٣.

٢ . الشورى: ٢٣.

وروىٰ عن الزمخشريّ في «الكشاف» أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله! من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ فقال: «عليّ وفاطمة وابناهما». ثمّ ذكر ثلاثة أدلّة علىٰ وجوب تعظيمهم بخصوصهم[1].

فالقدر المتيقّن من مصاديق هذا العنوان هؤلاء الأربعة، ودخول غيرهم فيه محلّ كلام وبحث.

**ب ـ شمول الآل للأمّة**

جاء في روايات العامّة أنّ رهطاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله! كيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: «اللهمّ صلّ علىٰ محمّد وآل محمد، كما صلّيت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم. فقال فتىٰ من الأنصار: يا رسول الله! من آل محمّد؟ قال: كلّ مؤمن»[2].

وقد فهم بعضهم من هذه الرواية أنّ الآل بمعنىٰ الأمّة، وقال: «وأمّا الصلاة علىٰ غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعاً وتكره استقلالاً؛ لأنّه في العرف شعار ذكر الرسل، ولذلك كره أن يقال: «محمّد عزّ وجلّ»، مع كونه عزيزاً جليلاً»[3].

ويجب الالتفات إلىٰ أنّ صدر الحديث المرويّ في الدرّ المنثور مقبول، لكنّ ذيله مردود؛ لأنّه لا يمكن القول: إنّ النبيّ ﷺ وصّىٰ باشراك أمّته في الصلاة عليه؛ لأنّ محض الإقرار اللسانيّ بالشهادتين (وحدانيّة الله ورسالة النبيّ) لا يوجبان الجنّة، فلا مجال لدعوىٰ أنّ الأمّة الإسلاميّة بفرقها المختلفة ودرجات آحادها المتفاوتة في الإيمان والعمل من أهل الجنّة، بل لا محيص من كون بعضها من أهل

١ . التفسير الكبير، ج٢٧، ص١٦٧.

٢ . الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٥١.

٣ . تفسير أبي السعود، ج٥، ص٤٢٨؛ وانظر: تفسير روح المعاني، ج٢٢، ص١٢١، وغيرهما من التفاسير.

النار؛ لما فيهم من النقص في دينهم والتفريط فيه، فكيف يجوز على هذا إشراك كلّ الأمّة في التحيّة الخاصّة بالنبيّ الأكرم ﷺ وإنزالها منزلته؟![1]

فعلى مدّعي هذه الدعوى ومنزل الرسول الأكرم ﷺ منزلة الجهنّميين الاستغفار.

والحاصل: إنّ دائرة الآل مصداقاً ليست بسعة دائرتها مفهوماً، ولا يمكن بحال دعوى أنّ كلّ مؤمن من الآل، بل إنّ دخول أصحاب النبيّ وأزواجه في عنوان «آل محمّد» محلّ شكّ وكلام طويل، فمن باب أولى أن يكون دخول الأمّة فيه أشدّ شكّاً.

### ج ـ دخول أزواجه وصحبه

روى العامّة أيضاً أنّهم قالوا: يا رسول الله! كيف نصلّي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهمّ صلّ على محمّد وأزواجه وذريّته، كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمّد وأزواجه وذريّته، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد»[2].

فيدخل بهذه الرواية وما ماثلها زوجات النبيّ وذريّته في الصلاة عليه، وقد أدخل بعضُهم فيها أيضاً أصحابه ﷺ كافّة، ولم يستثن من هذه الطوائف الثلاث (الذريّة والزوجات والأصحاب) أحداً، هذا.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الزوجيّة وحدَها وكذا البنوّة والصحبة ليست كافيةً للدخول في عنوان «آل النبيّ»، بل لا بدّ من توفّر أمور أخرى؛ من هنا أخرج القرآن امرأة لوط من آله، ففي آية: ﴿إِلَّآ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ تصريحٌ بأنّ الله نجّى آل لوط، وفي آية: ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

---

١. هذا الدليل مفاد رواية مروية عن الإمام الصادق عليه السلام، رواها النعمان في دعائم الإسلام، ج١، ص٢٩.

٢. الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٤٩.

مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[١] تصريح بعدم نجاة امرأته. وكذا الحال بالنسبة لآل فرعون، حيث قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٢] لكنّ زوجة فرعون ـ وهي أسوة للمؤمنين[٣] ـ ليست من الداخلين. وقد دلّ إخراج ابن نوح وزوجته من دائرة أهل نوح في آية: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٤] على أنّ التولّد الصُلبيّ وحدَه ليس كافياً أيضاً للدخول في عنوان الآل.

كما يجدر هنا الالتفات إلى الاحترام الخاصّ الذي يكنّه أهل السنّة لعائشة، احترام لا تحظى برتبته واحدةٌ من بقيّة أزواج رسول الله ﷺ، والغرض الأساس من ذلك إدخالها في عنوان «آل محمّد».

إنّ التحقيق في سيرة أزواج النبيّ الأكرم ﷺ ومعرفة مدى مطابقتها مع الآيات المبيّنة لما يجب أن يكنّ عليه، والتحقيق في سيرة مَن فازوا بفخر صحبته؛ يعين في تبيّن حالهم في هذا المجال.

### د ـ حرب الجمل شجى في الحلق

سفكت حرب الجمل دماء الآلاف بسبب طلب الترؤّس ونكث البيعة ومخالفة صريح القرآن بقرار زوجات النبيّ في بيوتهنّ[٥]، وهذه الحرب علاوة على أنّها عار أسود في تاريخ الإسلام ووصمة خزي على الجبين، وشجى في حلق بعض كبار الشخصيّات في صدر الإسلام، هي حربٌ مدمّرة وكارثيّة، ذهب فيها ضحيّة الزيغ

---

١. هود: ٨١.

٢. غافر: ٤٦.

٣. انظر: التحريم: ١١.

٤. هود: ٤٦.

٥. في آية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣)، والخطاب موجّه لنساء النبيّ.

ومجانبة الحقّ الوجودُ المعنويّ والمفاخرُ والسوابق اللامعة لهم.

وكانت هذه الحرب من الشنعة أن أذاقت المسلمين المرارة وجرّعتهم الألم على مرّ الأزمان، ولم ينفع التعلّل باجتهاد الصحابة أو دعوى توبتهم بعد الحرب في تبرير ذنب هتك حرمة حريم رسول الله ﷺ بإخراج زوجه من بيتها، والطواف بها في الأقطار وتعريضها للنظّار، ولم ينجع ذلك في تسويغ نكث البيعة في بصرة العراق بعد عقدها في مدينة الحجاز، وظلم الوليّ المنصوب بغدير خمّ وسلّ السيف في وجهه وتأليب الناس عليه[1]؛ ذلك أنّ من شرط توبة التائب إصلاح ما أفسد وبيان الحقّ. قال تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ**﴾[2]، كما أنّ من شرط الاجتهاد انتهاج الطريق الصحيحة في الاستنباط، ومخالفة الهوى ووسوسة النفس، والجدّ الصادق في سبيل تبيّن الحقيقة.

وكيف يُقال: إنّ كلا فريقي حرب يوم الجمل كانا مثابين ومصيبين في اجتهادهما؟! وقد توعّد أحدهما الآخر بعذاب النار، وحذّره من العار والشنار! وقال: «... فارجعا أيّها الشيخان عن رأيكما، فإنّ الآن أعظم أمركما العار، من قبل أن يتجمّع العار والنار»[3].

فلا مجال للاستدلال بإطلاق مثل حديث: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[4]؛ إذ كيف يصحّ القول: إنّ تشكّي الإمام عليّ في نهج البلاغة من موقدي نار حروب الجمل وصفّين والنهروان حقٌّ، ومع ذلك فإنّ كلا فريقي تلك الحروب هداةٌ مهديّين؟!

---

١ . انظر: نهج البلاغة، الخطبة ١٣٧.

٢ . البقرة: ١٦٠؛ وانظر كذلك: آل عمران: ٨٩؛ النساء: ١٤٦؛ النحل: ١١٩؛ النور: ٥.

٣ . نهج البلاغة، الكتاب ٥٤.

٤ . الطبقات الكبرى، ج٦، ص٥٤.

هـ ـ الندم المحرق

إنّ تمنّي أمّ المؤمنين عائشة أن تكون مدرةً أو شجرةً، وقولها: «والله لوددت أنّ الله لم يكن خلقني شيئاً قطّ»[١]. وقولها: «إنّ يوم الجمل معترض في حلقي، ليتني متّ قبله أو كنت نسياً منسيّاً»[٢]، وخوفها وبكاؤها حين تلاوت الآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيوتِكُنَّ﴾ حتّى تبلّ خمارها[٣]، كلّ ذلك حاكٍ عن سوء استفادتها من عنوان «أمّ المؤمنين»، حتّى أنّها قالت في وفاتها: «إنّي قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ، فادفنوني مع أزواج النبيّ ﷺ»[٤]. قال عالم أهل السنّة الكبير الذهبيّ: تعني بالحدث مسيرها يوم الجمل[٥].

وعليه فإنّ الصحابة الذين باؤوا بالعار ولم يرجعوا عمّا صنعوه من محاربة الإمام عليّ خارجون من زمرة آل محمّد، بل إنّ دخول أمّ المؤمنين عائشة فيها مشكوك فيه ومحلّ تردّد.

ملاحظة

لسنا هنا بصدد تبيين عاقبة أعمال أمّ المؤمنين وبقيّة موقدي نار حرب الجمل، فإنّ ذلك بعهدة الكرام الكاتبين والعزيز المنتقم، بل بصدد القول: إنّ شمول عنوان «آل محمّد» لأزواج النبيّ وأصحابه، وعلى الأقل لبعضهنّ وبعضهم، أمرٌ مشكوك فيه.

---

١ . الطبقات الكبرى، ج٦، ص٥٤.

٢ . بلاغات النساء.

٣ . الطبقات الكبرى، ج٦، ص٥٩.

٤ . المصدر نفسه، ص٥٤؛ العقد الفريد، ج٤، ص٣٠٥.

٥ . أعلام النبلاء، في ترجمة عائشة.

**و ـ أمنية أمّ سلمة**

مضافاً إلىٰ سابق القول، فإنّ عنوان «آل محمّد» مصداقاً مساوٍ لعنوان «أهل البيت»، وإن كان هذان العنوانان متباينين مفهوماً.

في حديث الكساء المعروف، أخرج النبيّ الأكرم ﷺ أزواجه من عنوان «الأهل» ولم يدخلهنّ فيه، وأشار إلىٰ فاطمة وبعلها وابنيها وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي».

وكانت أمّ سلمة حاضرةً حينما جلّل عليهم كساءً، فتمنّت أن تكون معهم، قالت: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال: «إنّكِ علىٰ خير»[1]. ولمّا سألت: يا رسول الله! أنا من أهل البيت؟ قال لها: أنتِ من صالحي نسائي. قالت: فلو كان قال: «نعم» كان أحبّ إليّ ممّا تطلع الشمس وتغرب[2].

وعن عائشة، أنّها قالت: فدنوت منهم فقلت: يا رسول الله! وأنا من أهل بيتك؟ فقال: «تنحّي فإنّك علىٰ خير»[3]. فإن لم تدخل عائشة وأمّ سلمة في هذا العنوان، فالحكم في بقيّة أزواج النبيّ واضح.

وعليه فإنّ المناط في الدخول في زمرة «آل محمّد» واستحقاق الصلاة هو الجدارة الروحيّة، ولا بدّ في تبيّن المصاديق الحقيقيّة لآل محمد وفهم الروايات الواردة في هذه المسألة من التعرّف علىٰ طبيعة هذه الجدارة واستجلاء حقيقتها، وكلّما ازداد الشخص جدارةً كان التناسب الروحيّ مع الآل أشدّ وأوثق، وكان انطباق مفهومه علىٰ المصداق أوضح. وإذا ما شككنا في الانطباق والشمول لعدم اليقين بوجود تلك الجدارة الروحيّة وجب الاقتصار علىٰ القدر المتيّقن؛ لاحتياج إدخال أيّ مصداق في مفهوم «آل محمّد» إلىٰ يقين بتوفّره علىٰ المقوّمات المصحّحة لذلك، ففي

---

١ . الدرّ المنثور، ج٦، ص٦٠٢، ذيل الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

٢ . شواهد التنزيل، ج٢، ح٧٦٤.

٣ . تفسير ابن كثير، في تفسير آية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ ...﴾.

المصاديق التي لا تُحرز فيها تلك المقوّمات لا يمكن دعوىٰ الشمول؛ لمكان الشكّ، كما لا يمكن دعوىٰ اليقين بعدم الشمول أيضاً؛ لأنّ عدم الشمول بحاجةٍ إلىٰ دليل.

وكيف كان؛ فإنّ إجراء الأحكام الخاصّة بالآل علىٰ مصداقٍ ما بحاجةٍ إلىٰ يقين بدخوله، فلا يمكن بحال إدخال كلّ أولاد النبيّ ﷺ لصلبه وكافّة أزواجه وأصحابه في عنوان الآل.

### ز ـ الجدارة والأهليّة

إنّ الأهليّة عنصر أساس، والشيعة ترىٰ أنّ «آل محمّد» هم المسانخون لرسول الله سنخيّة تامّة، وبما أنّه ﷺ معصومٌ فلا تكتمل السنخيّة إلاّ بملكة العصمة. وتستدلّ الشيعة علىٰ ما تعتقد به من عصمة أمير المؤمنين وفاطمة والحسنين، الذين جلّلهم النبيّ الأكرم معه ﷺ بالكساء وباهل بهم، بآية التطهير[1] وأدلّةٌ أخرىٰ، ولم تدّع فرقةٌ إسلاميّة أخرىٰ العصمة لأحد، فدخول هؤلاء الأربعة في عنوان «آل محمّد» قدر متيّقن ولا شكّ فيه، وقد اعترف بذلك الفخر الرازي أيضاً[2].

وروىٰ العالم السنّي الكبير الحاكم الحسكاني، عن أُمّ سلمة، قالت: إنّ النبي ﷺ قال لفاطمة: ائتيني بزوجك وابنيك، فجاءت بهم فألقىٰ عليهم كساءً فدكياً، ثمّ وضع يده عليهم وقال: «اللهمّ إنّ هؤلاء آل محمّد، فاجعل صلواتك وبركاتك علىٰ محمّد وآل محمّد إنّك حميد مجيد...»[3].

---

١ . ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

٢ . نقلنا كلامه قبل قليل تحت عنوان «مصاديق آل محمّد»، فراجع.

٣ . شواهد التنزيل، ج٢، ح٧٤٧ و٧٥٢. وجاء في بعض الروايات التعبير عنهم بـ «أهل بيتي ـ عترتي ـ حامّتي ـ خاصّتي» وما شابه، وكان ﷺ في كلّ ذلك يدعو لهم بالدعاء نفسه، والجمع بين معاني تلك العناوين ممكن؛ لكون الروايات كلّها إثباتيّة، فمن الممكن أنّ النبيّ ﷺ عبّر عنهم بتلك العناوين كلّها؛ لكن أم سلمة أو الرواة الآخرون يحكون في كلّ نقل أحد تلك العناوين.

وهذه الرواية تدلّ منطوقاً وصريحاً على مصاديق آل محمّد، وتدلّ عليهم مفهوماً وبالقرينة أيضاً؛ للمماثلة اللفظيّة بين الصلوات فيها والصلوات الواردة في روايات التوصية بالصلاة على آل محمّد[١].

ح ـ المعصومون الأربعة عشر

تعتقد الشيعة أنّ العصمة غير مقصورة على الخمسة الأطهار؛ لوجود أدلّة الأخرى تثبت عصمة تسعة أئمّة آخرين من ذريّة الإمام الحسين عليه السلام. فهناك ثلاثة عشر معصوماً، (إثنا عشر إماماً والسيدة الزهراء) مسانخون روحيّاً لأول معصوم، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله. وبالتالي فإن كان لعنوان «آل محمّد» المقدّس مصاديق خارجيّة ـ وهو كذلك قطعاً وإلاّ لزم لغويّته عن الصلاة البتراء ـ فليست هي سوى عليّ والزهراء وأبنائهما الأحد عشر المعصومين؛ ولكن يبقى شموله لبعض عظماء أسرة العصمة والطهارة كزينب الكبرى محتملاً أيضاً.

ملاحظة

يبدو أنّ أهل السنّة لا يطلقون عنوان «آل محمّد» على غير المعصومين الثلاثة عشر؛ ولذا إمّا أنّهم لا يذكرون «الآل» في صلاتهم على النبيّ، أو أنّهم يذكرونهم بعد

---

١ . لعلّ مراد سماحة المؤلف بروايات التوصية ما ورد في صيغة الصلاة على محمّد وآله، وهي: «اللّهُمّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كما صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ إِنَّكَ حميدٌ مجيدٌ، وَبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَما بارَكْتَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ إِنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ، وَتَرَحَّمْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍكَما تَرَحَّمْتَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ إِنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ، وَتحَنَّنْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَما تَحَنَّنْتَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ إِنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ، وَسَلِّمْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَما سَلَّمْتَ عَلَىٰ إِبْراهيمَ وَآلِ إبراهيمَ إِنَّكَ حَميدٌ مجيدٌ». (معجم الحافظ علي بن الحسين، المعروف بابن عساكر، ح(١٠٢٥)، تحقيق الدكتورة وفاء تقي الدين، دار البشائر، دمشق؛ مناقب الأسد الغالب، ابن الجزري شمس الدين محمّد بن محمّد، تحقيق طارق الطنطاوي، نشر: مكتبة القرآن، مصر ـ القاهرة). فإنّ ألفاظ وصيغة الصلوات في الروايتين متماثلة أو تكاد. (المعرّب).

أن يضيفوا إليهم «أزواجه وصحبه» وما شابه.

## ٥ـ الثمرة الحقيقيّة للصلوات

قد يقال: إنّ صلوات الأمّة على النبيّ بمعنى طلب الرحمة والدعاء بمقام أعلى له ﷺ؛ ولكن بما أنّ آية: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، لم تقيّد الصلوات الإلهيّة بدعاء العباد ومسألتهم للنبيّ؛ فما الحاجة حينئذٍ لصلواتهم؟ أما في صلوات الله غنى وكفاية؟

والجواب:

أولاً: إنّ ثمرة تلك الصلوات والدعوات تعود بالنفع على الأمّة نفسها؛ لأنّ كلّ صلاة على النبيّ مدعاة لتعالي مقامه ورفعة درجته، وكلّما علا شأنه علا شأن أمّته، وكلّما ازداد فيضاً من خاصّ رحمة الله كان لأمّته نصيب منها.

شعر:

أنا أصلّي عليك لتزداد قرباً...

لأنّه إذا قرب الكلُّ قربت سائر الأجزاء[١]

إنّ منزلة النبيّ في الأمّة كمنزلة الأب في الأسرة[٢]، وكلّما كان الأب الحنون

---

١ . بيت بالفارسية نصّه:

صلوات بر تو آرم كه فزوده باد قربت چه، به قُرب كلّ بگردد همه جزءها مقرّب

٢ . قال النبيّ الأكرم ﷺ: «أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة». (بحار الأنوار، ج٣٦، ص١١)، وفي بعض الروايات: «... ولحقُّنا عليهم أعظم من حقّ أبوي ولادتهم، فإنّنا ننقذهم إن أطاعونا من النار إلى دار القرار، ونلحقهم من العبودية بخيار الأحرار». وقد نقل العلامة المجلسي روايات في هذا المعنى عن أكثر من إمام، (انظر: بحار الأنوار، ج٢٣، ص٢٥٩)، وقال في معناها: «والرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام أبوا هذه الأمّة لصيرورتهما سبباً لوجود كلّ شيء وعلّة غائية لجميع الموجودات... وأيضاً صارا سببين للحياة المعنوية الأبديّة بالعلم والإيمان لجميع المؤمنين، ولا نسبة لهذه الحياة بالحياة الفانية الدنيويّة، وبهذا السبب صار المؤمنون إخوة». (بحار الأنوار، ج٧١، ص١١٦).

الشفيق أقدر وأثرىٰ انتفع منه أبناؤه انتفاعاً أكبر؛ لذا يسعىٰ الأبناء المدركون لهذا المعنىٰ إلىٰ تقوية قدرات الأب، وتفعيل طاقاته لينتفعوا منها بقدر أكبر، فطلب الأمّة المزيد من الرحمة والفيوض الخاصّة لنبيّها يعود عليها بالنفع الكثير؛ لتجلّي تلك الفيوض والرحمات الخاصّة في الدنيا والآخرة وظهورها في الشفاعة وأمثالها[1].

**ملاحظة**

سبق القول أنّ صلواتنا علىٰ النبيّ وآله ليست بمعنىٰ وساطتنا بين الله تعالىٰ وبين تلك الذوات النورانيّة في الفيض؛ لأنّهم واسطة كلّ الفيوض، بما في ذلك الفيوض الحاصلة بصلواتنا[2].

ثانياً: إنّ هذه الصلوات تعكس روح عرفان الجميل وسمة تقدير الجهود؛ لأنّ الأمّة المنتفعة من فيوض وساطة ذلك النبيّ، والمهتدية والفائزة بالنجاة في ظلّ هدايته، ترىٰ نفسها عاجزةً عن شكره ومجازاته بما يليق به، فترفع أيديها له بالدعاء بأن: اللهمّ أعلِ درجته وارفع مقامه...؛ علّها تؤدّي بذلك قليلاً من دَينه عليها.

شعر:

يا سيّد الأنام! لك منّا سلام وتحيّة...

ذِكرُ ألسنتنا في شهورنا وسنيننا، في نهارنا ولياليناا

بمَ نحن نتحفك من بعيد أقصىٰ؟

---

١. للاطلاع علىٰ تمثيل الأستاذ العلامة الطباطبائي، انظر: هذا الكتاب، ج١، شرح فقرة «السلام عليكم» تحت عنوان «وسيلة رفع الدرجات»؛ و ج٢، شرح فقرة «صلّىٰ الله عليه وآله ورحمة الله وبركاته»، تحت عنوان «توصية القرآن بالصلوات».

٢. للتذكير راجع: ج١، شرح فقرة «السلام عليكم» تحت عنوان «وسيلة رفع الدرجات».

ليس بأيدينا سوىٰ هذه الصلوات والسلام[١]

* * *

١ . نصّ البيتين بالفارسية هو:

يـا سـيـد الأنـام! درود و صـلات بـر تو ورد زبان ماست مه و سال و صبح و شام

نزديـک تو چيه تحـفـه فرسـتيم ما زدور؟ در دست ما همين صلات است والسلام

# السّلامُ علىٰ الدُّعاةِ إلىٰ اللهِ

كلمة «دعاة» جمع «داعي»، و «داعي» اسم فاعل لـ «دعو»، والمصدر هو «دعوة»، علىٰ وزان هادي وهداة، قاضي وقضاة.

والدعوة في اللغة هي «طلب شيء لأن يُتوّجه إليه أو يَرغب إليه أو يسير إليه»[1].

**الدعاة إلى الله**

الغرض من خلق الإنسان أن يتخلّق بأخلاق الله: «تخلّقوا بأخلاق الله»[2]، والسير إليه تعالىٰ.

والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ وإن كان أمراً قهريّاً لتعلّق الإرادة التكوينيّة به في آية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيه﴾[3]، لكنّ الإرادة التشريعيّة لله تعالىٰ

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «دعو».

٢ . بحار الأنوار، ج٥٨، ص١٢٩.

٣ . الانشقاق: ٦.

اقتـضت أن يـسير الإنـسان باختيـاره، عـلىٰ خطـىٰ أبي موحـدّي العـالم النبـيّ إبراهيم عليه السلام القائل: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١].

وجزاء هذا السير الاختياريّ العناية والرفعة الخاصّة، المتجلّي بعضها في الهداية الخاصّة. وهذا السير المتعقَّب بهكذا جزاء إنّما يكون بعد دعوة الله تعالىٰ.

إنّ الذات الإلهيّة الأقدس هي أول داع للإنسان، فقد دعت إليها العباد كافّة دعوةً عامّة: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾[٢]، «أنت دللتني عليك ودعوتني إليك»[٣].

من هنا يطلب الظالمون يوم القيامة مهلةً ليجيبوا دعوة الله؛ لأنّهم فرّطوا في إجابتها في دار الدنيا: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾[٤].

ولكن ليس بوسع كلّ أحد سماع دعوة الله وكلامه إليه، بل ولا سماع كلام الملائكة، فكان لا بدّ من وجود أناس مصطفون يكونون واسطةً بين الخالق والمخلوقين، ويبلّغون دعوةَ الله إلىٰ عباده، وهم الأنبياء وأوصياؤهم المعصومون.

ورسول الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وإن كان خاتم الرسل بحسب النظام الفعلي للعالَم؛ إلاّ أنّه من حيث الرتبة يقف علىٰ رأس سلسلة الدعاة إلىٰ الله، ودعوته تلك تشكّل بعضاً من كمالاته وخصاله ومسؤولياته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾[٥]. وقد أبلغ الأمّة أنّ مسؤوليّته الأساس هي الدعوة: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾[٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ

---

١. الصافات: ٩٩.
٢. يونس: ٢٥.
٣. بحار الأنوار، ج٩٥، ص٨٢.
٤. إبراهيم: ٤٤.
٥. الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.
٦. يوسف: ١٠٨.

اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو﴾[١].

وكان جزاء جهاده الدؤوب في هذه السبيل أن شهد الله له بالوفاء، وأنّه لم يهن في تبليغ ذلك الأمر العظيم، فقال له تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]. قال العارف الشبستري:

الأنبياء في هذه الطريق كقائدي الإبل... هم أدلاّء وهداة القوافل
و نبيّنا هو السيد المقدّم فيهم.... فهو الأول والآخر
به خُتمت هذه الطريق.... وفي رحله نزل ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾
مقامه المتلألئ جمع الجمع... وجماله المتعاظم شمع المحفل[٣]

والأئمّة عليهم السلام يدعون إلى الله تعالى لأنّهم خلفاء النبيّ، وقد خوطبوا في هذه الفقرة بعنوان: «الدّعاة إلى الله»، وورد في فقرة أخرى: «إلى الله تدعون وعليه تدلّون».

ونحن نشهد لهم في فقرات أخرى بحقّ الجهاد في إبلاغ الدعوة الإلهيّة: «وجاهدتم في الله حقّ جهاده»، وأنّهم أخذوا في ذلك بالتي هي أحسن «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة».

**ملاحظتان**

**الأولى:** إنّ عبارة «الدعاة إلى الله» وقعت في بداية عبارات صالحة لأن تكون

---

١ . الرعد: ٣٦.

٢ . المؤمنون: ٧٣.

٣ . أصل الأبيات بالفارسية هو:

در اين ره انبيا چون سارباننداند دليل و رهنماي كاروانند
وز ايشان سيّد ما گشت سالار هم او اوّل، هم او آخر در اين كار
بر او ختم آمده پايان اين راه در او مُنزل شده ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾
مقام دلگشايش جمع جمع است جمال جانفزايش شمع جمع است

أوصافاً للداعي الحقيقي إلى الله تعالى.

**الثانية**: المدعوّ إليه في هذه الفقرة من الزيارة لم يسمَّ بـ «الرحمن أو الرحيم»، بل هي دعوة الإنسان الكامل إلى الاسم الأعظم، وهو «الله»، الأعلى من كلّ اسم، والجامع لكمالات الأسماء كافّة. من هنا، كانت دعوة النبيّ الخاتم جامعة لكلّ ما تضمّنته دعوات الأنبياء السابقين.

## إشارات

### ١ ـ التكليف العامّ

إنّ الدعوة إلى الله واجب كلّ مؤمن موّحد: «كونوا دعاةً للناس بغير ألسنتكم»[1]؛ غير أنّ أنبياء الله يقع على عاتقهم تكليف خاصّ في هذا المجال؛ لأنّ ذلك هو أساس بعثتهم، فهم يدعون إليه تعالى مباشرةً، وغيرهم يقوم بهذا الأمر العظيم تبعاً لهم، بأن يأذنوا لهم أو يأمروهم بالدعوة. لذا كان على الدعاة المأذون لهم أن يتعلّموا منهم شؤون الدعوة وشرائطها لتكون دعوتهم دعوةً بالحقّ وتأمن من خطر الانحراف، من قبيل طريقة الدعوة وآلياتها وأهدافها، وما شابه ذلك ممّا له تأثير في إنجاح الدعوة؛ ولذا فكلّ داع مأذون له هو مظهر إلهي محمود الفعل عند الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ولّما كانت الدعوة إلى الله وسوق البشريّة إليه من أفضل القربات الموجبة للحسنات، فقد حرص أولياء الله عليها، وسألوها منه تعالى في مناجاتهم وتوسّلاتهم؛ ومن أدعية الإمام السجّاد عليه السلام في هذا الصدد: «... واجعلنا من

---

١. أصول الكافي، ج٢، ص٧٨.

٢. فصّلت: ٣٣.

دعاتك الداعين إليك، وهداتك الدّالّين عليك...»[١].

## ٢ ـ الغاية من الدعوات الإلهيّة

إنّ غاية الدعوات الإلهيّة استضافة المدعوّين علىٰ المائدة العلميّة والمعنويّة لله تعالىٰ؛ وإلاّ فإنّه: ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[٢]، فالأرض كلّها سفرة نعمه المدودة، والمتاحة للكلّ، وهذه الأطعمة المادّيّة والأرزاق الظاهريّة ليست بذات أهمّيّة ولا بحاجة إلىٰ دعوة؛ لذا ترىٰ الجنّ والإنس، الكافر والمؤمن، الحيوان والإنسان، منتفعين بها آكلين منها، كما أنّ الحكومة والمُلك الظاهريّ كذلك أيضاً.

فالاستمتاع بذلك كلّه ليس دليلاً علىٰ القرب من الله تعالىٰ، ولا الحرمان منه دليل علىٰ البُعد؛ لأنّ أسباب الاستيلاء علىٰ هذه الأمور والتمكّن منها هي القدرات الظاهريّة. أمّا الأرزاق المعنويّة، وهي الرزق الحسن كما سمّاها النبيّ شعيب عليه السلام في قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾[٣]، كالرسالة والنبوّة والولاية والخلافة الإلهيّة، والمعارف التوحيديّة و... فهي لا تُنال إلاّ بالجدارة الروحيّة واللياقة المعنويّة، لا بالقوّة والغلبة.

وثمرة الانتفاع بهذه الأرزاق المعنويّة أنّ المنتفع يقتبس نوراً، به يتبيّن دربه ويأمن بذلك من الشبهات والضلالات، بل ويصبح مصباحاً ينير طريق الآخرين أيضاً، فهو ليس قاطعاً لطريقهم وحسب؛ بل هو دليل لهم ومرشد.

---

١. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٥.

٢. هود: ٦.

٣. هود: ٨٨.

**ملاحظة**

إنّ أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا مأدبة الله سبحانه، والأنبياء والأولياء يدعون إليها البشريّة ضيوفاً، وكلّ داعٍ منهم هو مظهر لاسم من تلك الأسماء المباركة، ودعوته إلىٰ الله تندرج في إطار ذلك المظهر الاسمي الذي هو متمظهر به ومجلٍ له؛ فدعوة العابدين الزاهدين لها حدودها وعلاماتها الخاصّة بها، ودعوة العارفين لها أيضاً سماتها ودائرتها الخاصّة، كما أنّ العلماء يدعون الناس بواسطة مظهريّة اسم «العليم»، والحكماء يدعونهم بتجلّي اسم «الحكيم»، وبعضٌ باسم «القهّار» وآخر باسم «الغفّار»، وهكذا.

## ٣ ـ أنواع الدعوات

إنّ الدعوة تارةً تكون بحثّ المدعوّين مقترناً بحركةِ الداعي نفسه؛ كما في حال الداعي القائد أو السائق، فإنّه يتقدّم ويقود الناس من خلفه أو أنّه يسوقهم من خلف ويسير معهم؛ لئلاّ يتخلّف أحدٌ منهم عن الركب، لينتهي بهم جميعاً إلىٰ معبود الكلّ، فيكون مع قافلة الضيافة خطوة بخطوة. وتارةً بالحثّ بلا حراك من الداعي، فهو نظير حجر المغناطيس والكهرباء و... بحيث يحرّك الجاذب المجذوب من دون أن يتحرّك. وهذه الدعوة المقتصرة علىٰ الجاذبيّة إنّما تكون من المجرّد التامّ، فإنّه بعد المعرفة به وحبّه يوجِد في القافلة الناشدة للكمال جذبةَ حبّ وشوق إليه، ويدعوها ويجذبها إليه، بلا حركة منه.

وخير مثل لدعوة الجذب والحبّ هذه دعوة الذات الإلهيّة، فالله تعالىٰ «يدعو إلىٰ نفسه من أدبر عنه»[1] من الضالّين بلا حراك ماديّ منه، ويدعو أيضاً إلىٰ الجنّة طالبيه

١ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٤٦.

والسائرين إليه في طريق الوصال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾[١]، والمظاهر الإلهيّة التامّة، التي تنزّهت عن حطام المادّة وحلّت بمقام التجرّد التامّ هم أيضاً يدعون قافلة صراط الله المستقيم بالقوّة الجاذبة، يحدوهم إلىٰ ذلك ما في قلوبهم من حبّ وما لأرواحهم من شوق.

## ٤ ـ مضمون الدعوة الإلهيّة

إنّ دعوة الله ورسوله ذات معنىٰ حيوي ومصيري؛ لذا أُمر المؤمنون والمدعوون بإجابة تلك الدعوة من صميم القلب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢]، وهذا المضمون هو المحور المشترك لكلّ رسالات الرسل الإلهيّين ودعوات الموحدّين: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾[٣].

ولم يكن التنعّم بالحياة المعنويّة مقصوراً عند رجال الله علىٰ مُدَد رسالاتهم، بل كانوا مهتمّين بذلك منذ بدايات حياتهم، كما حكىٰ القرآن الكريم ذلك في حال النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لذا فإنّ زائر حريم الولاية، بعد أن يبرأ من الأئمّة الدّاعين إلىٰ النار: «برئت إلىٰ الله عزّ وجلّ من الأئمّة الذين يدعون إلىٰ النار»؛ يسأله تعالىٰ أن يكون من خيار المجيبين لدعوة الحياة، فيقول مبتهلاً: «... وجعلني من خيار مواليكم التابعين لما دعوتم إليه».

## ٥ ـ الدعوة العامّة

دُعي الناس كلّهم إلىٰ الله تعالىٰ، فليست الدعوة إليه خاصّة بطبقةٍ معيّنة، قال

---

١ . يونس: ٢٥.
٢ . الأنفال: ٢٤.
٣ . الأنبياء: ٢٤.

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[١]؛ وإن لم يستجب منهم إلاّ فريق خاص: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، كما أنّ الذين اهتدوا بالقرآن هم المتّقون وحسب: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣]، مع أنّه أُنزل ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[٤] كافّة.

## ٦ ـ الدعوة الخاصّة

في طول الدعوة العامّة توجد دعوات خاصّة، موجّهة لخصوص المؤمنين الذين استجابوا للدعوة العامّة الأولى، ولأنّ المدعوّ في كلّ دعوة هو ضيف تلك الدعوة فحسب؛ فإنّ مجيبي الدعوة العامّة هم عامّة ضيوف الله تعالى، بينما مجيبو الدعوات الخاصّة إن هم إلاّ خاصّة ضيوفه تعالى، المتنعّمون بمزيد كرامة. وقد ذكرت الروايات عدداً من تلك الضيافات الخاصّة، منها شهر رمضان، ففي الرواية: «شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله»[٥]، ومنها ليلة عرفة: «اللهمّ هذه ليلة عيد، ولك فيها أضياف، فاجعلني من أضيافك»[٦]، ومنها دعوة الذهاب للمساجد: «اللهمّ دعوتني فأجبت دعوتك»[٧]، ومنها دعوة الحجّ: «أنا الله ذو بكّة، أهلها جيرتي وزوّارها وفدي وأضيافي»[٨]. وهذه الأدعية في هذه المواطن دليل أنّ هذه العبادات تتمّ بدعوة إلهيّة، فتوقُّع الإكرام والقِرىٰ فيها في محلّه.

---

١. سبأ: ٢٨.
٢. النور: ٥١.
٣. البقرة: ٢.
٤. البقرة: ١٨٥.
٥. بحار الأنوار، ج٩٣، ص٣٥٦.
٦. المصدر نفسه، ج٩٥، ص٢٦٦، ٢٦٨.
٧. المصدر نفسه، ج٨١، ص٢٢.
٨. المصدر نفسه، ج١٥، ص٢١٣.

## ٧ ـ حقٌّ أم تكليف؟

إنّ التكاليف الشرعيّة حقوقٌ للإنسان في واقعها؛ لأنّ محور وأساس الأوامر والنواهي الإلهيّة الدعوة إلى الفلاح والصلاح؛ لكنّها أبلغته كتكاليف عليه، فلم يُحمَّل الإنسان أيّ كُلفة ومشقّة عبثاً، وليس المستفيد أحدٌ غيره، وما يُقال عن كرامة الإنسان واستقلاله وحريّته حقٌّ وصحيح، ولا شيءَ منها بمانع من التكليف الشرعي؛ لأنّ ما ظاهره التكليف هو حقٌّ، وما يُذكر في بعض الآيات من أمر ونهي كما في آية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] يُذكر في آياتٍ أخر كدعوة ووعد، كما في آية: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾[2]، وآية: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[3]. ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «فسابقوا رحمكم الله الى منازلكم التى أُمرتم أن تعمروها، والتى رغبتم فيها ودعيتم إليها»[4].

## ٨ ـ سُبقة الدعوة

كما تُقسّم الدعوة بلحاظ الطريق إلى دعوة مستقيمة وأخرىٰ معوّجة، تقسَّم بلحاظ عاقبتها وما يؤول إليه المستجيب لها إلى نور ونار؛ ذلك أنّ عاقبة دعوة الشيطان وأوليائه الذين يمكرون بمكر الشيطان هي نارُ جهنّم، ودعوة أولياء الله وأشياعهم الصادقين الأوفياء الذين يسيرون بهديَ الحقّ هي نورُ الجنّة.

---

١ . النحل: ٩٠.

٢ . يونس: ٢٥.

٣ . التوبة: ٧٢.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة١٨٨ .

والمستفاد من التقابل في آية: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[1] أنّ الأئمّة المعصومين يدعون المجتمع الإنساني إلى النور، وقد يُعبّر عن ذلك النور بـ «الله»، وهو نور السماوات والأرض، كما في عبارة «الدعاة إلى الله»، وقد يُعبّر عنه بالنجاة، كما في آية: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[2]

## ٩ ـ دعوة السالك والمسلك

كما تُسند الدعوة إلى المرشد، تُسند أيضاً إلى الصراط المستقيم؛ لأنّ الصراط السويّ يدلّ السالك على المقصد، ويوصله إليه إذا ما طواه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... فالطريق نهجٌ يدعو إلى دار السلام»[3]. وعليه فإنّ العدل ـ وهو صراط مستقيم ـ يدعو إلى السلم والصلح، والجور وهدر الحقوق العامّة يدعو إلى الحروب والعنف، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... والحيف يدعو إلى السيف»[4].

## ١٠ ـ الإذن الإلهي شرط شرعيّة الدعوة

إن لم تكن الدعوة دعوة إلى الله فهي دعوة إلى الباطل وعمل عبثيّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾[5]، سواء كانت دعوةً إلى الداعي نفسه حبّاً للجاه، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

١. القصص: ٤١.
٢. غافر: ٤١.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩٤.
٤. المصدر نفسه، الحكمة ٤٧٦.
٥. الحج: ٦٢.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِ﴾[١]، أم دعوةً إلىٰ غيره بيعاً لدينه بدنياه وهو شرّ عمل، وقد قال النبيّ ﷺ: «يا عليّ! شرّ الناس من باع آخرته بدنياه، وشرٌّ من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره»[٢]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «... ألا أنبّئكم بأخلىٰ الناس ميزاناً يوم القيامة، وأبينهم خسراناً، من باع آخرته بدنيا غيره»[٣].

كما أنّ الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ إن كانت عن هوىٰ ومن غير إذنٍ منه سبحانه، مباشرٍ أو غير مباشر؛ فهي عبثٌ ولا طائل منها، وإلاّ فإنّ مدّعيّ النبوّة كذباً، كمسيلمة الكذّاب وزوجته سَجاع بنت الحارث، وعيهلة بن كعب بن عوف العنسي، وطليحة الأسدي، وغيرهم، كلّهم يدّعون أنّهم رسل الله ودعاةٌ إليه، لكنّهم غير مأجورين؛ لأنّه غير مأذون لهم بذلك؛ لذا نصّ القرآن الكريم علىٰ أنّ النبيّ الأكرم ﷺ داعٍ بإذن الله: ﴿دَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾[٤]، والمؤمنون كذلك مأذونون في دعوة النّاسَ إلىٰ الله تعالىٰ تبعاً للأنبياء.

وللأئمّة المعصومين عليهم السلام إذن خاصّ بذلك؛ لأنّهم منصوبون خلفاء لرسول الله ﷺ بنصّ منه، وقد أوجب تعالىٰ طاعتهم وإجابة دعوتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٥]. وعليه فإنّه لا أجرَ للكاذبين في دعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ (سواء كذبوا في ادّعاء النبوّة أو خلافة النبيّ أو أيّ مقام آخر)، وإن استطاعوا ـ علىٰ سبيل فرض المحال ـ القيام بكلّ وظائف الدعاة الحقيقيّين.

---

١ . آل عمران: ٧٩.

٢ . بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤٦.

٣ . قال الإمام ذلك ردّاً علىٰ قدح شيبة بن غفّال ـ والي المدينة من قِبل المنصور الدوانيقي ـ في أمير المؤمنين وأبنائه في خطبة الجمعة. (بحار الأنوار، ج٤٧، ص١٦٥).

٤ . الأحزاب: ٤٦.

٥ . النساء: ٥٩.

ولا يبعد أن تكون أوصاف «أدلاّء على مرضاة الله» و «المستقرّين في أمر الله» و... قيوداً احترازيّة، يراد بها أنّ أهل البيت دعاةٌ حقيقيّون ومأذون لهم؛ لأنّ المدّعين ذلك كذباً ليس لهم من تلك الأوصاف شيء.

## ١١ ـ شركاء الرسول في الدعوة

قد يفيد ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[1] أنّ كلّ تابع لرسول الله ﷺ شريكٌ له في الدعوة؛ لكنّ الأمر ليس كذلك، وليس كلّ تابع له ﷺ ذا إيمان خالص ولا شريكاً في الدعوة؛ بدليل أنّ دعوة النبيّ ﷺ دعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان الصافي، وقد ذكرت الآية السابقة على هذه الآية أنّه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2]، بل الشريك الكامل للنبيّ في دعوته هو البصير، العارف بالمقام الربوبيّ، ذو اليقين الكامل المنزّه عن الشرك الخفيّ. من هنا طبقت بعض الروايات عنوان «التابع» في الآية المذكورة على «رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام، والأوصياء من بعدهم»[3].

## ١٢ ـ الدعوة الواعية

إنّ للعلم والبصيرة والرؤية التوحيديّة مكانة خاصّة في الإسلام، ودعوة الرسول وتابعيه قائمة أساساً على البصيرة والعلم: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وليس هذا وحسب، بل المطلوب أيضاً أن تكون إجابتها أو ردّها عن وعيٍ وتفكير، فلا يكوننّ المستجيب لها المنتصر، ولا الرافض

١. في الآية ١٠٨ من سورة يوسف: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.
٢. يوسف: ١٠٦.
٣. نور الثقلين، ج٢، ص٤٧٦.

لها المعادي إمّعة إمّرة، بل على الاثنين أن يتّبعا الدليل وينقادا للبرهان: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[1]، فالإسلام لا يستغلّ أبداً الجهل وضعف الرأي في أحدٍ.

**ملاحظة**

حينما يذكر الله تعالىٰ النبيّ والمؤمنين فإنّه يقدّم في الذكر اسم الرسول، كما في الآيات: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2]، ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[4]. وفي الآية المذكورة قبلاً أفرده أيضاً عن التابعين، فقال: ﴿أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وهذا التقديم تكريم للنبيّ وتعظيم له.

* * *

١. الأنفال: ٤٢.

٢. البقرة: ٢٨٥.

٣. الفتح: ٢٦.

٤. التحريم: ٨.

# وَالأَدِلاّءِ عَلىٰ مَرْضاتِ اللهِ

كلمة «أدلاّء» جمع دليل (علىٰ وزان شديد وأشدّاء، خليل وأخلاّء)، وهي صفة مشبّهة مشتقّة من مادّة «دلل»، المنفهم منها معنىٰ اسم الفاعل.

والأصل في معنىٰ كلمة «دلّ» «صيرورة شيء بحيث يُنبىٰء عن شيء آخر ويريه، والأول أعمّ من أن يكون لفظاً أو غيره»[1]. وحيث إنّ صيغة «فعيل» تفيد الاستمرار والثبوت فـ«دليل» كاشف ثابت الكاشفيّة؛ لكنّ صيغة الفاعل منه (دالّ) تفيد أصل الحدوث وصدور الفعل، ولا تفيد الثبوت والاستمرار فيه.

وكلمة «مرضات» مصدر ميميّ، لحقته التاء، وهي دالّة علىٰ استمرار «الرضا». وهذا الاستمرار مفاد «ميم» الابتداء و «تاء» النهاية[2].

وكلمة «رضا» مشتقّة من مادة «رضيَ أو رضَوَ»[3]، وهي بمعنىٰ الاختيار

---

١ . التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٣، مادة «دلّ».

٢ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٤، ص١٥٣، مادة «رضى».

٣ . انظر: معجم مقاييس اللغة، ج٢، مادة «رضي».

والاصطفاء. وبعبارة أخرىٰ: الرضا هو ميل القلب إلىٰ شيء والقبول به، خلاف السّخط.

## الأدلاّء على مرضات الله

إنّ للفوز برضا الله تعالىٰ مضماراً واسعاً، والسّبق فيه ممكن للناس كلّهم، بمن فيهم المعصومون. وقد ذكر القرآن الكريم أنّ المحفّز لأمير المؤمنين في عمله الشجاع ليلةَ المبيت هو طلب رضا الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ الله﴾[١]. وطلب رضاه سبحانه هو الخط الأساس الذي مشىٰ عليه الأئمّة الأطهار عليهم السلام في حياتهم؛ فمن دعاء الإمام السجّاد عليه السلام حين رؤية الهلال: «... واجعلنا من أرضى من طلع عليه وأزكىٰ من نظر إليه»[٢]، ومن أدعيته الأخرىٰ: «واستعملني بما هو أرضى»[٣]، «وامنن عليّ... بالعمل لك بما تحبّ وترضى»[٤]. وكان من شأن سيّد جنود العشق عليه السلام في مستهلّ سفر عشقه إلىٰ كربلاء أن وقف علىٰ قبر جدّه الحبيب قائلاً: «أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ القبر ومن فيه إلاّ اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى»[٥].

ولا غرو في أنّ الفوز برضا الله تعالىٰ إنّما يكون باتّباع الحقّ وإقامة شعائر الدين والأعمال الصالحة، ولكلّ عمل صالح أثرٌ في ذلك، وكلّ مَن له عمل أكثر وله في إحياء الدين جُهدٌ أكبر فله من الرضا الإلهي النصيب الأوفر. ومن دعاء الإمام

١ . البقرة: ٢٠٧.

٢ . مستدرك الوسائل، ج٧، ص٤٤٠.

٣ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٢٠.

٤ . المصدر نفسه، الدعاء ٢١.

٥ . بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٨.

السجّاد عليه السلام: «واستعملني في مرضاتك عملاً لا أترك معه شيئاً من دينك»[١].

إنّ التوفيق في الإدامة علىٰ شيء من ذلك لهو درجةٌ في سلّم بعيد المدىٰ، نهايته رضوان الله: «فهب لي يا إلهي من رحمتك ودوام توفيقك ما أتّخذه سلّماً، أعرج به إلىٰ رضوانك، وآمن به من عقابك»[٢].

واتبّاع الحقّ والقيام بالدين كما هو بحاجة إلىٰ المعرفة ـ الحاصلة بالتعلّم والتعليم ـ بحاجة أيضاً إلىٰ التربية والتهذيب.

وعلىٰ هذا الأساس، بعد أن وُصف الأئمّة عليهم السلام في فقرة سابقة بأنّهم دعاة إلىٰ الله؛ وُصفوا في هذه الفقرة بأنّهم الأدلاّء علىٰ مرضاته. واتّصال هاتين الفقرتين يدلّ ـ من جهةٍ ـ علىٰ أنّ دعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ دعوة حقّة ومأذونٌ بها وخالصة له تعالىٰ، ويفيد ـ من جهةٍ أخرىٰ ـ حدوث الشوق لتحصيل رضاه تعالىٰ بعد الدعوة إليه والمعرفة الإجماليّة بكماله اللامتناهي، وعندئذ تكون الدلالة منهم عليهم السلام علىٰ سُبل الكمال والترقّي. ومن هنا فهم عليهم السلام يدعون الناس إليه تعالىٰ، ثمّ يدلّونهم علىٰ ما يرضيه ويحبّه.

## إشارات

### ١ ـ تحليل عقلي لرضا الله تعالى

الرضا والسخط من الصفات الفعليّة للذات الإلهيّة المقدّسة، والصفات الفعليّة هي التي تُنتزع من مقام الفعل الربوبي، وليسا هما بالنسبة لها بمعنىٰ الملائمة والميل النفسي أو عدمها؛ وعليه فرضاه تعالىٰ وسخطه لا يُحدث في ذاته أيّ تغيير، بل

---

١ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء ٥٤.

٢ . المصدر نفسه، الدعاء ٤٩.

رضاه إثابته، وسخطه معاقبته؛ وهذا بخلافهما بالنسبة للإنسان، فإنّه يشعر حال الرضا بالانبساط ويحصل في نفسه ارتياح، وفي حال السخط يحدث لنفسه انقباض ولأعصابه توتر، بل ربّما نتج عن ذلك الانبساط والانقباض سكتة مميتة.

وبعبارةٍ أخرىٰ: للرضا والغضب الإلهيين حال ثابتة ومعايير واضحة، وكلّ من يعمل عملاً فهو بلحاظ تلك المعايير إمّا مرضيٌّ عند الربّ أو مغضوب عليه؛ فالتمرّد علىٰ أوامر الله تعالىٰ[1]، والشرك وعبادة العجل[2]، والفرار من قتال أعداء الدين[3]، والكفر[4]، و... تستعقب الغضب الإلهي، وفي المقابل فإنّ الشكر[5]، ونصرة الدين[6]، وحجّ البيت الحرام[7]، والركوع والسجود لله[8]، والجهاد[9]، و... توجب رضاه تعالىٰ.

والخلاصة: إنّ في ابتغاء الدين المرضيّ عند الله رضاه تعالىٰ في الدنيا والآخرة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[10]، وقال: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾[11]. فمن يبتغي الإسلام ديناً، ويقوم بتلك الفعال الحسنة،

---

١ . ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ (طه: ٨١).

٢ . ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الأعراف: ١٥٢).

٣ . ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٦).

٤ . ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧).

٥ . ﴿... وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧).

٦ . ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨).

٧ . ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ (المائدة: ٢).

٨ . ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ (الفتح: ٢٩).

٩ . ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ (الممتحنة: ١).

١٠ . المائدة: ٣.

١١ . النور: ٥٥.

ويتّصف بتلك الصفات الحميدة، فسيكون ﴿عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾[١]، ويحوز رضاه تعالىٰ؛ ومن يأباه ويتطبّع بما يقبح من الخصال، ويجترح ما لا يُحمد من الفعال فقد ﴿بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ الله﴾[٢]. والواقع إنّ المتغيّر هنا هو الإنسان، فهو الذي يضع نفسه تارةً في دائرة الأفعال والصفات المرضيّة عند الله، ويضعها تارةً أخرىٰ في دائرة الأفعال والخصال البغيضة عنده تعالىٰ، وأمّا الذات الإلهيّة فلا تغيّر فيها. وعليه فإنّ التبدّل والتحوّل المسبّب للقِدَم والفناء إنّما هو في الإنسان، لا في الذات الإلهيّة المقدّسة.

وهذا المعنىٰ ورد في تفسير الإمام الصادق عليه السلام لآية: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٣]، فقد جاء في تفسيره:

أ. «إنّ الله تبارك وتعالىٰ لا يأسف كأسفنا».

ب. «ولكنّه خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون، وهم مخلوقون مدبَّرون، فجعل رضاهم لنفسه رضى، وسخطهم لنفسه سخطاً».

ج. وإنّما جُعل رضاهم وسخطهم علامةً علىٰ رضا الله وسخطه «وذلك لأنّه جعلهم الدُّعاة إليه والأدلاّء عليه؛ فلذلك صاروا كذلك». فهم يدعون الناس إليه سبحانه ويدلّونهم عليه، لا إلىٰ أنفسهم، ومعيار رضاهم وغضبهم هو إجابة الدعوة أو ردّها، والاتّصاف بمحاسن الأخلاق أو ضدّها؛ وبذلك استحقّوا أن يكونوا دليلاً علىٰ رضا الربّ أو سخطه[٤].

---

١. مريم: ٥٥.

٢. محمد: ٢٨.

٣. الزخرف: ٥٥.

٤. وقد ورد في الحديث النبويّ المعروف: «إن الله ليغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها» (بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٩).

د. «وليس أنّ ذلك يصل إلى الله عزّ وجلّ كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال أيضاً: من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها، وقال أيضاً: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[2]».

فاتّصاف الذات الإلهيّة بالرضا والسخط ليس على حدّ اتّصاف المخلوقين، بل ولا مشابهة بينهما، بل اتّصافه بهما بمعنى اتّصاف أولئك الأولياء بهما وتجسيدهم لهما، فهم مظاهر رضاه وسخطه. والمستفاد من هاتين الآيتين والحديث القدسيّ أنّ أولياء الله هم مظاهر محاربته وطاعته ومبايعته، فمن حاربهم فقد حارب الله تعالى، ومن أطاعهم وبايعهم فقد أطاعه وبايعه.

هـ. والسرّ في انتفاء المشابهة في ذلك بين الخالق تعالى والمخلوق أنّ طروء تلك الصفات على الذات الإلهيّة يؤول بها إلى الفناء؛ لأنّها تحدث تغيّراً في المتّصف بها، وكلّ قابل للتغيّر قابل للفناء؛ لذا قال الإمام:

«وكلّ هذا وشبهه على ما ذكرتُ لك، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء ممّا يشاكل ذلك، ولو كان يصل إلى المكوِّن الأسفُ والضجرُ ـ وهو الذي أحدثهما وأنشأهما ـ لجاز لقائل أن يقول: إنّ المكوِّن يبيد يوماً؛ لأنّه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير، وإذا دخله التغيير لم يؤمَن عليه الإبادة».

و. «ولو كان ذلك كذلك لم يُعرف المكوِّن من المكوَّن، ولا القادر من المقدور، ولا الخالق من المخلوق، تعالى الله عن هذا القول علوّاً كبيراً. هو الخالق للأشياء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحدّ والكيف فيه، فافهم ذلك إن شاء الله»[3].

---

١. النساء: ٨٠.

٢. الفتح: ١٠.

٣. التوحيد، ص١٦٨، ح٢؛ أصول الكافي، ج١، ص١٤٤، ح٦ (مع اختلاف يسير).

## ٢ ـ رضوان الله الأعلى درجة

لا وجه للمقايسة بين من اتبّع رضوان الله وبين من باء بسخطه: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١]، بل لا تقاس أيّ نعمة إلهيّة كانت بنعمة الرضوان الإلهي، كيف! وقد قال تعالى بعد أن عدّد النعم التي وعد بها المؤمنين: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢]، وعدّ رضاه والرضا عنه تعالى أكبر نعمة تُنعَم على حزب الله فقال: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾[٣].

ومن هنا كان الإمام السجاد عليه السلام يدعو ربّه بشرف الرضوان فيقول: «شرّف درجتي برضوانك»[٤]، ومن دعائه أيضاً: «واجعل لي في هذا اليوم نصيباً أنال به حظّاً من رضوانك...»[٥]، ومن دعائه كذلك: «اللهمّ... فاعطني من نفسي ما يرضيك عنّي، وخذ لنفسك رضاها من نفسي»[٦]، وكان يسأل الله تسهيل نيل رضاه: «وسهّل إلى بلوغ رضاك سبلي»[٧].

## ٣ ـ درجات الرضا الإلهي

يتجلّى رضا الله تعالى في أمرين:

أ. الرضا عن عمل الإنسان، فهو تعالى يرضى عن عمل العامل ما دام مطابقاً

---

١ . آل عمران: ١٦٢.

٢ . التوبة: ٧٢.

٣ . المجادلة: ٢٢.

٤ . الصحيفة السجادية، الدعاء٤١.

٥ . المصدر نفسه، الدعاء٤٧.

٦ . المصدر نفسه، الدعاء٢٢.

٧ . المصدر نفسه، الدعاء٢٠.

لحجّة العصر، وهو دينه ومنهاجه، وكان عن امتثال وطاعةٍ لأمره سبحانه.

ب. الرضا عن «نفس» الإنسان، وهذه المرحلة نتيجة كمال الرضا عن العمل مقروناً بكمال الأخلاق والعقائد.

ونتيجة الرضا عن العمل قبوله والإثابة عليه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾[١]، ونتيجة الرضا عن «النفس» قبولها أيضاً: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[٢]. ورضا الربّ عن «نفس» عبده هو مقام الاطمئنان؛ لأنّ العبد السالك يبلغ فيه الرضا من جهتين، فهو راضٍ عن الله والله راضٍ عنه، فنفسه ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٣]، وهو ممن ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٤].

وكما أنّ رضاه تعالى عنهم غير مقصور على أعمالهم، فإنّ رضاهم عنه سبحانه غير مقصور أيضاً على نعمه، بل هم راضون بألوهيّته والعبوديّة له، ويرون ذلك كمالاً لهم، ولسان حالهم كلام عليّ عليه السلام: «إلهي! كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ»[٥]، وليس لهم من كلامٍ إلاّ: «صبراً على قضائك يا ربّ... صبراً على حكمك...»[٦].

**شعر**

إنّي أجد لذّاته حتّى في البلاء... أنا الواله[٧] به أنا الواله به أنا الواله[٨]

---

١. الأحقاف: ١٦.

٢. آل عمران: ٣٧.

٣. الفجر: ٢٨.

٤. المجادلة: ٢٢.

٥. مفاتيح الجنان، ص٢٤٩، ب١، المناجاة المنسوبة لأمير المؤمنين.

٦. مقتل المقرم، ص٢٨٣.

٧. كتاب العين: الوَلَهُ: ذَهابُ العَقْل والفُؤاد من فُقْدانِ حبيب.

٨. مثنوي معنوي، الدفتر الثاني، البيت٢٦٤٧. ونصّه كالتالي:

در بلا هم مى چشم لذّات او        مات اويم مات اويم مات او

ومع تمكنّهم من ذخائر السماوات والأرض، إلاّ أنّهم يتحمّلون في سبيل رضاه الفقر وقلّة ذات اليد والمشقّات. عن يونس بن ظبيان ومفضّل بن عمر وأبي سلمة السرّاج والحسين بن ثوير بن أبي فاختة قالوا: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: «عندنا خزائن الأرض ومفاتيحها، ولو شئت أن أقول بإحدىٰ رجليّ: أخرجي ما فيك من الذهب لأخرجتْ»، قال: ثمّ قال بإحدىٰ رجليه فخطّها في الأرض خطّاً فانفرجت الأرض، ثمّ قال بيده: فأخرج سبيكة ذهب قدر شبر، ثمّ قال: انظروا حسناً، فنظرنا فإذا سبائك كثيرة بعضها علىٰ بعض يتلألأ، فقال له بعضنا: جعلت فداك أُعطيتم ما أُعطيتم وشيعتكم محتاجون؟ فقال: «إنّ الله سيجمع لنا ولشيعتنا الدنيا والآخرة، ويدخلهم جنّات النعيم، ويدخل عدوّنا الجحيم»[1].

شعر

سأنصحك فاصغ لي واعمل بنصيحتي...
فإنّ حديثي هذا فائدة من شيخ الطريقة
لا تغتمّ لشيء من الدنيا ولا تنس نصيحتي...
فإنّها كنز عشقي وذكرىٰ من الشيخ السّالك
ارض بما قُسم لك وليستهلّ وجهك...
فإنّ باب الاختيار ليس مفتوحاً لا لي ولا لك[2]

إنّ لرضا الله تعالىٰ عن العمل وعن النفس درجات، خصوصاً الرضا عن «النفس»، فإنّ له من الدرجات ما لتكامل الإنسان منها، ولا حدّ لدرجات تكامله؛

---

١. أصول الكافي، ج١، ص٤٧٤.

٢. ديوان حافظ، الغزل ٣٧. ونصّ الشعر باللغة الفارسية هو:

نصيحتي كُنَمَت ياد گير و در عمل آر — كه اين حديث ز پير طريقت ياد است
غم جهان مخور و پند من مبر از ياد — كه اين لطيفه عشقم ز رهروي ياد است
رضا به داده بده و ز جبين گره بگشاي — كه بر من و تو درِ اختيار نگشاده است

لذا قالوا: إنّه لا حدّ لدرجات رضا الله تعالى، بحيث إنّ المعصومين كالنبيّ ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام، وهم من هم عند الله، لهم فرصة الترقيّ والصعود في سلّمه، وهم ساعون في بلوغ الدرجة الأعلى منه.

### ٤ ـ الإمام ميزان الرضا الإلهي

الإمام هو الذريعة الأنجع لنيل الرضا الإلهيّ، والطريق إليها يُفتح بطاعته. وفي هذا المجال قال سيّد الساجدين وزين العابدين عليه السلام في دعاء عرفة: «اللهمّ إنّك أيّدت دينك في كلّ أوانٍ بإمامٍ أقمته علماً لعبادك، ومناراً في بلادك، بعد أن وصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريعةَ إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذّرت معصيته، وأمرت بامتثال أمره، والانتهاء عند نهيه، وألاّ يتقدّمه متقدّم، ولا يتأخّر عنه متأخّر»[١].

إنّ وجود الإمام المعصوم في جميع أبعاده في النظام الوجوديّ لهو دليل ومرشد إلى رضاه تعالى، فهو دالّ عليه بقوله وفعله وسكوته المقصود، بل وبصفاته وخصاله أيضاً.

وخلاصة ما سبق بيانه هنا تصريحاً أو تلويحاً هو:

أ. إنّ الرضا والسخط الإلهي ليسا وصفين نفسانيين ولا يوجبان تغيّراً في الذات، كما قال أمير المؤمنين: «يحبّ ويرضى من غير رقّة، ويبغض ويغضب من غير مشقّة»[٢].

ب. إن إحيا السالكُ الصالح عقله وضحّى لذلك بنفسه فسوف يبلغ تدريجاً مقاماً يُرضي فيه ربّه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قد أحيا عقلَه وأمات نفسَه...

---

١. الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٧.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

وأرضى ربّه»[١].

ج. تقسّم منازل السائرين إلىٰ الله إلىٰ عشرة أقسام: البدايات، الأبواب، المعاملات، الأخلاق، الأصول، الأودية، الأحوال، الولايات، الحقائق، النهايات. وتقع منزلة الرضا والصبر في قسم منزلة الأخلاق.

د. قال الحكيم السبزواري وهو بصدد الكلام عن مقام الرضا في شرح قوله:

وبهجةٌ بما قضىٰ الله رضا     وذو الرضا بما قضىٰ ما اعترضا[٢]

عاش عارفٌ سبعين عاماً ما قال قطّ في بلاء وقع: «ليته ما وقع»، وما قال قطّ في محبوبٍ لم يحصل: «ليته حصل».

هـ. كما أنّه «لا صلاةَ إلاّ بطهور»، وكما أنّ القرآن: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٣]، ولاتُعلم معارفه العالية إلاّ بطهارة النفس من كلّ رجس ورجز؛ فإنّ التوفيق للأوب إلىٰ الله تعالىٰ لا يكون أيضاً إلاّ بنيل درجة الرضا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٤].

و. الإنسان الكامل الذي يمثّل المظهر الكامل لاسم الله الأعظم هو واسطة ثبوت الرضا في بعض المراحل، وواسطة إثباتٍ له في مراحل أخرىٰ؛ بمعنىٰ أنّه يكون تارةً علّة لرضا الله، وتارةً يكون علامةً له ودليلاً عليه. وفقرة «الأدلاّء علىٰ الله» ناظرة إلىٰ مقام الإثبات لا الثبوت.

ز. إنّ أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا دلائل السخط الإلهي أيضاً؛ ولكن لمّا كان رضاه تعالىٰ أكثر من غضبه: «يا مَن رضاهُ أوفرُ مِن سَخَطِه»[٥]؛ كانت دلالتهم علىٰ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٠.

٢. شرح المنظومة، ص٣٥٢.

٣. الواقعة: ٧٩.

٤. الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

٥. الصحيفة السجاديّة، الدعاء ١٢.

رضاه سبحانه مورد النصّ في الزيارة.

ح. إنّ أثر مقام الرضا وتأثيره في الرتبة الكماليّة لأهل بيت العصمة، سواء بلحاظ مدى عبوديّتهم وخضوعهم وخشوعهم للمعبود الأزلي وقربهم منه، أم بلحاظ مولويّتهم وسيادتهم وإمامتهم وولايتهم على سائر عباده؛ جليٌّ ظاهرٌ في الكثير من الروايات والأدعية والأحراز والزيارات، من ذلك ما ورد في هذه الزيارة نفسها: «وأشهد أنّ محمداً... ورسوله المرتضى... وارتضاكم لغيبه... ورضيكم خلفاء في أرضه... وبذلتم أنفسكم في مرضاته... وسننتم سنّته، وصرتم في ذلك منه إلى الرضا... بكم يُسلك إلى الرضوان... إنّ بيني وبين الله عزّ وجلّ ذنوباً، لا يأتي عليها إلاّ رضاكم..». وجاء في الدعاء حين الزوال في أيام شهر شعبان الشريف: «اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد صلاةً كثيرة تكون لهم رضا»[1].

* * *

---

١. مفاتيح الجنان، ص٢٨٨، أعمال شهر شعبان المعظّم.

# وَالمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ الله

كلمة «مستقرّين» جمع «مستقرّ»، مشتقّة من المادّة «قرر»، والأصل فيها معنيان:

١. القُرّ وهو البَرْد، وقولهم: أقَرَّ اللهُ عينَه، زعم قومٌ أنّه من هذا الباب، وأنّ للسُّرور دَمعةً باردة، وللغمّ دمعةً حارّة، ولذلك يقال لمن يُدعىٰ عليه: أسخَنَ الله عينه.

٢. التمكّن والثبات، ومنه القُرارة: ما يلتزِق بأسفلِ القِدْر، كأنّه شيءٌ استقرَّ في القِدْر. ويسمّىٰ الاعتراف بحقّ الآخر إقراراً ـ وضدُّه الجحود ـ لأنّه إذا أقَرَّ بحقٍّ فقد أقَرَّهُ قرارَهُ. وقال قومٌ في الدُّعاء: أقرّ الله عينه: أي أعطاه حتىٰ تَقِرَّ عينُه فلا تطمَحَ إلىٰ من هو فوقه. ويوم القَرِّ: يومَ يستقرُّ الناسُ بمنىً، وذلك غداةَ يومِ النَّحر[١]. وهو حادي عشر ذي الحجّة.

وبعضهم وإن أنكر الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم وجعل لهذه المفردة

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة «قرّ».

معنىً واحداً[١]؛ لكنّه يقرّ باستعمالها في المعنيين المذكورين فيه وفي غيره، سواء بنحو الاشتراك اللفظي الذي يقول به جماعة، أم بنحو الاشتراك المعنوي، كما يقول به منكره؛ إذ لا فرق من هذه الجهة. ومن موارد الاستعمال القرآني لهذه المفردة في المعنى الأول: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢]، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾[٣]، واستعمالها في المعنى الثاني في مثل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[٤]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[٥]، إلى غيرهنّ من الآيات.

والمراد بهذه الكلمة هنا هو المعنى الثاني؛ لكثرة استعمال هذه المفردة بصيغة «استفعال» في معنى الثبوت والتموضع، وقد جاء عنوان «المستقرّ» في القرآن والروايات مقابلاً لعنوان «المستودَع»، كما في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[٦]. علاوةً على أنّ إرادة المعنى الأول تستدعي اقتران هذه المفردة بكلمة «عين» دوماً، فيقال: «قرّة عين» أو «قرير العين» وما شابه من تركيبات.

وكلمة «أمر» ذُكر لها معنيان[٧]:

١. نقيض النهي[٨]، وجمعه «أوامر»، كما في آية: ﴿لايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٩].

---

١. انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادة «قرّ».

٢. السجدة: ١٧.

٣. طه: ٤٠.

٤. الأحزاب: ٣٣.

٥. الفرقان: ٧٦.

٦. الأنعام: ٩٨.

٧. ولها أيضاً معان ثلاثة غير معروفة: ١ ـ النماء والبركة. ٢ ـ العلامة. ٣ ـ التعجّب، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ (الكهف: ٧١) انظر: معجم مقاييس اللغة، ج١، ص١٣٧.

٨. كتاب العين، مادة «أمر».

٩. الأنبياء: ٢٧.

٢. الشأن والعمل والأمر، وجمعه «أمور»، كما في آية: ﴿إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[١].

فعلى هذا يكون معنى «المستقرّين في أمر الله» بلحاظ كلا المعنيين: ثبوت واستقرار المستقرّين في أوامر وشأن الله تعالى.

## العباد المخلَصون

إنّ أوصاف الإنسان بلحاظ الثبات وعدم الثبات تابعة لمعرفته وعمله، بمعنى أنّه كلّما زادت معرفته بأمر من الأمور الحسنة، وازداد حرصاً على عمله والإتيان به؛ كان اتّصافه به أشدّ، وكان ذلك الأمر فيه أشدّ رسوخاً.

وحيث إنّ الإيمان من الصفات النفسانيّة فقد قسّمته الروايات إلى مستقرّ ومستودع، «فالمستقرّ قوم يعطون الإيمان ومستقرّ في قلوبهم، والمستودع قوم يعطون الإيمان ثمّ يُسلَبونه»[٢]، وفي رواية أخرى: «ما كان من الإيمان المستقرّ فمستقرّ إلى يوم القيامة [أو أبداً] وما كان مستودعاً سلبه الله قبل الممات»[٣].

ولا شكّ في نفع الإيمان المستقرّ يوم القيامة؛ لأنّ النجاة في ذلك المحشر العظيم نصيب المحشور مؤمناً، أمّا الإيمان المستودع الذي لا يصحب الإنسان إلى ذلك اليوم فهو إنّما يقرّب المستودَع فيه إلى الحياة الإنسانيّة، وينأى به عن الحيوانيّة. قال الإمام الصادق عليه السلام في شأن حياة الزبير بن العوّام: «... ولقد مشى الزبير في ضوء الإيمان ونوره حين قُبض رسول صلى الله عليه وآله، حتّى مشى بالسيف وهو يقول: لا نبايع الاّ

١. البقرة: ٢١٠.

٢. بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٥٩، نقلاً عن تفسير العياشي، ذيل الآية ٩٨، من سورة الأنعام.

٣. تفسير العياشي، ص٣٧١، ح٧٢.

عليّاً»[١].

إنّ للائتمار بأمر الله وامتثاله درجاتٍ متفاوتة، فمن الناس من يعبده علىٰ حرف، ويتخلّىٰ عن تكليف العبوديّة بأقلّ أذىً يمسّه، وبعضهم مستعدّ لبذل المال في سبيل الطاعة، وبعض هيّأ نفسه للتضحية بجاهه وكرامته و... وهناك من وطّن نفسه علىٰ التضحية بكلّ شيء ووضع كلّ ما يملك علىٰ مذبح الفداء للدّين، كما فعل أمير المؤمنين ليلة المبيت والإمام الحسين عليهما السلام في صحراء كربلاء. ولا ريب في أنّ مثل هؤلاء هم المستقرّون علىٰ الحقيقة في أمر الله تعالىٰ، وهم الجديرون في واقع الحال بمقام الإمامة، وبالإضافة إلىٰ هذا الكمال الفريد فهم يتحمّلون مثقلات شدائده (الأعمّ من الجهاد الأكبر والأوسط بما لا يتنافي والعصمة، والجهاد الأصغر حتّىٰ الشهادة، والأسر ورفع الرؤوس علىٰ الرماح، والسجن والعذاب و... والتضحية في مجال تبليغ الدين وهداية الخلق وحماية الحقّ و...)، بل هم يعشقون ذلك عشقاً يشتاقون معه للفيض الإلهي.

والحاصل: إنّهم لا يتوانون عن القيام بأيّ تكليف، سواء علىٰ المستوىٰ الشخصيّ الحقيقيّ؛ أم علىٰ المستوىٰ الحقوقي القياديّ.

ما تقدّم بيانه كان مبنيّاً علىٰ اعتبار كلمة «أمر» بمعنىٰ نقيض النهي. أمّا علىٰ اعتبار أنّها بمعنىٰ «الشأن والعمل» فيكون معنىٰ هذه الفقرة أنّهم عليهم السلام بسبب استقرارهم وثبوت أقدامهم في الأمور التشريعيّة مستقرّون كمال الاستقرار في الشؤون التكوينيّة. وبما أنّ جملة «أمر الله» هنا مطلقة فهي تشمل كلّ ما له ربط وصلة به تعالىٰ، واستقرارهم في كلّ مرحلة متناسب مع تلك المرحلة؛ فاستقرارهم في شأن التوحيد مثلاً بمعنىٰ أنّه لا طريق للشرك إلىٰ حريمهم المقدّس، في أيّ

---

١. المصدر نفسه، ص٣٧١، ح٧١.

مرحلة من المراحل، من ذات وصفات وأفعال وعبادة وخوف ورجاء و...، مع ما للشرك من لطافة المدخل إلى قلب الإنسان يتضاءل إلى جنب لطافته وخفائه دبيبُ النملة السوداء على الصخرة السوداء في الليلة الدجنة[١]. واستقرارهم في الولاية التكوينيّة بمعنى أنّ مقام الولاية غير قابل للسلب منهم، وأنّهم لا يُعملونه فيما لا إذن لهم.

وهنا احتمال آخر، وهو أن تكون هذه الفقرة على غرار أخواتها السابقات، آتية في سياق بيان هداية الأئمّة الأطهار للناس؛ فالمعنى أنّهم يجهدون كي يستقرّ الناسُ في أمر الله وطاعته.

## إشارات

لعنوان «الأمر» مضافاً إلى ما تقدّم معنى آخر اصطلاحي، يُقصد منه عالم الملكوت وما هو أعلى منه، وهو الموجود المجرّد المنزّه عن قيد الزمان والمكان، فلا هو زمانيّ ولا مكانيّ، وبالتالي فهو بالضرورة غير تدريجيّ التخلّق، وليس بذي قوّة واستعداد وتدرّج في صيرورته، ومثل هذا الموجود يكون بمحض إرادة المبدأ الفاعليّ، من غير فترة. والمستفاد من آية: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢] ومثيلاتها من الآيات، أنّ الأمر الإلهيّ الخاصّ هو الإيجاد الملكوتي، الذي هو عين الوجود، فلا فاصل بين العدم وبين المتحقّق بالأمر (كنْ)، المذكور جواباً بصيغة الفعل المضارع غير المجزوم (فيكونُ)، وإلاّ لكان مجزوماً، فهو جواب لسؤال مقدّر، هو: ما أثر الأمر الالهيّ؟ وجوابه إنّه «فيكونُ»، فلا يكون إلاّ المطابق لأمر الله. ولأنّ هذا «الأمر» ليس من سنخ الأوامر أو الأمور المعروفة عندنا، فقد ذُكر بصبغة ملكوتيّة، فجاءت بعد تلك الآية المذكورة ختامُ سورة يس: ﴿فَسُبْحَانَ

١ . للمزيد انظر فقرة: «المخلصين في توحيد الله»، الإشارة العاشرة.

٢ . يس: ٨٢.

الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

## ٢ ـ دور الإنسان في الأمر الملكوتي

لا ينحصر حضور الإنسان الكامل في منطقة الأوامر التكليفيّة ولا ظهوره في منطقة الأمور والشؤون الإلهيّة؛ بل له مستقرٌّ أيضاً في بحبوحة الأمر الملكوتي المجرّد، المتعالي على الزمان والمكان بما يؤهّله لأن يكون دليل القلوب والجوانح، وهادي الأعمال والجوارح بإذن الله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ...﴾[٢]؛ وذلك لأنّ لازم الصدور الأول الوساطة في كافّة مجاري الصدور ومجالي الظهور اللاحقة، وكما أنّ الناسوتيين مطيعون لأوامر أولي الأمر: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾[٣]، فإنّ الملكوتيين مهتدون بهدي وليّ الأمر الملكوتي؛ لأنّ الوليّ الإلهيَّ المطلق (الإنسان الكامل المعصوم)، مستقرٌّ في الأمر الملكوتي المتحقّق بـ «كُنْ فيكون».

## ٣ ـ الاستقرار في الأمر الإلهي وتعليم الملائكة

لا يحدُّ الإنسانَ الكاملَ المعصومَ مقامٌ معلومٌ؛ لأنّه مظهر الاسم الأعظم لله سبحانه، بخلاف الملائكة، فإنّها ذوات مقامات معلومة، وكلٌّ منها لا يتعدّى منزلته الخاصّة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[٤]؛ من هنا كان الإنسان الكامل معلّمَ الملائكة ومنبئها بأسماء الله الحسنى.

---

١. يس: ٨٣.

٢. الأنبياء: ٧٣.

٣. النساء: ٥٩.

٤. الصافات: ١٦٤.

وحيث إنّ تقسيم الأمر بعهدة فريقٍ من الملائكة: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾[1]، وتدبير الأمر بعهدة فريقٍ آخر: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[2]، وهذان الفريقان ـ كغيرهم من الملائكة ـ من المتعلّمين بفناء الإنسان الكامل؛ فلا بدّ أن يكون معلّمها مستقرّاً في الأمر الإلهيّ، وذا قدم راسخ ومقام شامخ لا يُسامى؛ ليكون جديراً بتعليم المقسّمات والمدبّرات أمراً.

وبعبارة أخرى: إنّ استقرار الإنسان المعصوم في الأمر الملكوتي ضروريّ لمقام تعليم الملائكة المكلّفة بتقسيم الأمور وتدبيرها، ولا أثر في هذا المعنى للفروق المذكورة بين معاني «الأمر»، فكلّ «أمر» ـ بأيّ معنى كان ـ ما دام بعهدة المقسّمات والمدبّرات فهو داخل في سلطة المستقرّين في «الأمر» الملكوتي؛ ليكونوا ملهمين ومعلّمين للملائكة من جهة، وليكونوا مؤهلّين لتلقيّ كافّة الأمور التي تتنزّل الملائكةُ والرُّوحُ بها ليلةَ القدر من جهةٍ أخرى.

## ٤ ـ شرط إقامة الأمر الإلهي

يتوّفر الإنسان المعصوم على النصاب الكامل والشرائط المطلوبة لإقامة الأمر وإحيائه بما يتمتّع به من ملكة العصمة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقيمُ أمر الله الا من لا يصانع، ولا يصارع، ولا يتّبع المطامع»[3].

ونزاهة المستقرّين في أمر الله عن رجز المصانعة ورجس المضارعة والطمع معلوم متيقّن؛ لأنّهم «موضع سرّه، ولجَأُ أمره، وعَيْبة علمه، وموئل حكمه،

---

١ . الذاريات: ٤.

٢ . النازعات: ٥.

٣ . نهج البلاغة، الحكمة ١١٠.

وكهوف كتُبه، وجبال دينه...»[١].

## ٥ ـ مظاهر الاستقرار في أمر الله

المعنىٰ الجامع لاستقرار الإنسان الكامل في أمر الله له مظاهر، منها ما جاء في هذه الزيارة الجامعة، مثل: «المظهرين لأمر الله ونهيه»، «وهم بأمره يعملون»، «أولي الأمر»، «القوّامون بأمره»، «وأمره إليكم»، «وأمركم رشد». فيلاحظ في هذه الفقرات ذكر عنوان «الأمر» كمحور، علاوة علىٰ مطالب أخرىٰ كثيرة مذكورة كمصاديق لأمر الله تعالىٰ، وإن لم يُذكر فيها عنوان «الأمر»، كما في هذا المقطع: «بكم فتح الله، وبكم يختم، وبكم ينزّل الغيث، وبكم يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلاّ بإذنه».

* * *

١ . المصدر نفسه، الحكمة ٢.

# والتّامّين في محبّة الله

كلمة «تامّين» جمع اسم الفاعل «تامّ» للفعل «تمّ»، وكلمتا «التمام والكمال» اسما مصدر، يقابلهما «النقص»، وهما ليسا بمترادفين وإن تقاربا في المعنى، واستعملا بمعنى واحد بالتسامح العرفي، بل إنّهما متفاوتان بحسب دقيق النظر اللغوي.

قال الراغب الأصفهاني: «تمام الشيء: انتهاؤه إلى حدّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه»[1]. وذكر أنّ «كمال الشيء: حصول ما فيه الغرض منه»[2]. وذكر بعضهم أنّ أغلب استعمال التمام في الكمّيّات، وأغلب استعمال الكمال في الكيفيّات[3].

وكلمة «المحبّة» مسلولة من «حبب»، وضدّها «البغض»[4]. وقد جاء الحبُّ

---

١ . مفردات غريب القرآن، مادّة «تمّ».

٢ . مفردات غريب القرآن، مادّة «كمل».

٣ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادّة «تمّ».

٤ . قال في كتاب العين: «أحبَبْته نَقيضُ أبغضته».

مقابلاً للبغض في لسان الروايات أيضاً، من ذلك رواية: «هل الدّين إلاّ الحبّ والبغض»[١]، ومقابلاً للكراهة، كآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٢]. ووضوح معنى هذه المفردة يغنينا عن تحقيقه لغويّاً.

قال الراغب: «فمحبّة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبّة العبد له طلب الزلفى لديه»[٣].

ولا يخفى أنّه بلحاظ التوحيد الأفعالي وأنّ كلّ جمال وكمال وجوديّ يرجع إلى الذات الإلهيّة فإنّ محبّة الله للعبد محبّة لذاته تعالى في حقيقة الحال؛ لأنّ كمال العبد مظهر من كمال الله تعالى.

## أصل المحبّة

الإنسان كائن ناشدٌ للكمال، فإذا ما رأى كماله في شيءٍ ما أو إنسانٍ ما أحبّه وأحلّه قلبه، وسعى للتقرّب منه والتشبّه به؛ وفي ضوء ذلك فالمحبّة معلولة المعرفة من جهة، وعلّة للانقياد للكامل من جهة أخرى، فكلّما ازدادت المعرفة اشتدّت المحبّة، وبالتالي تترسّخ الطاعة كنتيجة حتميّة.

وعليه فالمحبّة منوطة بأمرين: كمال المحبوب، ومعرفة المحبّ به وإدراكه له. وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا تجلّى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبّة»[٤]. والله تعالى يعلم علماً لا يعلمه سواه بكمالات ذاته الأقدس، فهو يعشق ذاته عشقاً لا يضاهيه عشقُ شيء لذاته.

---

١. بحار الأنوار، ج٦٥، ص٦٣.

٢. الحجرات: ٧.

٣. مفردات غريب القرآن، مادّة «حبب».

٤. مصباح الشريعة، ب١، ص٢.

وليس في الموجودات الإمكانيّة ندٌّ ومثيل للأئمّـة عليهم السلام في معرفـة الله سـبحانه، وبالتالي فلا موجودَ يدانيهم في محبّتهم وعشقهم له تعالىٰ. وببيان آخر: ليس بامكان الموجودات الإمكانيّةِ أن تعرف اللهَ أكثر من معرفة الأئمّة به، وليست مكلّفة بـأكثر ممّا يمكنها، وما عليها إلاّ أن تعترف بالعجز.

وعلىٰ هذا لنـا أن نقـول: إنّ الأئمّـة عليهم السلام بلغـوا الـتمام في معرفـة الله في نطـاق المقدور. فتكون محبّتهم له محبّة تامّة، وبالتالي تكون فعـالهم صـادرة عـن عـشقٍ لـه سبحانه.

# إشارات

## ١ ـ مراحل المحبّة

المحبوب للإنسان هو مـا يلائـم طبعـه ويلتـذّ بـه، ويجـد نفـسه منجـذباً إليـه، ومبغوضه هو المؤلم له والمعكّر لمزاجه، فيجد في نفسه نفوراً منه. وللمحبّة مراحـل، آخرها مرحلة تسمّي «العشق»[١]، وفي الرواية: «أفـضل النـاس مـن عـشق العبـادة فعانقها»[٢]. وللبغض مراتب أيضاً، آخرها تُسمّىٰ «المقت»: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاتَفْعَلُونَ﴾[٣].

شعر:

ليس للطبائع تأثير سوىٰ الجذب...

والحكماء يسمّون هذا الجذب عشقاً[٤]

---

١ . انظر: المحجّة البيضاء، ج٨، ص٦٤.

٢ . أصول الكافي، ج٢، باب العبادة، ح٣.

٣ . الصف: ٣.

٤ . بيت بالفارسية نصّه:

طبـايع جـز كشـش كاري نـدانند حكيمان، اين كشش را عشق نامند

وعليه فما يكون خلواً من اللذّة والألم فليس محبوباً ولا مبغوضاً. ثمّ إنّ للمحبّة ـ التي هي من شؤون العقل العملي ـ مراحل أوليّة، متمثّلة في عنصري الجذب والدفع، وهما موجودان حتّىٰ في الجمادات، وما الغضب والشهوة في الإنسان سوىٰ مرحلتين متقدّمتين من الجذب والدفع، تتبلوران في أعلىٰ مراحلهما في «التولّي والتبرّي»، وتحصلان بعد انتصار الإنسان في الجهاد الأوسط وموازنة قوّتي الجذب والدفع، ومن ثمّ تدخلان ـ بضوابط وأطر دقيقة ـ في عداد فروع الدين،كالصلاة والصيام والحجّ والجهاد وغيرها.

## ٢ ـ المحبّة العاطفيّة والعقليّة

تكون المحبّة في حدّ الوهم والخيال تارةً، وفي حدّ العقل النظريّ تارةً أخرىٰ. والأولىٰ هي المحبّة العاطفيّة، والثانية هي العقليّة، وهي من مقتضيات العقل العملي.

ولربما أحاط امرئ خُبراً بكمال المعقول وعشقه بقلبه، لكنّه عاجز عن البرهنة عليه. وهذا النمط من المحبّة ـ وهي شأن متوسّطي المؤمنين والغالبة فيهم ـ أمرٌ جيّد ومرضيٌّ في نفسه؛ أجل، للإنسان الحكيم القدرة علىٰ البرهنة علىٰ مثل هذا النمط من المحبّة.

## ٣ ـ المحبّة المتضادة

إنّ المحبّة في الحقيقة تفريغ القلب للمحبوب، فموطنها قلب الإنسان، و: ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١]، ونحن نعلم أنّ وضع شيئين متضادّين في وعاء واحد يُفسد الاثنين أو أحدهما، وهو الأشدّ حساسيّة ولطافة.

---

١. الأحزاب: ٤.

ثمّ إنّ الحبّ الإلهي كالشمس الساطعة، وحبّ الدنيا كالليل الديجور، فكيف يجتمعان في مكان واحد؟! و «كيف يدّعي حبّ الله من سكن قلبه حبُّ الدنيا»[١] كلّا؛ فـ «كما أنّ الشمس والليل لا يجتمعان، كذلك حبّ الله وحبّ الدنيا لا يجتمعان»[٢]؛ لذا كان أهل بيت العصمة عليهم السلام يدعون الله تعالى أن يفرّغ قلوبهم من كلّ شيء وأن يملأه عشقاً له: «إلهي! فاجعلنا ممّن... فرّغت فؤاده لحبّك»[٣]، وكانوا يردّدون في نجواهم: «إلهي! فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبّتك بمجامع قلوبهم»[٤]، ويوصون الآخرين أيضاً بأن: «أحبّوا الله من كلّ قلوبكم»[٥].

ومحبّة محبوبي الله امتثالٌ لأمر الله، بل ذلك على الحقيقة محبّة لله ذاته، لا منافية لها: «أسألك حبّك وحبّ من يحبّك وحبّ كلّ عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبّ إليّ ممّا سواك»[٦]. وجاء في هذه الزيارة الخطاب إلى تلك الذوات المقدّسة: «من أحبّكم فقد أحبّ الله».

### ٤ ـ تشخيص المصداق

إنّ محبّة الباري تعالى لهي في الذروة الشامخة من الدرجات الروحيّة، وما بعدها من مقامات معنويّة ـ كالشوق والأنس والرضا و... ـ ما هي إلاّ قطافها وثمرات

---

١ . شرح غرر الحكم، ج ٤، ص٥٦٦.

٢ . المصدر نفسه، ص٦٢٤.

٣ . مفاتيح الجنان، مناجاة المحبّين.

٤ . المصدر نفسه، مناجاة العارفين.

٥ . كنز العمّال، ج١٦، ح٤٤١٤٧.

٦ . مفاتيح الجنان، مناجاة المحبّين.

من ثمارها، وما قبلها من مقامات ـ كالتوبة والصبر والزهد و... ـ مقدّمات لها[١].

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّ أطيب شيء في الجنّة وألذّه حبّ الله والحبّ في الله والحمد لله»[٢].

شعر:

احمل روحك على كفّيك واسلك طريق العشق الصافي...

ففي درب المعبود الحقّ لن يقبلوا منك درهماً ولا ديناراً[٣]

إنّ معرفة المعايير وتشخيص المصاديق (بمعنى تطبيق المعايير على الأفراد الخارجيّة) عقبتين تعترضان مسير تكامل الإنسان؛ إذ من الممكن أنّ يضلّ المرء حينَ تهيئة الآليات والمقدّمات، أو يعمى عليه الطريق أثناء سيره فينحرف عن المسار الصحيح؛ لذا يسارع أنبياء الله وأوصياؤهم إلى عون طالبي الهداية في تلك المزالق؛ لأنّهم المكلّفون بهداية الناس.

لقد قالوا في أهميّة المحبوب: «المرء مع من أحبّ»[٤]، وسرّ هذه المعيّة أنّ المرء يحيا تلقائيّاً في ظاهره وباطنه مع حبيبه، سواء أشَعرَ بذلك أم لا، والقرين على الحقيقة بانٍ لشخصيّة قرينه، بل هما متّحدان؛ لذا فإنّ قيمة المرء من قيمة قرينه، وله من السعة الوجوديّة بقدر ما لقرينه ووليّه، سواء كان وليّه حجارةً وطيناً، أم نباتاً وزهوراً، أم غير ذلك، فالنتيجة واحدة؛ وهي أنّ حشر أحدهما حشرٌ للآخر أيضاً.

قال الإمام الرضا عليه السلام في وصيّته لابن شبيب: «يابن شبيب!... وعليك بولايتنا،

---

١. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٣.

٢. مصباح الشريعة، ص٤٤٣، ب٩٧.

٣. مثنوي طاقديس، ص٤٥٨. والنصّ الفارسي لهذا البيت هو:

جان بر كف خود گير صفايي به ره عشق          در كوي بُتان درهم و دينار نخواهند

٤. أصول الكافي، ج٢، ص١٢٦، ح١١.

فلو أنّ رجلاً تولّى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة»[١].

غير أنّ بعض طلاّب الكمال تفوتهم الحقيقة في تشخيص المصداق الحقيقي، فيحبّون ما لا واقع له؛ بينما لو اشتعل في قلوبهم العشق الإلهي لما يمّموا غيره: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك، حتّى لم يحبّوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك»[٢]؛ لذا كشف الأدلاّءُ السماويّون للبشر عن مصداق ذلك المعيار والمحبوب الحقيقيّ، وهو «الله» سبحانه، الباقي الدائم، وفنّدوا ما عداه من الموجودات الفانية؛ لأنّها غير جديرة بالحبّ: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٣].

شعر:

حيث إنّ عشق الموتى زائل...

وحيث إنّ الميّت لا يقدم علينا

فإنّ عشقَ الحيِّ أحلى في الروح والنظر...

كلّ صبح يصبح أشدّ غضاضةً من نور الزهر

فلتعشق ذلك الحيّ فإنّه الباقي...

الذي يسقيك من شراب الروح

فلتعشقه فإنّ كلّ الأنبياء...

وجدوا أنّ بعشقه تكون كلّ الأشياء

١ . بحار الأنوار، ج٤٤، ص٢٨٦. والولاية في هذه الرواية إمّا بمعنى المحبّة وإمّا بمعنى التولّي والائتمام، المتضمّن لمعنى المحبّة والودّ أيضا؛ لأنّ قبول ولاية الله أوليائه وإمامتهم نافع بشرط المحبّة والمودّة القلبيّة.

٢ . مفاتيح الجنان، دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.

٣ . الأنعام: ٧٦.

فلا تقل أنت: أين نحن من ذلك الملك!...

فمع الكرماء لا تعسر المعاملة[١]

فالمحبوب الحقيقي الوحيد هو الله، ومحبّة غيره من أنبياء وأولياء وآباء وأمّهات وأبناء وأخوة في الدين والصالحين مستساغة لأنّها ناشئةٌ من محبّة الله وبأمره. وإذا ما عارضت محبّةُ غيره محبّته تعالى، وجب اختيار العشق الإلهي وترجيحه على سائر ضروب المحبّة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

وبعد بيان المعيار والكشف عن مصداقه تأتي المرحلة الثالثة، وهي بيان سبيل الوصول إلى المحبوب المدلول عليه. وفي هذا الصدد، ذكروا قانوناً ومنهاجاً كلّياً، وهو: إنّ متابعة حبيب الله سيرٌ في طريق محبوب الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٣].

شعر:

في تلك الخلوة غدا محبوباً... وحقّا غدا مجذوباً

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيت٢١٨. النصّ الفارسي لهذه الأبيات هو:

زان كه عشق مردگان پاينده نيست … زان كه مرده سوي ما آينده نيست

عشق، زنده در روان و در بصر … هر دمي كه باشد ز غنچه تازه تر

عشق آن زنده گزين كاو باقي است … كز شراب جان فزايت ساقي است

عشق آن بگزين كه جمله انبيا … يافتند از عشق او كار وكيا

تو مگو ما را بدان شه بار نيست … با كريهان كارها دشوار نيست

٢ . التوبة: ٢٤.

٣ . آل عمران: ٣١.

عرف طريقه من: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾... فاذا به في دار: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾
فصار تابعاً بالروح والمعنىٰ... وغدا عابداً في مقام المعنىٰ[١]

قال أمير المؤمنين عليه السلام في متابعة النبيّ والتأسّي به: «فتأسَّ بنبيّك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله، فإنّ فيه أسوةً لمن تأسّىٰ وعزاءً لمن تعزّىٰ، وأحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه، والمقتصّ لأثره»[٢].

ولا شكّ في أنّ متابعة أهل بيت العصمة والطهارة متابعةٌ للرسول؛ لأنّهم منه بمنزلة نفسه، كما كان عليّ: ﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾، وهم بمجموعهم نورٌ واحد يشعّ من أربعة عشر رواقاً. قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «خُلقتُ أنا وعليّ بن أبي طالب من نور واحد، فمحبّي محبّ علي ومبغضيّ مبغض عليّ»[٣].

شعر:

إنّ النبيّ والولي وإن هما اثنان... لكنّهما واحد، مثل اللسان والقلم
فحيث إنّ صفات محمّد في عليّ... فإذا قلت: «يا محمد» قلت: «يا علي»[٤]

## ٥ ـ منزلة المحبّة الإلهية

إنّ حبّ الله أضخم رصيد يحصل عليه السالك إلى الله؛ لذا قال سيّد الشهداء

---

١. شرح گلشن راز، ص٧٣٩. والنصّ الفارسي لهذه الأبيات هو:
در آن خلوت سرا محبوب گردد    به حق يكي بارگي مجذوب گردد
ز ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ﴾ يابد او راه    به خلوت خانه ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾
بود تابع ولي از روي معنا    بود عابد ولي در كوي معنا
٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠.
٣. بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢٦٦.
٤. بيتان بالفارسية نصّهما:
نبيّ و وليّ هر دو نسبت به هم    دوتا و يكي چون زبان و قلم
چون كه اوصاف محمد با علي است    گر تو گويي «يا محمد»، «يا علىٰ» است

في المحروم منه: «إلهي!... خسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيباً»[١].

شعر:

عجباً! ما أحسن قول في طريق الحجاز... قاله ذلك العربيّ شعراً بلغة الحجاز
كلّ من لم يعشق الوجه الحسن... قرّب الرّحل إليه والرّسن
لا علم سوى علم العاشق... وما بقي تلبيس إبليس الشقيّ
إنّ الصدر الخالي من محبّة الجميل... جراب بالٍ مشحون بالعظام الرميم
إذا ما خلى الصدر من معشوق... فليس هو بصدر، بل هو صندوق قديم!
والقلب الخالي من محبّة ذلك المعشوق... فاحسبه حجارةَ استنجاءٍ للشيطان
إن أنت أخليتَ قلبك لغير علم العشق... فقد أعطيته الشيطانَ حجر استنجاء!
فلتخجل ممّا تصنع أيّها المخادع... فإنّ حجر استنجاء الشيطان في حجرك!
واغسل صفحة القلب من روث الشيطان... أيّها المعلّم فلتعلّم درسَ العشق[٢]

ومن دعاء النبيّ الأكرم ﷺ: «واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد»[٣].

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء عرفة للإمام الحسين.

٢. كليّات الشيخ البهائي، نان وحلوا، ص٤ ـ ٥. قصيدة باللغة الفارسية نصّها:

وه چه خوش مي گفت در راه حجاز ... آن عرب شعري به آهنگ حجاز
كلّ من لم يعشق الوجه الحسن ... قرّب الرَّحل إليه والرَّسن
علم نبود غير علم عاشقي ... ما بقي تلبيس ابليس شقي
سينه خالي ز مِهر گلرخان ... كهنه انباني بوَد پر استخوان
سينه گر خالي ز معشوقي بود ... سينه نبود، كهنه صندوقي بود
دل كه فارغ شد ز مهر آن نگار ... سنگ استنجاي شيطانش شمار
تو به غير از علم عشق ار دل نهي ... سنگ استنجا به شيطان مي دهي
شرم بادت زان كه داري اي دغل ... سنگ استنجاي شيطان در بغل
لوح دل از فضله شيطان بشوي ... اي مدرّس درس عشقي هم بگوي

٣. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٦.

ولقد بكىٰ شعيب عليه السلام من حبّ الله عزّ وجل حتّىٰ عمي، فردّ الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثمّ بكىٰ حتّىٰ عمي فردّ الله عليه بصره، ثمّ بكىٰ حتّىٰ عمي فردّ الله عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحىٰ الله إليه: يا شعيب! إلىٰ متىٰ يكون هذا؟ أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيّدي! أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك؛ ولكن عقد حبّك علىٰ قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحىٰ الله جلّ جلاله إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسىٰ بن عمران[1].

أجل؛ إنّ من يذق حلاوة حبّ الله يخفق قلبه وتضطرب نفسه، ومن يقول: «فهبني... صبرت علىٰ عذابك فكيف أصبر علىٰ فراقك...»[2] فقد سكن العشق الإلهي قلبه، فذاق حلاوته: «وعزّتك وجلالك لقد أحببتك محبّةً استقرّت حلاوتها في قلبي»[3]، فمن يخشىٰ هجران الحبيب ويضيق صدره من انقطاع الوصال؛ فلا بدّ أن يضطرب هذا الاضطراب المحمود.

## ٦ ـ آثار المحبّة

### أ ـ ترك الذنب

المحبّة شجرةٌ طيّبة، أصلها في عمق الوجود الإنساني، وفرعها وظلّها بسعة سماء المعنوية، وثمرة شجرة طوبىٰ هذه ـ علاوة علىٰ كونها عقيدة صائبة وأخلاق صالحة ـ فِعالٌ جميلة خيّرة تظهر من جوارح المرء.

١ . بحار الأنوار، ج١٢، ص٣٨٠ ـ ٣٨١. وقد نظم هذا شعراً الملاّ أحمد النراقي (صاحب معراج السعادة)، مطلعه:

گريه كرد از بس شعيب تاجدار        روزهاي روشن وشب‌هاي تار

(مثنوىٰ طاقديس، ص٢١٣).

٢ . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٣ . بحار الأنوار، ج٩١، ص١٠٨

وكما أنّ إثمار الشجرة وطيب ثمارها وحسن لونها علامة على حياتها وغضاضتها، فإنّ أعمال المرء أيضاً علامة على نشاط شجرة المحبّة في وجوده أو جفافها: «من أراد منكم أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله منه عند الذنوب»[1].

إنّ أول أثر للمحبّة الصادقة طلب رضا المحبوب وتقديمه على رضا غيره: «دليل الحبّ إيثار المحبوب على ما سواه»[2]. وإيثار رضا المحبوب يستلزم ألاّ يحوم المحبّ حول المعاصي لئلاّ تُحاط روحه بغبارها. وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما أحبّ الله عزّ وجلّ من عصاه»، ثمّ تمثّل فقال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا محال في الفعال بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعته إنّ المحبّ لمن يحب مطيع[3]

شعر:

لا تسمّي القلبَ الخالي من العشق قلباً...

بل أرمه بعيداً واطلب قلباً آخر

إذا ما أشعل العشق ناراً في أيّ قلبٍ...

أحرق كلّ أشواك مرض السوداء[4]

---

١. بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٨، ح١١.

٢. المصدر نفسه، ص٢٢، ح٢٢.

٣. المصدر نفسه، ص١٥.

٤. مثنوي طاقديس، ص١٨٣. بيتان بالفارسية نصّهما:

دل كه بي عشق است آن را دل مگوي دور افكن رو دل ديگر بجوي

عشق به هر دل كه آتش بر فروخت خار سوداهاي فاسد جمله سوخت

مع العلم أنّ «الماليخوليا داء معروف ينشأ من السوداء، وأكثر حدوثه في شهر شباط، يفسد العقل ويقطب الوجه ويديم الحزن، ويهيم بالليل ويخضرّ الوجه، ويغور العينين وينحل البدن». (تاج العروس، مادّة: قطرب).

وهذه الطاعة طاعة شاملة، لا تختصّ ببعدٍ دون آخر، بـل المحـبّ مطيـع دومـاً لمحبوبه في كلّ شيء: «وإذا هاج ريح المحبّة واستأنس ظلال المحبوب، آثر المحبوب على ما سواه، وباشر أوامره واجتنب نواهيه، واختارهما على كلّ شيء غيرهما»[١].

إنّ المذنب يلتذّ بالمعصية، وهو يحبّها وسببَها، ظنّاً منـه أنّ كمالـه في بلوغـه تلـك اللذّة المحرّمة، فللمعصية جذر في المحبّة وتعبّر عن حبّ، وإن كان ذلـك لا إراديّـاً، كما أنّ للتقوىٰ والتأثّم جذراً فيها، وحينما يرتكب المرء ذنباً فإنّ روحه تصبح سـاحة حرب بين محبّة الله ومحبّة اللذّة المحرّمة، والمحبّة الأشدّ سـتهزم الأضـعف وتلقيهـا خارجاً.

أمّا معنىٰ «التامّين في محبّة الله» فهو أنّ أفنية أرواح تلك الذوات المقدّسة ملؤهـا حبّ الله وعشقه تعالىٰ، ولا مكان خالٍ لمحبّـة سـواه: «واجعـل... وقلبـي بحبّـك متيّماً»[٢].

شعر:

صرتُ حارس حرم القلب كلّ الليل...

حتّىٰ لا أدع أحداً يرفع ستره سوىٰ حبّه[٣]

فلا أرضيّة ولا استعداد لمحبّة اللذّات المحرّمة في قلوبهم؛ كي يـسعوا وراءهـا، والنتيجة أنّهم باقون علىٰ عصمتهم، وإن كان من شأن الطبع الأوّلي للإنسان إمكان ارتكاب المعصية من كلّ أحد، وما من إنسان مجبورٌ علىٰ العصمة منها.

والحاصل: إنّ الطاعة إلىٰ حدّ العصمة من المخالفـة تجـلٍّ لمحبّـة الله، وتجـذّر في عشقه.

---

١ . مصباح الشريعة، ب١، ص٤.

٢ . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٣ . ديوان حافظ، الغزل ٣٤٢. بيت باللغة الفارسية نصّه:

پاسبان حرم دل شده ام شب همه شب          تا در این پـرده جـز اندیشـه او نگذارم

### ب ـ الحبّ المتبادل وغفران الذنوب

إنّ الطاعة ـ وهي في نفسها من آثار محبّة العبد لله متجليّةً في متابعة حبيبه ـ تستتبعُ محبّةَ الله للعبد ومغفرةَ ذنوبه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[١]، وذوقَ لذّةِ المناجاة والقرب منه سبحانه: «وإذا استقام على بساط الأنس بالمحبوب مع أداء أوامره واجتناب نواهيه، وصل إلى روح المناجاة والقرب»[٢].

ثمّ إنّ الله لا يعذّب أحبّاءه، كيف وقد قال تعالى ردّاً على اليهود الذين ادّعوا أنّهم أحباؤه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[٣]، وفي الرواية قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبّ الله عبداً لم يضرّه ذنبٌ، والتائب من الذنب كمن لا ذنبَ له»[٤]. والمراد أنّ من يُوفّق لأن يكون محبوباً عند الله باتّباعه لحبيبه ﷺ، فإنّ الله سيهيّء له من أمره مرفقاً لاجتناب الذنب، وإذا ما أذنب فسيوفّقه للتوبة وينشر له من رحمته؛ وبذلك لن تضرّه سالف ذنوبه مهما كثرت، فكما أنّ «الإسلام يجبّ ما كان قبله»[٥] فالتوبة تجبّ وتكفّر ما قبلها من ذنوب.

### ج ـ التمتّع بعين وإذن إلهيّتين (التمتّع بقوى ربانيّة)

إنّ حصيلة محبّة الله للعبد هي ما جاء في هذه الرواية: «... فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي

---

١. آل عمران: ٣١.

٢. مصباح الشريعة، ب١، ص٤.

٣. المائدة: ١٨.

٤. المحجّة البيضاء، ج٨، ص٦٣.

٥. بحار الأنوار، ج٦، ص٢٣.

يبطش بها»[١]، ومعلومٌ أنّ الجوارح ذات الصبغة الربانيّة لا تتلوّث بغبار الآثام. وفي رواية أخرىٰ عن الرسول الأكرم ﷺ قال: «إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه»[٢].

أمّا أولياء الشيطان الناشبين في حُبالته، العارين عن محبّة الله؛ فإنّ له السيطرة الكاملة عليهم؛ لأنّهم: «اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتّخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم... ونطق بالباطل علىٰ لسانه»[٣]. ومعلومٌ أنّ الجوارح الشيطانيّة لا تجترح سوىٰ الآثام، فصاحبها لا يرىٰ ولا يسمع ولا يقول إلاّ ما هو شيطانيّ، هذا.

وهناك فرق بين تبيين دور النوافل في الفوز بمحبّة الله، الوارد في الرواية، وبين ما ورد في الخطبة العلويّة في اتّخاذ الشيطان ملاكاً وإماماً؛ إذ إنّ الرواية بيّنت أنّ الله تعالىٰ يكون في مقام الفعل لسانَ محبوبه وعينَه، بحيث إنّ العبد الصالح المحبوب عند الله ينطق بلسان الله؛ أمّا الخطبة فقد بيّنت أنّ الشيطان هو من ينطق بلسان وليّه الطالح.

### د ـ المحبّة ملاك الإيمان والكفر

إنّ الجوارح المتّصلة بالله تعالىٰ لا أنّها لا تذنب وحسب؛ بل وتصبغ مجترحاتها كافّة بصبغة ربانيّة، بحيث تتّحد مع الأسماء والصفات الإلهيّة، وبالتالي تكون تجلّياً للحبّ والبغض الإلهي؛ لذا جاء في الحديث القدسيّ: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة»[٤]، بل وتكون في مرحلة عليا معياراً للإيمان والكفر: «لو ضربت خيشوم

---

١ . أصول الكافي، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذىٰ المسلمين واحتقرهم، ح٨.

٢ . المحجّة البيضاء، ج٨، ص٦٧.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ٧.

٤ . أصول الكافي، ج١، ص١٤٤.

المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني؛ وذلك أنّه قضى فانقضى على لسان النبيّ الأمّيّ ﷺ أنّه قال: يا عليّ! لا يبغضك مؤمن، ولا يحبّك منافق»[١].

وشاهد هذه الدعوى قصّة ذلك الأسود الذي قطع أمير المؤمنين عليه السلام يده حدّاً، «فأخذها بشماله وهي تقطر دماً، فاستقبله رجل يقال له: ابن الكوّاء فقال: يا أسود! من قطع يمينك؟ قال: قطع يميني سيّد الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين وأولى الناس بالمؤمنين...»، فذكر لعليّ أكثر من خمس وثلاثين فضيلة، «فعند ذلك قال له ابن الكوّاء: ويلك يا أسود! قطع يمينك وأنت تثني عليه هذا الثناء كلّه؟ قال: وما لي لا أثني عليه وقد خالط حبُّه لحمي ودمي»[٢].

وفي المقابل، هناك قصّة ابن ملجم المرادي الملعون، فقد ذكروا أنّه «لمّا جاء ابن ملجم وطلب منه البيعة، طلب منه فرساً أشقر فحمله عليه فركبه»، وهكذا أتى ابن ملجم أمير المؤمنين عليه السلام فبايعه فيمن بايع، ثمّ أدبر عنه فدعاه أمير المؤمنين عليه السلام فتوثّق منه وتوكّد عليه أن لا يغدر ولا ينكث، ففعل، ثمّ أدبر عنه فدعاه الثانية فتوثّق منه وتوكّد عليه ألاّ يغدر ولا ينكث، ففعل، ثمّ أدبر عنه فدعاه أمير المؤمنين الثالثة فتوثّق منه وتوكّد عليه أن لا يغدر ولا ينكث، فقال ابن ملجم لعنه الله: والله يا أمير المؤمنين ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أريد حباءه ويريد قتلي...»[٣].

وجاء عن الرسول الأكرم ﷺ: «لولا أنت يا عليّ لم يُعرف المؤمنون بعدي»[٤].

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٤٥.

٢. بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٨١.

٣. انظر: بحار الأنوار، ج٤٢، ص١٩٢ ـ ١٩٦.

٤. بحار الأنوار، ج٣٩، ص١٨.

وفي رواية أخرىٰ عنه: «من أحبّنا أهل البيت فليحمد الله علىٰ أوّل النعم، قيل: وما أوّل النعم؟ قال: طيب الولادة، ولا يحبنا إلاّ من طابت ولادته»[١].

وعلىٰ ضوء مثل هذه الرواية «كان الرجل من بعد يوم خيبر يحمل ولده علىٰ عاتقه، ثمّ يقف علىٰ طريق عليّ عليه السلام، فإذا نظر إليه أومأ بإصبعه: يا بنيّ! تحبّ هذا الرّجل؟ فإن قال: «نعم» قبّله، وإن قال: «لا» خرق به الأرض، وقال له: الحق بأمّك»[٢]. وفي الرواية عن جماعة من الصحابة، كأبي سعيد الخدريّ وجابر وزيد بن أرقم قالوا: «ما كنّا نعرف المنافقين علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ ببغض عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٣].

### هـ ـ الشوق إلى العبادة والعبوديّة

إنّ البعض يتوق لطاعة الله والتعبّد له، راغباً عن عصيانه والخروج عن العبوديّة له، والبعض الآخر بخلاف ذلك، والسرّ هو أنّ: ﴿اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[٤]؛ فطاعته تعالىٰ محبّبة مزيّنة للمؤمن، خاشعٌ لها قلبه، منسجمة مع روحه، ولا تخالف بينهما؛ لذا فهو يبادر إلىٰ الطاعة حتّىٰ في أشقّ الظروف، وليس كذلك الحال بين الطاعة وغير المؤمن، ولا بينها وبين غير الخاشع من المؤمنين؛ لذا يشقّ عليهما التعبّد، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[٥].

---

١. بحار الأنوار، ج٢٧، ص٤٦.

٢. المصدر نفسه، ج٣٩، ص٢٦٣.

٣. المصدر نفسه، ج٣٩، ص٢٦٣؛ وانظر: بهج الصباغة، ج٧، ص٤٣١ وما بعدها.

٤. الحجرات: ٧.

٥. البقرة: ٤٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان فيما ناجى الله عزّ وجلّ به موسى بن عمران عليه السلام أن قال له: يا ابن عمران! كذب من زعم أنّه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كلّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه؟»[١].

**و ـ إلقاء محبّة الآخرين**

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إذا أحبّ الله عبداً من أمّتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكّان عرشه محبّته ليحبّوه، فذلك المحبّ حقّاً، طوبى له ثمّ طوبى له، وله عند الله شفاعة يوم القيامة»[٢]. وهذا هو مفاد الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾[٣]؛ لأنّ الله تعالى مقلّب القلوب وهاديها، فلا يعجزه أن يعطف قلوب المجتمع الموحّد المحقّ نحو السالكين الصالحين، الذين مزجوا العقيدة الصائبة بالعمل الصالح؛ لأنّ أولئك الرجال الربانيّين أحبّوا الله بصدقٍ فأحبّهم، فتجلّت آثار محبّته تعالى في مجالي خلقتهم ومرائي وجوداتهم ومرايا عبوديّتهم.

## ٧ ـ ملاك دخول الجنّة والنّار

روي عن الرسول أنّه قال: «حبّ عليّ حسنةٌ لا تضرّ معها سيّئةٌ، وبغضه سيّئةٌ لا تنفع معها حسنة»[٤]. ولا يخفى أنّ ذيل الرواية موافق لكمٍّ كبير من الروايات،

---

١ . بحار الأنوار، ج١٣، ص٣٢٩.

٢ . مصباح الشريعة، ب٩٦، ص٤٣٨.

٣ . مريم: ٩٦.

٤ . بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢٦٦.

الدالّة على شرطيّة الولاية في قبول الأعمال[١]، لكنّ في ذيلها تأمّلاً يمكن توجيهه بما يلي:

**الأول:** إنّ شيعة عليّ عليه السلام لا يعصون، بمعنى أنّ محبّته تحجزهم عن الذنوب، فإذا ما عصى عاصٍ فهو ليس منهم أو أنّه ضعيف الصلة به عليه السلام.

**الثاني:** إنّ محبّ عليّ عليه السلام وإن دخل النار بسبب ذنوبه في مجال فروع الدّين، وعُذّب فيها بمقدارها؛ إلاّ أنّه غير مخلّد، لأنّه مطيع لله في الأصول والأسس القويمة للعبوديّة.

**الثالث:** إنّ وليّ عليٍّ عليه السلام الصادق في ولائه وحبّه يُوفّق للتوبة وحُسن الأوبة، فلا تضرّه حينئذٍ سالفُ سيّئاته.

**الرابع:** إنّ هذه الرواية وما ماثلها محكومة لروايات أخرى، كرواية: «خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن، ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النّار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً»[٢]. ومقتضى حكومة[٣] هذه الطائفة من الروايات على تلك أنّ الملاك هنا هو

---

١. انظر: وسائل الشيعة، ج١، كتاب الطهارة، أبواب مقدّمة العبادات، ب٢٩، قال مؤلّفه آخر الباب: «والأحاديث في ذلك كثيرة جدّاً»، وجاء في الرواية الخامسة عشر: «نزل جبرئيل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا محمّد! السلامُ يقرأك السلام، ويقول: خلقت السماوات السبع وما فيهنّ، والأرضين السبع وما عليهنّ، وما خلقت موضعاً أعظم من الركن والمقام، ولو أنّ عبداً دعاني منذ خلقت السماوات والأرضين ثمّ لقيني جاحداً لولاية عليّ لأكببته في سقر».

٢. بحار الأنوار، ج٤٦، ص٨٢.

٣. مصطلح الحكومة في علم أصول الفقه بهذا المعنى: أن يكون أحد الدليلين بمدلوله اللفظيّ متعرضاً لحال الدليل الآخر ورافعاً للحكم الثابت بالدليل الآخر عن بعض أفراد موضوعه، فيكون مبيّناً لمقدار مدلوله، ومسوقاً لتوسعة أو تضييق نطاقه؛ مثاله: وردت روايات تبيّن وظيفة الشاكّ في عدد الركعات، ووردت أيضاً روايات مفادها أنّ الشكّ في ركعات النافلة، أو مع كثرة الشكّ، أو مع حفظ الإمام أو المأموم، أو بعد الفراغ من العمل ليس شكّاً، فإنه يقال: إنّ هذه

←

الطاعة والعصيان، لا غير، وقد أبلغه الإمام الباقر، صلوات الله عليه، للشيعة في قوله لجابر: «يا جابر! بلّغ شيعتي عنّي السلام، وأعلمهم أنّه لا قرابة بيننا وبين الله عزّ وجل، ولا يُتقرّب إليه إلاّ بالطاعة له. يا جابر! من أطاع الله وأحبّنا فهو ولينا، ومن عصىٰ الله لم ينفعه حبّنا»[1]، وجاء في روايةٍ أخرىٰ: «... ومن كان منكم عاصيا لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغترّوا، ويحكم لا تغترّوا»[2].

## ٨ ـ الفرق بين الكمال والتمام

تبيّن في البحث اللغويّ أنّ الكمال أعلىٰ درجةً من التمام، لكنّ بعضهم حاول إثبات العكس. ومهما يكن فينبغي الالتفات إلىٰ أمر مهمّ، وهو أنّ الزيارة الجامعة الكبيرة ـ شأنها شأن دعاء الجوشن الكبير ـ دعوة كمالٍ موجّهة لكلّ الشرائح، ولا تختصّ بنخبة وادي السير والسلوك.

إننا نرىٰ في دعاء الجوشن ذكرَ الله تعالىٰ بأسماء حسنىٰ مختلفة، مثل «الغافر»، «الغفور»، «الغفّار»، «الراحم»، «الرحيم»، «الرحمن»، «أرحم الراحمين»، «الشكور»، «الشاكر»، «الجابر»، «الجبّار»، «العليم»، «العالم»، «العلاّم» إلىٰ غيرها

---

← الروايات النافية للشكّ في تلك الموارد حاكمة علىٰ الأدلّة المتكفّلة لأحكام الشكوك، بل هي في الواقع مضيّقة لنطاقها، وهو نوع تخصيص. وربما يكون الدليل الحاكم موسّعاً للمحكوم، ومدخلاً فيه أفراداً غير داخلة فيه بحسب الظاهر والفهم اللغوي؛ مثاله: وردت روايات تبيّن شروط صحّة الصلاة، كالطهارة من الحدث والخبث وطهارة اللباس، ووردت أيضاً رواية تقول: «الطواف بالبيت صلاة إلاّ أنّ الله أحلّ فيه النطق» (مستدرك الوسائل، ح١١٢٠٣)، فهذه الرواية الثانية حاكمة علىٰ روايات شروط صحّة الصلاة وموسّعة لنطاقها الأصلي، فيجب رعاية شروط الصلاة في الطواف، من طهارة من الحدث والخبث. (انظر: فرائد الأصول، ج٢، ص٤٣٠، خاتمة التعادل والتراجيح).

١ . بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٧٩.

٢ . المصدر نفسه، ج٦٧، ص١٠١، ح٦.

كثير، ولا يصحّ اعتبارها كلّها في درجة واحدة، بل هي مختلفة الدرجات؛ وذلك لاختلاف استعداد ضيوف هذه المائدة، فقد هُيّئت فيها أطعمة متنوّعة تتناسب وحالات المدعوّين، فإنّ لبعضهم استعداد قراءة اسم «الغافر»، وبعضهم «الغفّار»، وبعضهم «الغفور»[1]، وهكذا.

والزيارة الجامعة الكبيرة أيضاً مائدة ولايةٍ متنوّعة الأطعمة، وُضعت لكلّ زائر ينشد الكمال؛ لذا أُعدّت بحيث يجد كلُّ زائر غذاءه المناسب. والحاصل: إنّه لا يمكن القول إنّ كافّة الصفات المذكورة فيها بدرجة واحدة وفي عرض واحد، بل بعضها أعلى من بعض، فلا وجهَ لمحاولة البعض إثبات علوّ التمام على الكمال، بل ذلك مخالف لصريح اللغويّين.

**ملاحظات**

**الأولى**: هذا الشرح يحتوي على مطالب تناسب شريحة عامّة الزائرين المستضعفين ثقافيّاً، وتناسب الشريحة المتوسّطة منهم، و فيه أيضاً ما يناسب الأوحديّ فهماً. ومحبّة الله كمالٌ وجوديّ، وهي مقولة مشكّكة، شأنها في ذلك شأن حقيقة الوجود، ومنزلة المحبّة في قسم «الأحوال» المتوسّط بين قسم «الأودية» السابق عليه، وبين قسم «الولايات»[2].

**الثانية**: إنّ كمال المحبّة وتمامها قد تُدرس وتلاحظ من حيث النجاة من حبالة التثليث (مشاهدة المحبّ، والمحبوب، والمحبّة) والخلاص من شَرَك التثنية

---

١ . يقول العارف الكامل آية الله العظمى شاه آبادي، معلّم الإمام الخميني في الأخلاق والعرفان: «إنّ دعاء الله يكون بأحد هذه الألسنة: لسان المقال، لسان الحال، لسان الاستعداد... والدعاء بلسان الاستعداد أخفى الدعوات... وهو حتميّ الإجابة بمقتضى النظام الكلّي، ومحالٌ الاّ يظهر في دار الوجود...» (شذرات المعارف، ص٥٦، المعرفة ٦٤، ٦٦، ٦٧).

٢ . انظر: شرح منازل السالكين، عفيف الدين التلمساني، ص٣٨٩.

(مشاهدة المحبوب، المحبّة)، ولكلّ واحد من هذين الحجابين أثر ثنويّ وصنميّ مشؤوم.

**الثالثة**: بعد خرق حجاب المحبّ والمحبّة لا يبقىٰ شيء سوىٰ المحبوب، فاذا ما تعلّق به حبٌّ فلن يكون مشهوداً للحبيب أبداً؛ لأنّه انعتق من حجاب ذاته وخرج من حجاب المحبّة، وليس بمقدور قدم العقل الخشبيّة للمستدِلّ القيام في هذا المقام؛ إذ لا طاقة للحصان الخشبي للحكيم والمتكلّم علىٰ تحمّل البارقة البرّاقة للعارف الواصل. وهنا قالوا: إنّ بعض مراحل الولاية طورٌ وراء طور العقل؛ لأنّها خارج ساحة الذهن ووراء منطقة المفهوم والعلم الحصولي.

**الرابعة**: حيث إنّ حقيقة الوجود بسيطة، ومع بساطتها انطوت علىٰ الكمالات الوجوديّة كافّة؛ فإنّ المحبّة التامّة الكاملة تنطوي أيضاً علىٰ كثير من الصفات الكماليّة الأخرىٰ التي لا تضادّها، وكان من دعاء الإمام السجّاد عليه‌السلام طلبُ المحبة التي لا تضادّ الأوصاف الكماليّة الأخرىٰ: «اَللّهُمَّ اِنّي اَسْاَلُكَ اَنْ تَمْلَأَ قَلْبي حُبّاً لَكَ، وَخَشْيَةً مِنْكَ، وَتَصْديقاً بِكِتابِكَ، وَايماناً بِكَ، وَفَرَقاً مِنْكَ، وَشَوْقاً اِلَيْكَ، يا ذَا الْجَلالِ وَالْاِكْرامِ حَبِّبْ اِلَيَّ لِقاءَكَ وَاَحْبِبْ لِقائي»[1].

**الخامسة**: إنّ مدىٰ تأثير المحبّة منوط بقدرة المحبوب؛ من هنا قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في بيان قدر محبّته: «لو أحبّني جبل لتهافت»[2]؛ ذلك أنّه عليه‌السلام وعترته الطاهرة عِدل القرآن، ذلك الكتاب الذي قال تعالىٰ في شأنه: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾[3]. وإن كان الشريف الرضي وغيره فسّره بأنّ المحنة تغلظ علىٰ المحبّ، فتسرع المصائب إليه، لكن يبقىٰ لكلامه عليه‌السلام ظهورٌ في عظم قدر محبّته.

---

١. مفاتيح الجنان، أعمال أسحار شهر رمضان المبارك.

٢. نهج البلاغة، الحكمة١١١.

٣. الحشر: ٢١.

**السادسة**: ربّما انحرفت المحبّة عن مسارها إلىٰ مزلقة الإفراط تارةً وإلىٰ مهلكة التفريط أخرىٰ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «سيهلك فيّ صنفان: محبّ مفرِط...»[١]. ولكن إذا ما وُفّق المحبُّ لتبيّن الصراط المستقيم فلن يضلّ إلىٰ اليمين أو الشمال، ولن يُبتلىٰ بالترّهات المنحرفة عن المهيع اللاحب، وسيكون ممّن أخذ بفضيلة: «خير الأمور أوسطها»[٢]، وهذا يؤدّي إلىٰ أصل آخر يجب الأخذ به، وهو: خير الأمور أشدّها وأعلاها... لأنّ الواصل والسالك الصالح، السائر علىٰ صراطٍ سوي، لا يتهدّده أيّ خطر. وحينئذٍ يكون لتماميّة المحبّة وكمالها معناها الخاص عند سالكي الصراط المستقيم.

**السابعة**: إنّ للمحبّة الكاملة شروطاً لا بدّ من تحصيلها، ولها آثارٌ تترتّب عليها بعد توفّر تلك الشروط. ومن أهم شروطها والعمدة فيها تطهير القلب من أيّ تعلّق بالغرباء؛ لئلاّ يكون لغير المحبوب مكان فيه، ومن ثمّ محو القلب؛ كي تفنىٰ حقيقة الإنسان الكامل المفتاق والمشتاق لجمال وجلال المحبوب الحقيقيّ، فيستوعب تجلّي المحبوب حقيقةَ المحبّ، فلا يبقىٰ حين ذاك شيء من المحبّ؛ لأنّ حقيقته ستكون فانيةً في ظهور المحبوب وتجلّيه.

وثمرة هذا الأثر أنّه لو أحبّ أمرئ محبوباً بتلك الحقيقة، وفنت هويّته الشخصيّة وانمحت فيه، وليس الباقي الصاحي سوىٰ تجلّي المحبوب؛ فإنّ محبّة ذلك المرء وتولّيه محبّةٌ لمحبوبه في واقع الحال، وليست محبّة لشخص المحبّ، وهذا ما جاء في هذه الزيارة: «... مَن والاكم فقد والىٰ الله... ومَن أحبّكم فقد أحبّ الله».

---

١. نهج البلاغة، الحكمة١٢٧.

٢. بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٥٤و ١٧٦.

شعر:

قالوا: كفاك من خرافة العشق...

[قلتُ:] لم تنته بعدُ هذه الحكاية![1]

* * *

١ . مثنوي طاقديس، ص٤٥٦ . بيت بالفارسية نصّه:

گفتنـد بسي فسـانه عشـق          اين قصه هنوز نا تمام است

# والمُخلَصِينَ في توحيد الله

كلمة «مُخلِص» اسم فاعل، والأصل «خلص»، بمعنى «تنقيةُ الشَّيء وتهذيبُه»[1].
فالمخلِص هو فاعل التصفية والتنقية، والمخلَص هو الشيء الخالص المصفّى.

وكلمة «توحيد» على وزان تفعيل، مصدر مشتّق من مادّة «وحد»، بمعنى الانفراد والتفرّد؛ فالتوحيد هو جعل الشيء واحداً والحكم بوحدانيّته وأحديّته.

## مقام التوحيد

إنّ توحيد الله والإيمان به بوحدانيّته في مقام الذات، والصفات، والأفعال، والعبادة، والخشية، والرجاء والأمل، و... تكليف الكلّ، ونشر هذا الفكر التوحيدي أهم إنجازات رسالة الأنبياء عليهم السلام؛ ولذا حاز في الثقافة القرآنيّة من الاهتمام والترغيب ما لم يحزه أمرٌ آخر: ﴿**وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـٰهَ**

---

١ . معجم مقاييس اللغة، مادة «خلص».

إلاَّ هُوَ﴾[١]. ولا يوجد بناء في علوّ بناء التوحيد،كما لا توجد كلمة أعظم قدسيّة من كلمة التوحيد: «ما قلتُ وما قال القائلون قبلي مثل لا إلهَ إلاّ الله»[٢]، و «قول لا إلهَ إلاّ الله سيّد الأذكار»[٣].

وفي المقابل فإنّه لا كلمةَ ككلمة الكفر رجاسةً وبغضاً: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[٤]؛ ذلكَ أنّه لا يوجد بناء أضعف أسّاً من بناء العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[٥]، ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ الله وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[٦].

لهذا جعل نبيّ الإسلام ﷺ شعار رسالته: «قولوا: لا إلهَ إلاّ الله، تفلحوا»[٧]، وجعل التوحيد السبيل الوحيدة لنجاة البشريّة وسعادتها، وفي تعاطيه مع أتباع سائر الأنبياء جعل منه أوّل محور تجتمع عليه الأديان والرسالات كافّة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله﴾[٨]؛ لأنّ النظام الثقافيّ السياسيّ والاقتصاديّ القائم على فكرة الأسياد والعبيد نظامٌ فاسد ومرفوض.

---

١. التوبة: ٣١.

٢. توحيد الصدوق، أول أحاديث الكتاب.

٣. بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.

٤. الحج: ٣٠.

٥. العنكبوت: ٤١.

٦. التوبة: ١٠٩.

٧. بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٢.

٨. آل عمران: ٦٧.

وعليه فالتوحيد وتنزيه الإله الحقّ من أيّ نـدّ وشريـك وظيفـة الجميـع، وكـلّ موّحد عاملٌ بهذه الوظيفة بمقدارٍ؛ ولكن للتوحيد درجات، يتفاوت في تحصيلها الموحّدون، والكثير الكثير منهم مشوبٌ توحيدهم بما لـيس منـه، كـلٌّ بقـدرٍ مـا، وبمقدار ذلك الشوب ينأىٰ الموّحد عن التوحيد الخـالص الـصافي. ولكـنّ الأئمّـة الأطهار عليهم السلام في درجة من التوحيد لا شوب فيه ولا غشّ، وهو التوحيد الـصافي، فهم مخلِصون في التوحيد، في مقام الذات والصفات والأفعال والعبادة و... وهـذا ما يجعلهم مخلَصين أيضاً؛ بمعنىٰ أنّ الله تعالىٰ استخلصهم لنفسه واصـطفاهم مـن بين المخلِصين.

وهذه الفقرة من الزيارة جاءت كالدليل عـلىٰ سـابقتها، بتقريـب: أنّ الإنـسان يعشق الكمال، والأئمّة الأطهار عليهم السلام هم المخلِصون في توحيـده تعـالىٰ، ولا يـرون إلاّ كماله: «ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت اللهَ قبله وبعده ومعه»[1]؛ فلا جرمَ تكـون محبّـتهم خالصةً لله سبحانه.

# اشارات

## ١ ـ المخلَصين أم المخلِصين؟

وردت هذه الكلمـة في أكثـر نـسخ الزيـارة بكـسر الـلام، ووردت في بعـضها بالفتح.

فبناءً علىٰ الكسر (مخلِصين) تكون للإشارة إلىٰ أواسط طريق التكامل، بمعنـىٰ: إنّكم وُفّقتم لطيّ هذه الطريق حتّىٰ بلغتم درجة الإخلاص في التوحيد. وبنـاءً عـلىٰ الفتح (مخلَصين) إنّما هي للإشارة إلىٰ المراحل النهائيّة من الطريق، بمعنـىٰ: إنّكـم ـ

١ . نُسب هذا القول مرسلاً إلىٰ أكثر من قائل، المعصوم وغيره.

بالإضافة إلى طيّ الطريق حتّى آخرها ـ حظيتم بتوفيق أكبر، وهو أنّ الله استخلصكم ورضيكم لنفسه.

والمخلَص في القرآن هو الواصل إلى درجة العصمة، وهي أرفع درجة: ﴿كذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، والنائي بعيداً عن مرمى سهام الشيطان والخارج عن مدار وسوسته: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]، ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

## ٢ ـ عمق مسائل التوحيد

للتوحيد ومعرفة الله تعالى درجات يعيها عامّة الناس وغالبهم، وهم مكلّفون بمعرفة التوحيد بذلك المقدار المتيّسر، ومن ثمّ الاعتقاد به؛ لكنّ درجاته الأعلى تعتبر من المسائل العميقة والدقيقة، التي يصعب جدّاً تصوّرها وفهمها، ويعسر شرحها وتبيينها لعامّة الناس؛ فهي أشقّ مراماً من أن تُقال وتُتداول كتداول المسائل العامّة السهلة، ودرجاتها الدقيقة الجليلة العالية لا ينالها إلاّ الأوحديّ من الخلق، والنُخبة في ميدان المعرفة.

قال المعلّم العلاّمة الطباطبائي ﵀: كان معلّمنا السيّد القاضي ﵀ يمتنع من تبيين بعض مسائل التوحيد العميقة الغور حتّى لخواصّ طلاّب درسه، وكان يلقيها فقط على بعض أصحاب السرّ، ممّن هم من نوادر ميدان المعرفة.

والدرجات الأعلى من ذلك درجات توحيد الأئمّة المعصومين ﵈، والأعلى

---

١ . يوسف: ٢٤.

٢ . ص: ٨٢ ـ ٨٣.

٣ . الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.

منها درجات لم تصل إلى مرحلة الصدور أو الظهور بعدُ، ولم تدخل حيّز الإمكان بعدُ، فليست هي بمتناول أحد على الإطلاق، بل هي ممّا اختصّت بها الذات الإلهيّة: «ما عرفناك حقّ معرفتك»[1]. قال السيّد حيدر الآملي رحمه الله:

«إنّ حقيقة التوحيد أعظم من أن يُعبَّر عنها بعبارة أو يشار إليها بإشارة؛ لأنّها منزّهةٌ عن أن ينالها الأفهام والعقول، وأجلّ من أن تحظى بمعرفتها الأفكارُ والأوهام».

تجول عقول الخلق حول حماها
ولم يدركوا من برقها غير لمعة[2]

شعر

[إلهي] من يستطيع أن يعرفك كما أنت؟
كلّ امرئ يعرفك بقدر علمه هو، لا كما أنت![3]

وحينما سُئل خواجة عبد الله الأنصاري عن التوحيد أنشد:

ما وحّد الواحد من واحد... إذ كلّ من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته... عارية أبطلها الواحد
توحيده إيّاه توحيده... ونعت من ينعتُه لاحِد

إنّ الله تعالى لم يمدح أحداً بمدحة التوحيد، ولم يصفه بالموحّد؛ لأنّ كلّ من ينطق لسانه بتوحيد الله فإنّه يبدأ أولاً بإثبات ذاته، وبذلك يخرج عن حدّ التوحيد الإلهي (وإن كان توحيده توحيداً بالحمل الأوّلي فهو ليس توحيداً بالحمل الشايع).

---

١. نقل المحقّق الطوسي والشيخ البهائي، رحمهما الله، هذه العبارة إرسالاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، بحار الأنوار، ج٦٨، ص٢٣؛ ج٦٦، ص٢٩٢.

٢. جامع الأسرار، ص٧٠.

٣. بيت بالفارسية نصّه:

تو را چنان كه تويى هو نظر كجا بيند؟ — به قدر بينش خود هر كسى كند ادراک

إنّ توحيد مَن يتحدّث عن صفة الله سبحانه عاريةٌ يبطلها اللهُ الواحد المحض، بل توحيد الله هي تلك الوحدانيّة التي يذكرها هو في وصف ذاته، وكلّ أحد سواه تعالىٰ ينطق بوصفه فقد باء بالإلحاد[١].

والمتيسّر للبشر من معرفة الله معرفة الصفات السلبيّة والثبوتيّة له تعالىٰ، أمّا العلم بحقيقة ذاته المقدّسة فليس بمقدور الملائكة المقرّبين ولا الأنبياء والمرسلين، فضلاً عن سائر العالمين؛ ولذا جاء في الروايات: «إنّ الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإنّ الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه»[٢]، هذا.

والناس متفاوتون حتّىٰ في المعرفة بالصفات، فكلّ واحد يعيها بقدر فهمه، فلربّما تجد من يصف الله تعالىٰ بصفات الكمال بعد تجريدها من لوازم النقص، مثل العلم والقدرة والحياة والبصر والسمع، و... لأنّه يجدها في نفسه، ومتّصف بها، فيتوهّم أنّها من صفات الله بما هي عليه عنده؛ لكنّ الذات الإلهيّة أجلّ وأسمىٰ من ذلك.

شعر:

إنّ ما تعلمه ليس هو، إذ لا طريق إليه...

وما علمته بغاية فهمك ليس هو الله[٣]

وفي الرواية المنسوبة إلىٰ الإمام الباقر عليه السلام: «كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم، ولعلّ النمل الصغار تتوهّم أنّ لله تعالىٰ زبانيتين، فإنّ ذلك كمالها، ويتوهّم أن عدمها نقصان لمن لا يتّصف بهما، وهذا حال

---

١. انظر: الأسفار، ج٢، ص٣٣٩؛ جامع الأسرار، ص٧٢.

٢. بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٩٢.

٣. بيت باللغة الفارسية نصّه:

آنچه پيش تو غير از او ره نيست غايت فهم توست الله نيست

العقلاء فيها يصفون الله تعالى به»[١].

## ٣ ـ التوحيد أمرٌ فطريّ

التوحيد حالة فطريّة يسهل على الجميع فهمها، وهي المفطور عليها خلق الإنسان: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

لقد كان مشركو الحجاز يعدّون التوحيد وعبادة الواحد أمراً عجباً، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[٣]، وقد واجه القرآنُ هذا الفكر المنحطّ، وعدّ الشكّ في الله أمراً عجباً: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٤]، وبسط في ثناياه دلائل توحيديّة متنوّعة وبعبارات مختلفة، متيسّرة لكلّ فئات الناس وشرائحهم، مثل النظر إلى الإبل، والسماوات والأرضين والجبال[٥]؛ بالإضافة إلى بيان برهان الصدّيقين وبرهان الآفاق والأنفس[٦]، وشهادة الله نفسه وملائكته وأولوا العلم[٧]، وقد مشى الأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً على هذا المنوال، وأوضحوا الكثير من دلائل التوحيد ومسائله.

سأل سعد بن سعد الإمام الرضا عن التوحيد، فاعتمد الإمامُ على المرتكز عند السائل واكتفى به عن أيّ استدلال عقليّ، وقال له: «هو الذي أنتم عليه»[٨]. وجوابه

---

١. بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٩٣، نقلاً من «الأربعين» للشيخ البهائي، ص١٥، شرح ح٢.

٢. الروم: ٣٠.

٣. ص: ٥.

٤. إبراهيم: ١٠.

٥. انظر: الغاشية: الآيات١٧ ـ ٢٠.

٦. انظر: فصّلت: ٥٣.

٧. انظر: آل عمران: ١٨.

٨. توحيد الصدوق، ص٤٦، ح٦.

هذا إشارة إلىٰ فطريّة التوحيد، أو إشارة إلىٰ ولاية أهل البيت عليهم السلام، التي هي من شروط التوحيد، وكان السائل من أهلها والمتحلّين بكمالها[1].

ولكن حينما سأل هشام بن الحكم الإمام الصادق عليه السلام: ما الدليل علىٰ أنّ الله واحد؟ قال: «اتّصال التدبير وتمام الصنع، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]»[3]. فجاء جوابه بمستوىٰ أعلىٰ من مستوى الجواب في الرواية الأولىٰ؛ لأنّ الإمام الصادق عليه السلام استدلّ هنا علىٰ التوحيد أو أوضحه، وبيّن أنّ غاية خلق العالم ونظمه الطبيعي علامةٌ علىٰ وحدّة الربّ المدبّر وتوحيد الله.

وفي روايةٍ أخرىٰ، قال هشام بن سالم: دخلت علىٰ أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: أتنعت الله؟ قلت: نعم، قال: هات. فقلت: هو السميع البصير. قال: هذه صفة يشترك فيها المخلوقون. قلت: فكيف ننعته؟ فقال: «هو نور لا ظلمة فيه، وحياة لا موت فيه، وعلم لا جهل فيه، وحقّ لا باطل فيه»؛ فخرجت من عنده وأنا أعلم الناس بالتوحيد[4].

وقد طبّق عظماءُ حكماء الإسلام جوابه الوافي وبيانه الشافي علىٰ براهين توحيديّة عديدة.

## ٤ ـ التوحيد سبب التكامل

يقرّر القرآن في ثقافته أنّ التألّه والتوحيد سبب تكامل الفرد والمجتمع، وأنّ هدف الرسالة العالميّة لرسول الإسلام وضع أعباء الجهل والجهالة عن البشر،

---

١ . ويحتمل في الجواب الإشارة إلىٰ المعنيين معاً؛ لأنّ التوحيد مع الولاية (الشرط والمشروط) أمر فطريّ في وجود الإنسان.

٢ . الأنبياء: ٢٢.

٣ . توحيد الصدوق، ص٢٥٠، ح٢.

٤ . المصدر نفسه، ص١٤٦، ح١٤. وللمزيد انظر: عشر مقالات حول المبدأ والمعاد، ص٣٥.

وتحريرهم من أغلال الضلالة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[١]، وتأمر الآية اللاحقة الرسولَ الأكرم أن يُخبر الناس بنبوّته، وأن يعلن لهم أنّ القاعدة التوحيديّة لرسالته هي: ﴿لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾، فخوطب: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[٢]. وقد بيّن القرآن الناطق، أمير المؤمنين عليه السلام، هذه الثقافة العالية بقوله:

«فإنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ؛ ليخرج عباده من عبادة عباده إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»[٣].

ومن هنا، فالشرك والكفر وطاعة غير الله تعالى من أظهر مصاديق الأغلال المرهقة بأثقالها الباهظة أكتاف غير الموحّدين، والتي ستطوّق بها أعناقهم يوم القيامة: ﴿أُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾[٤].

## ٥ ـ عامل سقوط البشريّة

إنّ الشرك سبب انحطاط المجتمعات الإنسانيّة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٥]. والمشرك لا يأوي إلى ركن ركين ولا هو مستوثق بحبل متين، فلا جرم أن يسقط ـ شاء أم أبى ـ من سماء الإنسانيّة ويخسر معالي الأمور، وربّما تخطّفته وهو في الهواء نسور ضارية، من

١. الأعراف: ١٥٧.
٢. الأعراف: ١٥٨.
٣. روضة الكافي، ص٣٨٦.
٤. الرعد: ٥.
٥. الحج: ٣١.

أمثال فرعون ونمرود؛ لينتهي به المطاف إلى السجود لآلهةٍ حجريّة وخشبيّة مزيّفة، ويمرّغ جبهة الذلّ تحت أقدام أرباب وهميّة لا تضرّ ولا تنفع، أو يهوي في مهوى الرذيلة السحيق المخوف، ويسقط في المستنقع النتن للنفس الحيوانيّة المتسافلة، فتصبح عظامه الإنسانيّة وأجنحة كماله هشيماً، ويصير بذلك عاجزاً نكساً عن التحليق في جوّ المعنويات.

ويسخر النفعيّون السيّئون من مثل هذا الإنسان ويسفّهونه ويسخّرونه لمآربهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[1]، ﴿فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[2].

إنّ العزوف عن ملّة الخليل إبراهيم ليس سوى سفاهة وقلّة عقل بحسب منظومة الفكر القرآني: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[3]. وعليه فالعازف سفيه وإن كان حديث عصره في العلم والاختراع والابتكار؛ لأنّ نتيجة اختراعه واكتشافه العلمي لن يكون غير خراب البلاد وقتل الأبرياء وتدمير نظام الحياة السليم؛ لأنّ «السَفَه» مقابل «العقَل»، وهو ما ورد فيه أنّه «... ما عبُد به الرحمن واكتسب به الجنان»[4].

## ٦ ـ رعاية الأدب التوحيديّ في الخطاب

قال مشيّد التوحيد وعبادة الواحد الأحد، النبيّ خليل الرحمن عليه السلام، في تبيين

١ . الزخرف: ٥٤.
٢ . هود: ٩٧.
٣ . البقرة: ١٣٠.
٤ . أصول الكافي، ج١، ص١١ . وبحسب المنطق فإنّ عكس النقيض للرواية هو «ما لم يُعبد به الرحمن ولم يُكتسب به الجنان فليس بعقلٍ، فهو سفه»، وذكروا في علم المنطق أنّ القضيّة الصادقة يكون عكس نقيضها صادقاً أيضاً.

من هو: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: إنّه ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[١].

ويتجلّى الأدب التوحيدي في كلام النبيّ إبراهيم عليه السلام في إرجاع خلقه وهدايته وموته وحياته، بل وإطعامه وسقيه وشفائه أيضاً، إلى الله تعالى؛ فالماء والطعام والدواء عنده أسباب لا غير، وليست مستقلّة في تأثيرها.

ويتجلّى أدبه كذلك في إرجاع الأمور الوجوديّة والكماليّة ـ من إطعام وإرواء وشفاء ـ إلى الله ونسبته إليه تعالى؛ وأمّا النقائص والشرور كالمرض فهو عليه السلام ينسبها إلى نفسه، فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، ولم يقل: «وإذا أمرضني»؛ بينما نجد أنّ خبث الشيطان اللعين دعاه لأن ينسب الإغواء إلى الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾[٢].

ومن ثقافة الفكر التوحيدي أنّ كلّ شيء موجود ـ سواء حسن أم قبح عندنا ـ مستندٌ في وجوده إلى الله، وهو «من عند الله»؛ لأنّ ما عدا الله ممكن الوجود، والممكن لا بدّ أن يقوم بالواجب، وحُسنُه وجماله ـ علاوة على كونه «من عند الله» ـ يكون «من الله» أيضاً؛ بمعنى أنّ وجوده ناشئ وآتٍ من الله تعالى. وأمّا السيئة فهي وإن كانت «من عند الله» لكنّها ليست «من الله»؛ لأنّها لا تأتي ولا تنشأ منه سبحانه، بل «من نفسك»: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله فَمَا لِهَـٰؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً * مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٣].

---

١. الشعراء: ٧٨ ـ ٨١.

٢. الحجر: ٣٩.

٣. النساء: ٧٨ ـ ٧٩.

وقد جاء هذا المعنىٰ في آيات أخرىٰ ضمن سياق منطقي، فقد بُيّن بصورة قضيّة صغرىٰ وأخرىٰ كبرىٰ:

الصغرىٰ: كلّ موجود يصحّ إطلاق كلمة «شيء» عليه (أعم من الحوادث والموجودات) هو مخلوق الله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١].

الكبرىٰ: كلّ ما خلق اللهُ حسن جميل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[٢].

النتيجة: كلّ موجود حسن جميل.

وحيث إنّ الشرّ ليس حسناً فهو ليس مخلوقاً لله تعالىٰ، بل الإنسان هو من بدّل نعم الله النازلة إليه شرّاً وسيئةً بقبح عمله وسوء استفادته منها، فالنازل من عند الله ليس شرّاً، بل الناس أفسدوه، أو إنّهم حسبوه شرّاً بسبب بعض العوارض والظواهر.

## ٧ ـ أبعاد التوحيد الأفعالي

لا شيء مستقّل في أثره بحسب الرؤية التوحيديّة للكون، بل كلّ الأشياء برمّتها ما هي إلاّ أسباب نحسبها لأوّل وهلة مؤثّرات بالاستقلال، والحقّ أنّ: «لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله»، كما قال الحكماء.

شعر:

لو سُلّت سيوف العالم من أغمادها...

فلن تقطع عِرقاً إن لم يشأ الله[٣]

---

١ . الزمر: ٦٢.

٢ . السجدة:٧ .

٣ . نصّ البيت باللغة الفارسية هو:

اگر تيغ عالم بجنبد ز جاي نبرّد رگي گر نخواهد خداي

ولإثبات هذه الحقيقة وبيانها، يذكر القرآن الكريم أمثلة من موجودات عالم الخِلقة، فيقول تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ﴾[1].

وما هذه إلاّ أمثلة وحسب، وإلاّ فكلّ الوجود سبب، ولا شيء من الموجودات خارجٌ عن حدّ السببيّة والآليّة المحضة في التأثير، وهو في أصل وجوده قائم قياماً كاملاً بالله تعالى، ولو شاء الله لأرى خلقه سطوته وقدرته الماحقة فتتهاوى الأشياء عدماً وفناءً.

شعر:

إن طريق العقل مليء بالمضايق الوعرة... لا شيء موجود سوى الله عند العارفين

هذا ما يعيه وينطق به ذوو الحقائق... لكنّه أشكل على أهل القياس [فقالوا]:

إذن فما السماوات وما الأرضون؟... وما بنو آدم والمواشي والوحوش؟

نعم السؤال سألتَ أيّها الفهيم... سأجيبك عنه عسى أن ترتضيه:

إنّ البرّ والبحر والجبل وما في الفلك... والجنّ والإنس والشيطان والمَلَك

---

١. الواقعة: ٥٨ ـ ٧٢.

وكلّ شيء ومهما يكن فهو أقلّ شأناً... من أن يُسمّىٰ بوجوده موجوداً!
عظيم عندك البحر بأمواجه... كبيرة في عينك الشمس بضوئها
ولكن أنّىٰ يعلم أهل الصورة والظاهر... أنّ أرباب المعنىٰ متنعّمون بملك لا يزول؟
ليست الشمس عندهم إلاّ ذرة... وما البحار السبعة إلاّ قطرة
ولو أنّ سلطان العزّة شطب بالقلم... لاختفىٰ العالم بأسره في جيب العدم[1]

والحاصل: إنّ كلّ شيء في هذا العالم؛ من هواء ومطر وسحاب، وشمس وأرض، وماء ونار، وحرّ وقرّ، وغذاء ودواء، وإنسان وحيوان و... ليس له استقلال في التأثير، إن هي إلاّ وسائط فيه؛ لأنّه لو كان لها تأثير بالاستقلال لما تخلّف أثرها مع وجود الشروط التجريبيّة اللازمة والمواصفات الماديّة المطلوبة، وما زلنا نرىٰ تخلّف أثر الدواء في الشفاء في كثير من الحالات، مع دقّة المرضى وجدّهم ومراعاتهم في تناول الدواء بما يماثل غيرهم ممّن أثّر فيهم، وقد تجدهم يشربون الماء ولكن لا يزالون عطشىٰ لا يرتوون، ويطعمون ولكن لا يزالون جوعىٰ

١. بوستان سعدي، ب٣، الحكاية١١، ص١١٢. نصّ القصيدة باللغة الفارسية هو:

ره عقل جز پيچ بر پيچ نيست بر عارفان جز خدا هيچ نيست
توان گفت اين، با حقايق شناس ولي خرده گيرند اهل قياس
كه پس آسمان و زمين چيستند؟ بني آدم و دام ودَد كيستند؟
پسنديده پرسيدي اي هوشمند بگويم گر آيد جوابت پسند
كه هامون و دريا و كوه و فلک پريّ و آدميزاد و ديو و ملک
عظيم است پيش تو دريا به موج بلند است خورشيد تابان به اوج
ولي اهل صورت كجا پي برند كه ارباب معني به ملكي درند
كه گر آفتاب است، يک ذره نيست و گر هفت درياست، يک قطره نيست
چو سلطان عزّت عَلَم بر كشد جهان سر به جيب عدم در كشد

لا يشبعون[١].

وهذا حال الجهنّميّن، فإنّه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾؛ فهم يطعمون «الضريع»، وهو شوك النخل أو نبت نتن الرائحة مرّ المذاق؛ ولكنّهم لا يشبعون؛ لأنّه: ﴿لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾[٢]. ذلك أنّ الشبع ليس بمعنى ملء البطن، بل هو إحساس وأثر خاصّ، وقد سلبه اللهُ في هذه الدنيا عن بعض عبيدها كمعاوية، ويسلبه في الآخرة عنه وعن كلّ الجهنميّن. فمن الممكن أن تمتلأ المعدة من الطعام ولكن لا تُشعر الطاعمَ بالشبع، وهو عذاب شديد.

ومن يدّعي أنّ الله يرزقنا الماء والطحين، ونحن من يهيّء منها خبزاً نأكله فنشبع، فقد صار مفوّضاً بنوع من التفويض، وضلّ عن خالص التوحيد.

من هنا سلب دعاءُ الجوشن الكبير (وهو بحقّ كتاب التوحيد الفائق) عن كلّ شيء كلَّ شيء، وأسند إليه تعالى كلّ أثر وخير وبركة[٣].

وعليه: فالساقي والشافي والمشبع و... هو الله وحدَه، لا الماء ولا الدواء

---

١. وفيما يروى عن رأس الأمويين الضالّين الملعونين معاوية، عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأني حطأة، وقال: اذهب وادع لي معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثمّ قال لي: اذهب فادع لي معاوية، قال: فجئت، فقلت: هو يأكل، فقال: لا أشبع الله بطنه (صحيح مسلم، ج٤، ح ٢٦٠٤). قالوا: وقد كان معاوية لا يشبع بعدها... فيقال: إنّه كان يأكل في اليوم سبع مرات طعاماً بلحم، وكان يقول: والله لا أشبع وإنّما أعيي! (البداية والنهاية، ج٦، ص١٨٩، ط مكتبة المعارف، ١٤٠٨هـ).

٢. الغاشية: ٦ ـ ٧. إنّ عبيد الدنيا الذين لا يشبعون أبداً منها لن يشبعوا أيضاً في آخرتهم من طعامهم الجهنميّ المعدّ لهم، مهما أكلوا، كما أنّ جهنم لا تشبع منهم أيضاً مهما كثر داخلوها: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠)، فهي تزداد شراهةً كلّما وردها جهنميّ، وهذه علامة مسانخة باطن الدنيا وعبيدها لباطن جهنم وحقيقتها.

٣. فمن يعي هذه المعارف العظيمة ويتبيّن له حقيقة دور غير الله فلن تمتدّ عينه إلى كيس غيره ولن يضع يده في إنائه.

ولا الطعام وما شابه، بل هي تُسمّىٰ اصطلاحاً بـ «علل معِدّة»، يجعلها تعالىٰ سبباً للإرواء والشفاء و... وقد يُروي ويَشفي بأمور وعلل أخرىٰ[١].

## ٨ ـ التوجيه المنطقيّ للمعجزات

يشكّك بعض الناس في بعض المعجزات القطعيّة الحصول، فيستبعدون ولادة السيّد المسيح عليه السلام من أمّ بلا أب، أو تسبيح الحصىٰ في كفّ الرسول صلى الله عليه وآله المباركة[٢]، وإقراره بالرسالة، وتسبيح الطعام في يده، وتأوّه جذع النخلة وحنينه لفراقه صلى الله عليه وآله[٣]، وتسليم الحصىٰ عليه، وانبعاث الشجرة بعروقها وانشقاقها نصفين، وذهاب أحدهما إليه ثمّ لحوق الآخر به[٤]، وما شابه.

---

١. ورد في شأن سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام: «... ولم يرضع الحسين من فاطمة عليها السلام ولا من أنثىٰ، كان يؤتىٰ به النبيّ صلى الله عليه وآله فيضع إبهامه في فيه فيمصّ منها ما يكفيها اليومين والثلاث، فنبت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله ودمه...». (الكافي، ج١، ص٤٦٥)، ولا من داع لردّ مثل هذه الروايات وعدّها محالاً؛ لعدم انحصار تغذّي الرضيع عقلاً في الإرضاع الطبيعي المعروف عند الناس.

٢. قال ابن عباس: قدم ملوك حضرموت علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله، فقالوا: كيف نعلم أنّك رسول الله؟ فأخذ كفّاً من حصىٰ فقال: هذا يشهد أنّي رسول الله، فسبّح الحصىٰ في يده وشهد أنّه رسول الله. (بحار الأنوار، ج١٧، ص٣٧٩).

٣. روي في هذا المجال: «أن النبي صلى الله عليه وآله كان يخطب بالمدينة إلىٰ بعض الأجذاع، فلما كثر الناس واتّخذوا له منبراً وتحوّل إليه حنّ كما تحنّ الناقة، فلما جاء إليه والتزمه كان يئنّ أنين الصبيّ الذي يسكت». (المصدر نفسه، ج١٧، ص٣٨٠).

٤. نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، جاء فيها: «... فوالذي بعثه بالحقّ لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دويّ شديد، وقصف كقصف أجنحة الطير، حتّىٰ وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله مرفرفة، وألقت بغصنها الأعلىٰ علىٰ رأس رسول الله وببعض أغصانها علىٰ منكبي، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله، فلمّا نظر القوم إلىٰ ذلك قالوا علواً واستكباراً: فمرها فليأتك نصفها ويبقىٰ نصفها، فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها بأعجب إقبال وأشدّه دويّاً، فكادت تلتفّ برسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا كفراً وعتواً: فمر هذا النصف فليرجع الىٰ نصفه كما كان فأمره صلى الله عليه وآله فرجع ...».

وسبب هذه التشكيك والإنكار عدم وضوح المعارف التوحيديّة عندهم، فتوهّموا السبب المعِدّ علّةً تامّةً، والعلّةَ سبباً منحصراً، فظنّوا أنّ تزاوج الرجل والمرأة علّة تامّة ومستقلّة في تولّد الوليد، وأنّ لسان الإنسان سببٌ منحصر في حدوث الكلام؛ وبالتالي لم يجدوا تعليلاً علمياً لتلك المعجزات، فأنكروها.

شعر:

كلّ من يصبح مُحْرَم القلب سيبقىٰ في حرم الحبيب للأبد...

وكلّ من ليس كذلك فسوف يبقىٰ منكراً للأبد[1]

## ٩ ـ الإخلاص في التوحيد

«الإخلاص التوحيديّ» عنوان يُذكر في قسمين متفاعلي الأثر، هما: الاعتقاد والعمل.

والإخلاص المذكور في قول مولىٰ الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام: «أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»[2] غير الإخلاص الاصطلاحي المذكور في العبادات؛ لأنّ الكلام في هذه الخطبة ليس عن العمل العباديّ، بل عن «إخلاص الكون والوجود لله تعالىٰ»؛ أي: الإخلاص الاعتقادي، بمعنىٰ أن يضع الموّحدُ وجوده برمّته تحت إرادة الله، وأن لا يرىٰ ملِكاً ولا مالكاً له غيره، سواء كان ذلك الغير نفسه أم سواها.

ومن فروع الإخلاص الاعتقاديّ إخلاص العمل لله المتعال: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ

---

١ . ديوان حافظ، الغزل١٧٨، ص٢٣٩. نصّ البيت باللغة الفارسية:

هر كه شد مَحْرَمِ دل، در حَرَم يار بماند      و آنكه اين كار ندانست، در انكار بماند

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١.

مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ لله الدِّينُ الخَالِصُ﴾[١]. وهو أن يأتي العبدُ بالعبادة خالصةً لوجه الله، ولا يدنّسها بالرياء والسمعة؛ فإنّ ذلك من مراتب الشرك الخفيّ، وهذا الإخلاص وإن هو من أعلىٰ الكمالات العمليّة، لكنّه يكون في بداية طريق السلوك الاعتقادي والعلميّ إلىٰ الله.

### ١٠ ـ خفاء الشرك

إنّ رعاية التوحيد في المسار العلميّ والسلوك العمليّ أمرٌ في غاية الدقّة والحساسيّة، بحيث إنّ يسير غفلةٍ وصغير زلّة مزلقةٌ عن سبيل التوحيد وموقعة في مضلّة الشرك؛ لذا ورد في الروايات:

«الإشراك في الناس أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ المسح الأسود في الليلة المظلمة»[٢].

وذكر القرآن الكريم أنّه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣]. قال الإمام الصادق عليه‌السلام في بيان مراد هذه الآية من الشرك: «هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي؛ ألا ترىٰ أنّه قد جعل لله شريكاً في ملكه، يرزقه ويدفع عنه»، قال الراوي: قلت: فيقول: لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت؟ قال: «نعم، لا بأس بهذا»[٤].

---

١. الزمر: ٢ ـ ٣.

٢. بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٧١. إنّ حركة الشيء تُعلم إمّا بالرؤية أو بسماع وطء القدم؛ لكنّ هذا متعسّر في مثل النملة، إذ لا يمكن سماع وطء أقدامها بالإذن الطبيعيّة، ولا يمكن رؤية موطئها علىٰ جسم أسود في ليل أليل؛ لذا فالعلم بحركة النمل وخروجه ودخوله غاية في العسر.

٣. يوسف: ١٠٦. لكن بشرط أن لا يرتدّ عن الدين و «لا يبلغ به الكفر»، بل في حدّ «شرك النِّعم وشرك الطاعة»، كما ورد في تفسير الآية، و «ليس شرك عبادة»، (نور الثقلين، ج٢، ص٤٧٥).

٤. نور الثقلين، ج٢، ص٤٧٥.

إنّ بعض الناس لا يراعي الأدب التوحيديّ حينما يعرب عن شكره لغيره[1]، فينطق من حيث لا يشعر بكلمات تفوح منها رائحة الشرك، من قبيل قولهم: «الله أوّلاً ثمّ أنت»، و «في تلك الأزمة أنجدني فلان»، و «أنقذني من الموت كذا...»، و «لو لم أجد ذلك العمل لفشل أمري وخبتُ»، وهذه الأقوال كلّها بعيدة عن التوحيد الخالص؛ لأنّ الله تعالىٰ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[2]، فهو تعالىٰ أوّل لا ثانيَ ولا ثالثَ له، وأوّل لا آخر غيره. بل لا شيء يكون في قبال الله تعالىٰ ولا جانبه؛ لأنّ الحقيقة اللامحدودة لا جنب ولا جانب لها ليبقىٰ مكان لغيرها، ولا فراغ يحيط بها لكي يملأه سواها؛ لأنّه تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[3].

والحاصل: إنّ من يبتغي خالص التوحيد وصافيه غير المشوب بالشرك فعليه أن لا يرىٰ شيئاً مؤثّراً، لا استقلالاً عن الله ولا مشاركاً معه ولا معيناً له؛ وعليه فقد عدّت الروايات من الشرك القسمَ بحياة أحد من الناس: «من ذلك قول الرجل: لا وحياتك»[4]. وجاء في الروايات المتضمّنة لمناهي النبيّ ـ وهي روايات معروفة بهذا

---

١ . إنّ شكر من يقع سبباً في وصول نعمة أمرٌ حسن جداً، بل ولازم، وتركه يحكي عن روح الغفلة وعدم عرفان الجميل، فـ «من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عزّ وجلّ» (بحار الأنوار، ج١٧، ص٤٤). ومن مصاديق شكر المخلوقين شكر الوالدين، وقد قرن الله تعالىٰ شكره بشكرهما فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ (لقمان: ١٤).

٢ . الحديد: ٣. وحينما سئل عليّ بن الحسين عليهما السلام عن التوحيد قال: إنّ الله عزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من سورة الحديد إلىٰ قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فمن رام وراء ذلك فقد هلك. (نور الثقلين، ج٥، ص٢٣١)، وهذه الرواية الشريفة دالّة علىٰ حقيقة أنّ سورة التوحيد المباركة والآيات الستّ الأخيرة من سورة الحديد قمّة معرفة التوحيد التي يمكن للبشر بلوغها، ومهما بلغوا من العلم ففي هذه الآيات جواب أسئلتهم عن التوحيد، وفيها ضالّتهم.

٣ . الشورىٰ: ١١.

٤ . بحار الأنوار، ج٦٩، ص٩٨.

العنوان في كتبنا الروائية ـ أنّه ﷺ «نهىٰ أن يقول الرجل للرجل: لا وحياتك وحياة فلان»[1]، بل ورد في بعض الروايات أنّ من الشرك «تحويل الخاتم ليذكر الحاجة وشبه هذا»[2]، وهذا إن كان بالنظر الاستقلالي، أمّا إن كان بالنظر الآلي فلا بأس به؛ بمعنىٰ أن يعتقد الإنسان أنّ تحويل الخاتم وشبهه سبب لأن يذكّره الله تعالىٰ.

**ملاحظة**

قال صدر المتألهين في كلامه عن حديث الإمام السجّاد عليه السلام الآنف:

«ثمّ كان من النوادر الغريبة أنّ هذا العبد المسكين كان في سالف من الزمان متأمّلاً متدبّراً ـ علىٰ عادتي عند تلاوة القرآن ـ في معاني آياته ورموزها وإشاراتها، وكان المنفتح علىٰ قلبي من آيات هذه السورة وإشاراتها أكثر من غيرها، فحداني ذلك ـ مع ما سبق في الخواطر الغيبيّة والدواعي العلميّة والإعلامات السرية ـ إلىٰ أن أشرع في تفسير القرآن المجيد والتنزيل الحميد، فشرعت، وكان أوّل ما أخذت في تفسيره من السور القرآنيّة هذه السورة؛ لفرط شغفي وقوّة شوقي بإظهار ما ألهمني ربّي من عنده، وإبراز ما علّمني الله من لدنه... ثمّ بعد أن وقع إتمام تفسيرها مع تفسير عدّة أخرىٰ من السور والآيات، كآية الكرسي وآية النور، اتّفقت عقيب سنتين أو أكثر مصادفتي لهذا الحديث والنظر فيه بعين الاعتبار، فاهتزّ خاطري غاية الاهتزاز وانبسط نشاطي آخر الانبساط في النشاط؛ لما رأيت من علامة الاهتداء بما هو أصل الهدىٰ والسلوك في المحجّة البيضاء في طريق التوحيد، فشكرت الله علىٰ ما أنعم، وحمدته علىٰ الفضل والكرم»[3].

---

١ . بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٣١.

٢ . المصدر نفسه، ج٦٨، ص١٤٢.

٣ . شرح أصول الكافي، ج٣، ص١١٦.

## ١١ ـ الأئمّة وبيان المعارف التوحيديّة

سبق القول أنّ اكتناه الذات الإلهيّة المقدّسة ليس مقدوراً إلاّ لذاته تعالى: «أمّا الذات فقد حارت الأنبياء والأولياء فيها»[١]. فما من حكيم يبلغ بطير فكره مهما علا وارتفع ذلك الأوجَ، وما من عارفٍ متعمّقٍ يبلغ بغوصه أعماق وجوده سبحانه؛ لأنّه «لا يدركه بُعدُ الهمم ولا يناله غوص الفطن»[٢]. فالبحوث المعقودة في معرفة الله تعالى تحوم حول الأسماء والصفات وحسب، وكلٌّ يصفه تعالى بحسب معرفته واستعداده هو؛ لذا تفاوتت درجات العارفين بصفاته تعالى.

شعر:

أنت إلهي كما أنت، ومن يراك...

فإنّما يراك بقدر ما لديه من معرفة وإدراك[٣]

وقد نزّه القرآن الكريم حريم كبرياءَ الحقّ تعالى عن وصف الواصفين، واستثنى المخلَصين، فإنّهم موفّقون ومأذونون في وصفهم له لقربهم منه: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[٤].

ولولا تلك الدروس العالية في معرفة الله والمعارف التوحيديّة الواصلة إلينا من الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وخصوصاً الدروس العميقة لأمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» وغيره، لما تمكّن أحد من صيدها؛ لعظمتها وعلوّ شأنها، والمجتمع البشريّ ليس مهيّئاً للجلوس في الصفّ الابتدائي لدروس التوحيد وحسب؛ بل هو غير

---

١ . شرح فصوص الحكم، ج١، ص١٧٢.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

٣ . نصّ البيت باللغة الفارسية:

تو را چنان كه تويي هر نظر كجا بيند　　　به قدر بينش خود هر كسى كند ادراك

٤ . الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.

خارجٍ أبداً عن جهله المركّب، ولا يستطيع أن يستوعب وجود معارف عميقة يقصر فهمه عنها ويده عن تناولها: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[١]، وببيان هذه المعارف الدقيقة والمعاني العميقة صار الأئمّة عليهم السلام «أركاناً لتوحيده»[٢].

شعر:

كلّما عرفت شيئاً من مكارمه... أطمعك في المزيد منها

حطّم أحمدُ أصنام العالم ولكن... قضى الربّ أن يكون فيه فريقان

لولا سعى أحمد لكنتَ أنت الآن... كما كان أجدادك تعبد الأوثان

حرّر رأسك من سجدة الصنم... لتعرف فضله على كلّ الأمم

فاشكر له هذا الخلاص والتحرير... كي يحرّر باطنك من كلّ صنم

وكما حرّر رأسك من الأوثان... فاعلم أنّ قوّة قلبك في تخليصه[٣]

والكلام الآن: كيف وُفّق المخلَصون لتوصيف الله تعالى؟ وكيف نبعت هذه المعرفة الإلهيّة من الأئمّة الأطهار عليهم السلام؟

والجواب:

إنّ حديث التقرّب بالنوافل[١] دلّ على أنّ المخلَصين يصلون إلى مقامٍ أن يتكلّموا

---

١. البقرة: ١٥١.

٢. الزيارة الجامعة الكبيرة.

٣. مثنوي معنوي، الدفتر الثاني، الأبيات ٣٦٥ ـ ٣٧٠. ونصّ القصيدة باللغة الفارسية كالتالي:

هر كراماتي كه مي‌جويي به جان ... او نمودت تا طمع كردي در آن

چند بت بشكست احمد در جهان ... تا كه يا رب گوي گشتند اُمّتان

گر نبودي كوشش احمد تو هم ... مي‌پرستيدي چو اجدادت صنم

اين سرت وارست از سجده صنم ... تا بداني حقِّ اورا بر اُمم

گر بگويي شكر اين رستن بگو ... كز بُت باطن هَمَت برْهاند او

مر سرت را چون رهانيد از بتان ... هم بدان قوّت تو دل را وارهان

بلسان الله ويسمعوا بسمعه وينظروا بعينه و... فوليّ الله علىٰ الحقيقة يعمل بإرادة الله، وما لم يرد الله فهو لا ينطق ولا يسمع ولا ينظر، بل لا مشيئة له: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾[٢]، وإذا ما أراد اللهُ شيئاً فوليّه يعرف ما يقول وكيف يقول و... فيكون لسانه في مقام الفعل مظهرَ كلام الحقّ تعالىٰ. وعليه: فالإنسان الكامل المعصوم لا يقول شيئاً إلاّ بإذن الله، سواء في وصف الذات الإلهيّة أم في الأحكام والمعارف، أم في الأدعية، بالخير أم باللعن، أم في غير ذلك.

وبهذا يكون المتكلّم الحقيقي في الروايات المشحونة بمعرفة التوحيد الواردة عن الأئمّة الأطهار ـ الذين هم أبرز مصاديق المخلَصين ـ هو الله، فهو سبحانه الواصف نفسه علىٰ لسان عبده المحض، وليس العبد المخلَص.

ولنا أن نقول أيضاً: إنّ عباده المخلَصين يصفون الذات الإلهيّة بلسانه تعالىٰ. فهناك صورتان بينهما فرق دقيق:

**الأولىٰ**: إنّ التقرّب بالنوافل يجعل من الأدوات الإدراكيّة للإنسان الكامل معصومةً ومحبوبةً عند الله.

**الثانية**: أن يصير الإنسان الكامل المعصوم لسانَ الله بغيرِ لسان.

وعلىٰ كلّ تقدير؛ فكلام أهل البيت في التوحيد الخالص مسبوق بعلم وإرادة وإذن من الله تعالىٰ.

ولنا أن نشبّه المعقول بالمحسوس هنا، فنقول: يظنّ بعض المستمعين لمكبّر الصوت أو سمّاعة الهاتف أو المذياع، وما شابه، أنّ تلك الأدوات هي المحدِثة للأصوات، والحال أنّ الحقيقة شيء آخر؛ إذ إنّ المحدِث لها هو الشخص الممسك

---

١. انظر: بحار الأنوار، ج٨٤، ص٣١، ح١٥.

٢. الإنسان: ٣٠؛ التكوير: ٢٩.

بها، المتكلّم عبرها، ولكنّهم لما لم يروه غفلوا عنه. فـالمتكلّم والواصـف الحقيقـيّ في هذه الروايات هو الله سبحانه؛ ولكنّ الغافلين لمّا كانوا في غفلة عنـه يـرون مظهـرَه فقط ـ وهو الإنسان المخلَص ـ ،أو شجرةَ وادي الطور، فيظنّون أنّهم هم المتكلّمون علىٰ الحقيقة.

شعر:

نحن كلّنا أسود ولكن أسود [منقوشة] علىٰ علَم...

هجماتها [المترائية للأنظار بسبب تموّج العلَم] من هبوب الهواء

ترىٰ هجماتها ولكنّ الهواء [المسبّب لها] لا يُرىٰ...

فلا نغفلنّ عمّن لا نراه بأبصارنا

هواؤنا وكينونتنا كلّه من عطائك...

وجودنا كلّه من إيجادك[١]

قال المعلّم العلامة الطباطبائي في تفسير الآية ١٦٠ من سورة الصافات:

١ . والمعنىٰ هو منزّه عن كلّ ما يصفه الواصفون إلاّ عباد الله المخلصين؛ وذلـك أنّهم إنّما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم، وهو سبحانه غير محدود، لا يحيط به حدّ ولا يدركه نعت، فكلّ ما وصف به فهو أجلّ منه.

٢ . له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه، وخصّهم بنفسه، لا يـشاركه فـيهم أحـد غيره.

٣. فعرّفهم نفسه وأنساهم غيره، يعرفونه ويعرفون غيره به.

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيتان٦٠٢ ـ ٦٠٥ . والنصّ الفارسي لهذه الأبيات هو:

ما همـه شـيران ولىٰ شـير عَلَم　　　حمله شان از باد باشد دم به دم

حمله شان پيدا و ناپيداست باد　　　آن كه ناپيداست از ما گم مباد

بـاد ما و بـود ما از داد تُـست　　　هستي ما جمـله از ايجـاد تُست

٤. فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه، وإذا وصفوه بألسنتهم ـ والألفاظ قاصرة والمعاني محدودة ـ اعترفوا بقصور البيان وأقرّوا بكلال اللسان، كما قال النبي ﷺ وهو سيد المخلصين: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[١].

فاعترافهم بالعجز عن أداء حقّ الثناء إقرارٌ بأنّ لا قادر عليه سوى الله نفسه، فهم يجبرون نقص ثنائهم بثنائه تعالى على نفسه، وهذا الاعتراف أعظم ثناء يكون من العبد لربّه.

وخلاصة ما مرّ ذكره عليك تصريحاً أو تعريضاً أمور:

**الأول**: إنّ وحدة الله سبحانه مقدّمة وجوداً على كلّ ما يقال له «شيء» ويُعدّ مصداقاً له؛ فالأشياء كلّها صادرة أو ظاهرة منه، وهي آياته وتجليّاته، وعليه اعتمادها وإليه مآبها.

ووحدته سبحانه من حيث العرفان أو السلوك قمّة المعارف ونهاية عروج المشاهدة، بحيث إنّ معرفة الحكماء بصفات ذاته المقدّسة (وهي معرفة تفصيليّة إلى حدّ ما) وشهود العرفاء (وهو شهود عالٍ إلى حدّ ما) هو منتهى معرفة هؤلاء الحكماء والعرفاء، وليست شيئاً يُذكر في جنب حقيقة وحدته تعالى وتوحيده؛ لهذا وضع الخواجة عبد الله الأنصاري مسألة التوحيد في آخر الأبواب المائة من *منازل السائرين*[٢]، وذكرها الخواجة نصير الدين الطوسي رحمه الله في نهاية *أوصاف الأشراف*[٣]، ولم يذكر بعد التوحيد والاتّحاد والوحدة شيئاً غير الفناء.

---

١. الميزان، ج١٧، ص١٧٥.

٢. شرح منازل السالكين، عفيف الدين التلمساني، ص٦٠١.

٣. أوصاف الأشراف، ص٩٣ ـ ٩٧.

**الثـاني**: إنّ الإخـلاص العلمـيّ في التوحيـد والعمـليّ في الاعتقـاد، والتخلّـق والامتثال، يتطلّب قلباً سليماً منزّهاً عن الجهل العلمـيّ والجهالـة العمليّـة، بحيـث يكون مظهراً للاسمين الشريفين «العليم» و «الحكيم» من جهـة، ومظهـراً للاسـم الشريف «القدير» القائم بعدله تعالىٰ من جهة أخرىٰ؛ وبذلـك يُقام الـوزن بالقسـط في ميزان المعرفة، بلا تطفيف عمديّ ولا سـهويّ، ويُـؤتىٰ بالعمـل علىٰ وجهـه في ميزان العمل، بلا قصور ولا تقصير فيه. ومثل هذا الحرم الآمن لـن يكـون سـوىٰ بيت معمور أو بحر مسجور لقلب الإنسان الكامل المعصوم؛ لذا كان تحمّـل قلـب الوليّ حرَّ نارٍ سعّرها غضبُ الله الجبّار مقدوراً له، نسبةً إلىٰ تحمّل هجرانه تعالىٰ قلبَـه الموحّدَ بخـالص التوحيـد: «فهبنـي... صـبرتُ علىٰ عـذابك فكيـف أصـبرُ علىٰ فراقك»[١].

**الثالث**: كما أن القرآن الحكيم يذكر في آياته الشهادة علىٰ التوحيـد، تـارةً بـذكر الشاهد الأزلي مع غير الأزلي، كما في آية: ﴿شَـهِدَ اللهُ أَنَّـهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلاَئِكَـةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾[٢]، وأخرىٰ بذكر الأزلي منفرداً، كما في آية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٣]؛ فإنّ الأدعية والمناجاة والزيارات والأذكار المـأثورة الـواردة في متون الروايات تجري علىٰ هذا المنوال أيضاً؛ فإذا ما قُرن في بعضها الأزليُّ بغيره، فلا بدّ من ذكر الفوارق بين الذاتيّ والعرضيّ في بعض آخر، كالغنيّ والفقير والواجـب والممكن والخالق والمخلوق؛ ليبقىٰ أساس التوحيد وجوهره ـ وهو حصر الوجوب والصفات الذاتيّة في الله سبحانه ـ محفوظاً مراعىٰ. وعليه: فإذا ما أُسـند منـصبٌ أو صفةٌ أو فعلٌ إلىٰ أهل بيت العصمة عليهم السلام، فإنّ ذلـك يكون بلسان التوحيد الخـالص وبما لا ينافيه؛ لكي لا يكون لبس وشبهة في شيء.

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٢. آل عمران: ١٨.

٣. فصلت: ٥٣.

**الرابع**: إنّ كلّ ما يُسند في هذه الزيـارة و غيرهـا إلى الكـاملين المعـصومين هـو بمعنى وساطتهم في وصول الفيض من جهة، وبمعنى سببيّتهم وعلّيّتهم وإعدادهم من جهة أخرى، وذلك كلّه بعناية الله وفضله عليهم.

وعليه: فتلك الذوات المقدّسة موّحدة بخالص التوحيد في العقيدة والأخـلاق والأفعال، ولهم النصيب الأكـبر في نـشر الفكـر التوحيـديّ ونظريّـة وحدانيّـة الله وأحديّته في المجتمع البشريّ؛ ولذا وُصفوا في هذه الزيارة بـ «تراجمة لوحيه وأركاناً لتوحيده».

**الخامس**: إنّ التركيز الخاصّ على مسألة التوحيد والتشديد في الإخلاص فيه من الأمور المعتنى بها عناية خاصّة في أدعية أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ فمن أدعية الإمام السجّاد عليه السلام: «... واجعلني من أهـل التوحيـد»[1]، «وسيلتي إليـك التوحيـد»[2]، «والحمد لله على ما عرّفنا من نفسه... ودلّنا عليه من الإخلاص له في توحيده»[3].

* * *

١ . الصحيفة السجادية، الدعاء٤٨ .

٢ . المصدر نفسه، الدعاء٤٩ .

٣ . المصدر نفسه.

# وَالمُظْهِرِينَ لأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ

كلمة «مُظهرين» جمع «مظهر»، وهو اسم فاعل من باب «إفعال»، مشتقّ من «ظهر»، والأصل في معنى «الظهر» ظَهر الإنسان، وهو خلافُ بطنه، ولأنّ ظهر الإنسان والحيوان يجمع عنصري البروز والقوّة[1] فقد استعملت هذه المفردة فيهما، فقيل لوسط النهار: «ظُهراً» لأنّه أظهر أوقات النّهار وأَضْوَؤُها. ويقال للوقت السابق عليه بقليل «الضُّحى»؛ وعليه فالتعبير بـ «المُظهرين» هنا بمعنى المُبرزين والصادعين بأمر الله ونهيه.

وكلمة «أمر» هنا بمعنى الأمر بالامتثال[2]، المناقض للنهي.

وكلمة «نهي» بمعنى طلب ترك الشيء، وهو يدلُّ على غايةٍ وبلوغ، ونهاية كلّ شيء غايته[3]؛ فالرجل المنهمك في فعلٍ ما إذا نهيتَه عن إتمامه فانتهى عنه فتلك غايةُ

---

١. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادّة «ظهر».

٢. انظر: فقرة «المستقرّين في أمر الله» المتقدّمة.

٣. معجم مقاييس اللغة، مادّة «نهي».

ما كان وآخره. ثمّ استعملت هذه المفردة في مطلق طلب الترك، سواء في ترك الفعل المنهمَك فيه، أم في ترك ما لم يُبدأ فيه بعد.

## الصادعون بأوامر الله

بأوامر الله تتحقّق المشيئة الإلهيّة، وأوامره تعالى إمّا تكوينيّة أو تشريعيّة، وكلّ منهما تارةً يكون بصيغة الأمر وطلب الفعل، وأخرى بصيغة النهي وطلب الترك[1].

وحالما يصدر الأمر التكويني يتحقّق متعلّقه بلا زيادة ولا نقصان، أمّا في الأمر التشريعي فإنّ إرادة العبد توجد فاصلاً زمنيّاً بين إرادته سبحانه لمتعلّق أمره وبين تحقّقه خارجاً؛ ذلك لأنّ المأمور يجب أن يأتي بالمأمور به عن رغبة واختيار، فربّما لا يأتي به، فلا يتحقّق متعلّق الأمر الإلهي خارجاً.

والأوامر والنواهي التشريعيّة تُبلّغ للعباد بواسطة الرسل وأوصيائهم، فهم مظاهر الأوامر الإلهيّة الهادية.

إنّ أبرز مهامّ الأئمّة المعصومين التي لا يكاد يجهلها أحد إظهار أوامر الله تعالى ونواهيه، وهذه المهمّة أظهر تكاليفهم كخلفاء للنبيّ الأكرم ﷺ. وما استغناء فقه الشيعة ـ من بين الفرق الإسلاميّة المختلفة ـ وعدم اعتمادهم فيه على القياس والاستحسان وما شابه إلاّ ببركة القيام بهذه الوظيفة الكبيرة.

---

١. مثال الأمر التشريعي قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٣)، ومثال النهي التشريعي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٣٤)، ومثال الأمر التكويني قوله تعالى: ﴿كُن فيكون﴾ (يس: ٨٢)، ومثال النهي التكويني كلّ ما دلّ على المنع والدفع والإباء وما شابه، ومنعه تعالى من تحقّق شيء هو نفسه نهيه التكويني عنه، كما في آية: ﴿يَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (التوبة: ٣٢)، وآية: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ (المائدة: ٦٤).

ثمّ إنّ الأئمّة عليهم السلام مظهر الفيض الإلهي، وبما أنّ فيوضاته تعالى تصل إلى نظام الوجود عبر الأمر والنهي تكويناً؛ فهم عليهم السلام مظهري أمره ونهيه التكوينيّين أيضاً.

## إشارات

### ١ ـ معاني النهي التكويني

النهيُ في مثل آية: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[1]، وآية: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2] هو المنع الخارجيّ عينه، فيكون نهياً تكوينيّاً.

وكلّما كره الله شيئاً لقبحه وأثره المفسد فذلك الشيء واقع في دائرة المبغوض لله تعالى، ومن ثمّ فهو تعالى يحول دون تحقّقه، مثل مشاركة بعض المنافقين في ساحات الجهاد بداعي النفاق، فقد كرهه تعالى وأبغضه، فلم يتحقّق خارجاً، فجاء التعبير عن هذا النهي التكويني بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[3]. والمناسب إبدال عنوان «الأمر والنهي التكويني» بـ«الإرادة والكراهة»؛ لأنّ استعمال هاتين الكلمتين في عالم التكوين شائع متداول، وإن كانتا تستعملان أيضاً في الإرادة والكراهة التشريعيّتين.

### ٢ ـ المستور والمشهور من الأمر الإلهي

تارةً يكون الأمر الإلهي غيباً مستوراً وأخرى يكون شهادةً مشهوراً، فالمستور منه يكتمه أهل البيت عليهم السلام ويبقونه غيباً، والصعب المستصعب يكتمونه عن بعضٍ

١. النازعات: ٤٠.
٢. العنكبوت: ٤٥.
٣. التوبة: ٤٦.

ويظهرونه للبعض الآخر وهم الخواصّ؛ وأمّا ما يرجع إلى الشهادة فهم يبلّغونه ويظهرونه للكلّ. وعليه فالمراد من هذه الفقرة من الزيارة إظهارهم عليهم السلام لما في نشره وإذاعته الصلاح والخير، لا في كتمانه وستره؛ من هنا دأب التابعون الصادقون لرسول صلى الله عليه وآله على إظهار دين الله تعالى ونشره «... وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته»[١].

### ٣ ـ اقتران الأمر الإلهي بالصلاح

الأمر الإلهي مقرون أبداً بصلاح البشريّة وفلاحها، وكانت حركة أهل بيت العصمة بقصد إظهار الصلاح والخير؛ لكي يوضحوا أمره تعالى، المقترن دوماً بالصلاح ونافٍ للطلاح والبغي.

وعلى هذا الأساس، فمظهرو أمر الله هم مصلحو المجتمع، الذين يمهّدون للإصلاح العالميّ. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بيان سبب الخلافة: «ونظهر الإصلاح في بلادك»[٢]، وإن اتّهمه فريق فرعونيّ بأنّه: ﴿يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[٣].

### ٤ ـ الإمام المهديّ سبب إظهار دين الله

من معاني الظهور (أو لازم لمعناه) الغلبة والنصر المؤزّر؛ لأنّ من أبرز مصاديق أمر الله دينُه، والغاية من بعثة الأنبياء إنّما هي: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٤] وليتغلّب على الأديان الباطلة والمنسوخة. وأهم عنصر فاعل في تحقّق هذه الغاية وجود أناس

---

١ . الصحيفة السجاديّة، الدعاء٤.
٢ . نهج البلاغة، الخطبة١٣١.
٣ . غافر: ٢٦.
٤ . التوبة: ٣٣.

كاملون معصومون، لا سيّما كالإمام المهديّ ﷺ؛ لأنّه مؤيَّد بتأييد ربّانيّ خاصّ، والأرضيّة معدّة له من قِبل ثلاثة عشر معصوماً سبقوه، كلّهم كانوا «مستقرّين في أمر الله»؛ فلا جرم سيوفّق للرقيّ بعقول الناس وتوسيع مداركهم الذهنيّة من جهة، وإرساء العدالة الاجتماعيّة والنهوض بها من جهةٍ أخرىٰ. وبذلك يتمّ إظهار دين الله وغلبته علىٰ التيارات والأديان الأخرىٰ، وفي ظلّ هذه الغلبة الفكريّة تتحقّق الانتصارات الأخرىٰ، وكما أنّ الله سبحانه أيّد في مقطع زمانيّ معيّن أتباع السيّد المسيح علىٰ الكافرين به: ﴿... فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1]، فإنّ العالم بأسره علىٰ موعد مع صلح وعدلٍ إلهيّين شاملين، علىٰ يد الإمام بقيّة الله ﷺ، خاتم الأوصياء وخلاصة المقدّسين الغابرين.

* * *

---

١. الصف: ١٤.

# وَعِبادِهِ المُكْرَمينَ، الَّذينَ لا يَسبِقُونَهُ بالقَوْلِ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ، وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ.

كلمة «العباد» ظاهرة المعنى[1]، والعبادة وإن كانت أمراً لازماً للعبوديّة؛ إلاّ أنّ العبوديّة المحضة لله مقامٌ يعلو درجة العابد؛ لأنّ كثيراً من الناس تكون عبادتهم عن عادةٍ لا عن عبوديّة، فليس كلّ عابد بعبدٍ، ولكن كلّ عبدٍ هو عابدٌ.

وكلمة «المكرَمين» اسم مفعول من باب «إفعال»، مشتقّة من المادّة «كرُم»، بمعنى المشرَّفين والمحبوّون بالكرامة[2].

وكلمة «يسبقون» مشتقّة من المادّة «سبق»، بمعنى التقدّم[3]. والفعل المضارع دالٌّ على الاستمرار، والمنفيّ منه دالّ أيضاً على دوام النفي، فمعنى «لا يسبقونه»

---

١. انظر: فقرة «ساسة العباد» في المجلّد الأوّل.

٢. انظر: فقرة «أصول الكرم» في المجلّد الأوّل.

٣. انظر: معجم مقاييس اللغة، مادّة «سبق».

أنّهم لا يتقدّمون عليه تعالىٰ أبداً.

وكلمة «قول» بمعنىٰ إبراز ما في القلب والنفس. والإبراز بغرض التفهيم والتفاهم يختلف بتغيير طرفي التفاهم. فعنوان «التفاهم والتخاطب» لا يختصّ بالإنسان ولا بآلة اللسان والأذان، بل يشمل ما يكون بين الله والملائكة[١]، وبالعكس[٢]، وبين الله والإنسان[٣]، وبالعكس[٤]، وبين الإنسان والملائكة[٥]، وبالعكس[٦]، وبين الله والشيطان[٧]، وبالعكس[٨]، وبين الحيوان والحيوان[٩]، وبين الطير والإنسان[١٠]، وبين الجنّ والجنّ[١١]، وغير ذلك، بل ربّما حصل بوسائل أخرىٰ، من إلقاءٍ ووحيٍ وإلهامٍ وإرادةٍ وقرعٍ مخصوصٍ وحركةٍ معيّنةٍ، وما شابه ذلك[١٢].

قال المعلّم العلامة الطباطبائي ﷺ في هذه المسألة:

«لا يسبق فلان فلاناً بالقول أي لا يقول شيئاً قبل أن يقوله، فقوله تبع، وربّما يكنّىٰ به عن الإرادة والمشيّة، أي إرادته تبع إرادته»، ويضيف: «بعبارة أخرىٰ: إرادتهم وعملهم تابعان لإرادته ـ نظراً إلىٰ كون القول كناية عن الإرادة ـ

---

١ . ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ﴾ (البقرة: ٣٠).

٢ . ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ﴾ (البقرة: ٣٢).

٣ . ﴿قُلْنَا يَا آدَمُ﴾ (البقرة: ٣٥).

٤ . ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ﴾ (النمل: ١٩).

٥ . ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ﴾ (مريم: ١٨).

٦ . ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ (مريم: ١٩).

٧ . ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ (ص: ٧٥).

٨ . ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (ص: ٧٩).

٩ . ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ (النمل: ١٨).

١٠ . ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ (النمل: ٢٢).

١١ . ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾ (الجن: ١).

١٢ . انظر: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مادّة «قول».

فلا يريدون إلا ما أراد و لا يعملون إلاّ ما أراد»[١].

وكلمة «أمر» هو الطلب الصادر من العالي المقترن بالتكليف.

وكلمة «يعملون» فعل مضارع للجمع، مشتقّة من المادّة «عمل». والعمل هو كلّ شيء يقوم به الكائن الحيّ بقصد. والتعبير هنا بـ «وهم يعملون بأمره» صحيح أيضاً، لكن جاءت كلمة «بأمره» في الزيارة متقدّمةً على متعلّقها (يعملون) لإفادة الحصر؛ فيكون معناها: إنّهم يعملون بأمره تعالى وحسب، وما دام لا أمر منه فلا عمل منهم لغيره بتّاً، بل ولا لأنفسهم أيضاً؛ لفناء مشيئتهم في مشيئته سبحانه. وبهذا تدلّ هذه الفقرة: «لا يسبقونه... يعملون» على عصمة أولئك العباد المكرمين، علاوة على تضمّن معنى «التكريم» ذلك أيضاً.

## أكمل من الملائكة

بعد أن ذكرت الفقرة السابقة إحدى أعظم وظائف الأئمّة، وهي إظهار أمر الله ونهيه، جاءت هذه الفقرة لتبيّن أنّهم عليهم السلام لا يصدرون في تبيينها عن منزعتهم ولا يحكّمون فيها هواهم، بل إنّهم لا يتقدّمون ربّهم في شيء منها، ولا يعملون إلاّ بما يريد؛ فهذه الفقرة تلتقي في معناها بآية: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[٢]، النازلة في شأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وهي فقرةٌ مقتبسة من آية نازلة في وصف الملائك، فتدلّ على الصبغة الملائكيّة للأئمّة عليهم السلام، وإن كانوا أكمل منها وأفضل، بل هم ـ بإذن الله ـ معلّموا الملائك ومدبّروهم ورازقوهم و... إلاّ أنّ الصبغة الملائكيّة مقام أعلى، وبيان ذلك:

إنّ البهائم فُطرت خلِقتها على شهوة بلا عقل، والملائك فطرت على عقل

---

١. الميزان، ج١٤، ص٢٧٥.

٢. النجم: ٣ ـ ٤.

بلا شهوة؛ من هنا سلك الفريق الأول طريق العصيان والثاني طريق الطاعة. أمّا الإنسان فقد بُرئ مركّباً من عقل وشهوة، فجمع بين عنصري البهيمة والملَك، فله أن يختار أيّاً من الطريقين، يتجاذبه في الاختيار العنصران، أحدهما يدعوه للعصيان والآخر للطاعة؛ فإن قوي فيه عنصر الملائك فهو متطبّع بطبعها مسانخ لها، إلى أن يصير سبّاق مضمارها والمتقدّم عليها؛ لأنّ الملائك بلغت العبوديّة لفقدان عقبة كؤود هي «الشهوة»؛ لكنّ الإنسان بلغ قمّة السعادة بصبره في ميدان الجهاد الأوسط والأكبر، مع ما فيه من شهوة، وهي حجاب غليظ.

وإن غلب عليه العنصر البهيميّ انطبع بطابعه ولامس البهيميّة، إلى أن يصير بهيمةً محضاً، بل ربّما صار أضلّ: ﴿أُوْلَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١].

شعر:

جاء الحديث بأنّ الله المجيد... على أصناف ثلاثة برأ العبيد:

واحد من عقل وعلم وَجود... وهم الملائك، فهي لا تعرف غير السجود

لا حرص ولا هوىٰ في خلقتها... بل نور مطلق، تحيا بعشق خالقها

وصنف ثانٍ من العلم خالٍ... يرعىٰ علفاً ويسمن كالحيوان

فلا يرىٰ غير الاصطبل والعلف... لا يعرف ما الشقاوة وما الشرف

وأما الثالث فهو الإنسان البشر... وهو نصف ملَك ونصف بهيمة

فنصف بهيميّته يميل به للسفل... ونصفه الآخر يميل به للعقل

والأولان في راحةٍ من الدفع والحرب... وهذا الإنسان مع هذين الضدّين في نصب

١. الأعراف: ١٧٩.

وهؤلاء البشر امتحنوا فانقسموا... كلّهم في الصورة بشر، لكنّهم أمم ثلاث:
فريق استغرق في المطلق مطلقاً... كعيسىٰ، فالتحقوا بالأملاك
وآخر إنسانٌ لكنّه في المعنىٰ جبريل... مبرّء من الغضب والهوىٰ وقال وقيل
تحلّىٰ بالرياضة والزهد والجهاد... حتّىٰ كأنّه ليس من بني الإنسان
وقسم آخر التحقوا بفريق البهائم... فهم غضب محض وشهوة مطلقة[1]

والسرّ في كون الإنسان الضالّ أسوأ حالاً من البهائم أنّ البهائم تطوي مسار البهيميّة، فتصل إلىٰ نهايته التي تمثّل كمالها، دون امتلاكها العقل؛ وبذلك فهي لا تزيغ عن طريقها المقدّر لها، بل تسير في صراطها المستقيم كما أريد لها.

شعر:
حيث لا استعداد للحيوان...
فعذره في البهيميّة بيّنٌ عِيان

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الرابع، الأبيات ١٤٩٧ ـ ١٥٠٩ . القصيدة باللغة الفارسية كالتالي:

در حديث آمد كه يزدان مجيد — خلق عالم را سه گونه آفريد
يک گرُه را جمله عقل و علم و جود — آن فرشته ست او نداند جز سجود
نيست اندر عنصرش حرص و هوا — نور مطلق زنده از عشق خدا
يک گروهِ ديگر از دانش تهي — همچو حيوان از علف در فربهي
او نبيند جز كه اصطبل و علف — از شقاوت غافل است و از شرف
اين سوم هست آدميزاد و بشر — نيم او ز افرشته و نيميش خر
نيم خر خود مايل سفلي بود — نيم ديگر مايل عقلي بود
آن دو قوم آسوده از جنگ و حراب — وين بشر با دو مخالف در عذاب
وين بشر هم ز امتحان قسمت شدند — آدمي شكلند و سه امّت شدند
يک گرُه مستغرق مطلق شدند — همچو عيسي با ملک ملحق شدند
نقش، آدم ليک معني، جبرئيل — رسته از خشم و هوا و قال و قيل
از رياضت رسته وز زهد و جهاد — گويا از آدمي او خود نزاد
قسم ديگر با خران ملحق شدند — خشمِ محض و شهوت مطلق شدند

وإذا ما صار مستعدًا لأن يكون في الطليعة...
فكلّ طعامٍ يطعمه يصير فيه مخّ حمار!
وإن أكل ثمر الفهم[١] صار له مخدّراً...
وازدادت حدّة سكتة قلبه وغباوة عقله[٢]

أما الإنسان ذو العقل إن تجاهل عقله وسلك مسلك الغواية وارتكس في ذلّها، فلسوف يكون عقله ـ الذي يجب استغلاله في مسار التعالي والكمال ـ سبباً في حيوانيّته. قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«إنّ الله عزّ وجلّ ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوةً بلا عقل، و ركّب في بني آدم كلتيهما؛ فمن غلب عقلُه شهوته فهو خيرٌ من الملائكة، ومن غلب شهوتُه عقله فهو شرّ من البهائم»[٣].

وعليه، فإنّ الانصباغ بصبغة الملائكة ليس دليلاً على علوّها على الإنسان الكامل، بل بمعنى غلبة عقله على شهوته؛ لذا كان باستطاعته التفوّق عليها وصيرورته معلّماً لها، وما كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام ـ وهو إنسان كامل في نفسه ـ إلاّ لكونه معلّماً لها، حيث أنبأهم بالأسماء. وسجدتهم تلك ـ التي كانت إكراماً لما أودع في صلبه من أرواح النبيّ والائمّة، كما في صريح بعض الروايات[٤] ـ دليل على علوّ مقام الإنسان الكامل على مقام الملائك.

---

١. ثمر الفهم هو الاسم العربي لنبتة تستعمل في التداوي، تشبه شجرة البلوط، تسمّى باللسان الفارسي «بلادر»، وأكثر ما تكون بالهند، لها لبّ عسليّ المذاق. (لغتنامه دهخدا، مادة بلادر).

٢. مثنوي معنوي، الدفتر الرابع، الأبيات١٥٢٨ ـ ١٥٣٠. والنصّ الفارسي لهذه الأبيات:

باز حيوان را چو استعداد نيست     عذر اندر بهيمي روشني است
زو چو استعداد شد كآن رهبرست     هر غذائي كاو خورد مغز خرست
گر بَلاذُر خورد او افيون شود     سكته وبي عقلي‌اش افزون شود

٣. بحار الأنوار، ج٥٧، ص٢٩٩.

٤. انظر: نور الثقلين، ج١، ص٥٨.

وقد ذكر القرآن في آيات عديدة وبصراحة وتأكيد أنّ كلّ الملائكة، من مسبّحين ومهلّلين وحامدين وراكعين وساجدين و...[١] كانوا في جملة المتعلّمين في ذلك الموقف، فلمّا تعلّموا منه وعرفوا مقامه سجدوا له: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٢].

وورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ تسبيح وتهليل وتكبير الملائكة كان بتعليم منهم، فروي عن ابن عباس قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فأقبل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا رآه النبيّ صلى الله عليه وآله تبسّم في وجهه، وقال: مرحباً بمن خلقه الله قبل أبيه آدم بأربعين ألف عام. فقلت: يا رسول الله! أكان الابن قبل الأب؟ فقال: نعم، إنّ الله تعالىٰ خلقني وخلق عليّاً قبل أن يخلق آدم بهذه المدّة، خلق نوراً قسمه نصفين، فخلقني من نصفه وخلق عليّاً من النصف الآخر قبل الأشياء، فنورها من نوري ونور عليّ. ثمّ جعلنا عن يمين العرش، ثمّ خلق الملائكة فسبّحنا وسبّحت الملائكة، فهلّلنا فهلّلت الملائكة، وكبّرنا فكبّرت الملائكة، وكان ذلك من تعليمي وتعليم عليّ، وكان ذلك في علم الله السابق أنّ الملائكة تتعلّم منّا التسبيح والتهليل، وكلّ شيء يسبّح لله ويكبّره ويهلّله بتعليمي وتعليم عليّ، وكان في علم الله السابق أن لا يدخل النّار محبّ لي ولعليّ، وكذا كان في علمه أن لا يدخل الجنّة مبغض لي ولعليّ»[٣].

**مُلاحظتان**

**الأولى:** إنّ معنىٰ علوّ الإنسان علىٰ الملائكة ليس بمعنىٰ أفضليّة البشر فرداً فرداً

---

١. لمعرفة أصناف الملائكة، انظر: الآيات ١٦٤ ـ ١٦٥ من سورة الصافات، والخطبة الأولىٰ من نهج البلاغة.

٢. الحجر: ٣٠.

٣. بحار الأنوار، ج٢٦، ص٣٤٥.

على الملائكة؛ بل المراد أفضليّة الإنسان الكامل، وهذا أمر واضح وسبقت الإشارة إليه.

**الثانية**: المعيار في هذه الأفضليّة حُسن السيرة، والإنسان قادرٌ على الاتّصاف بها بفعاله، أمّا الملائكة فهي متّصفة بذلك بمقتضى ذواتها؛ لذا فهي أعلى من الإنسان بلحاظ الذات، لكنّ الإنسان يستطيع أن يفضلها بحميد فعاله.

## مكانة العبوديّة

سبق القول: إنّ هذه الفقرة مقتبسة من آية يصف فيها الله الملائكة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[1]. وهي ردٌّ على مشركي الحجاز، حيث كانوا يقولون: إنّ الملائكة أولاد الله، تعالى عن ذلك، فنزلت الآية لتخبر ـ بعد تسبيح الله وتنزيهه عن اتّخاذ الولد ـ أنّ الملائكة عبادُه المكرمون، العاملون بإرادته، الواقفون عند مشيئته. فهي بصدد نفي اتّخاذ الله ولداً وإثبات عبوديّة الملائكة له تعالى.

وحينما تتضمّن الآية اللاحقة ـ بالإضافة إلى كثيرٌ من الآيات الأخرى ـ أنّ الملائكة: ﴿**لا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾[2] فلأنّهم متّصفون بالعبوديّة المحضة، والعبد المحض ليس له من الأمر شيء إلاّ بإذن مولاه، بما في ذلك حركاته وسكناته، فكلّه وما عنده ملكٌ لمولاه.

وهنا سؤالان:

١ ـ ما هي الخصلة التي استوجب بها الملائكة التكريم؟

**٢ ـ كيف يُكرّمون؟**

---

١ . الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

٢ . الأنبياء: ٢٨.

جواب هذين السؤالين يتلخّص في عبوديّتهم، فهي مناط تكريمهم، وهي أيضاً ملاك في كيفيّة تكريمهم وتشريفهم. بيانه:

إنّ أيّ كمال وجوديّ لا بدّ له من عمادٍ يقوم عليه، وهذه قاعدة عامّة، لا تختصّ بالمخلوقات وحدها، بل تعمّ ذات الباري أيضاً، بمعنى: إنّه كما يجب استناد كمالات المخلوق إلى أساس متين، كذلك يجب وجود بناء صمد لكمالات الذات الإلهيّة الخالقة. وقد ذكروا أنّ الركن الركين لكلّ صفاته الكماليّة هي «ذاته» نفسها؛ لأنّ لها وجوباً ذاتيّاً، وهو يقتضي الكمالات كافّة، و «ذاته» هي ما تسمّى حسب التعبير القرآني والروائي «الله»؛ لذا فكلمة «الله» تقع موصوفاً لكلّ صفة: ﴿**والله غفور رحيم**﴾، ﴿**والله عليم حكيم**﴾؛ بينما لا تكون أبداً صفةً لموصوف، فلا يصحّ القول: «غفورٌ الله» أو «عليم الله»، وما شابه هذه التعبيرات.

أمّا في غيره تعالى فإنّ منطلق كماله وسلّم تعاليه هو «العبوديّة» له تعالى، فهي منصّة صعود العباد. فكلّما كانت العبوديّة أكمل كان سلّم التعالي أطول، وكلّما ضعفت قصر، حتّى تأفل وتزول؛ ولولا هذه المنصّة لما وجد كمال.

ولو انتفى الوجوب الذاتيّ للذات الإلهيّة (وهو فرض محال) لما أمكن تصوّر كمال ذاتيّ له تعالى.

فكلّ كمالٍ يصف به القرآنُ والرواياتُ أحداً، من نبيّ وغيره، فالمعيار الأول فيه العبوديّة، وما بلغ الخليل إبراهيم عليه السلام أعلى الدرجات ـ وهي درجة الإمامة ـ إلاّ بها. جاء في الرواية: «**إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عليه السلام عبداً قبل أن يتّخذه نبياً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، قال: فمن عظمها في عين إبراهيم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾**،

قَال: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾»[١].

إنّ نيل سائر الأنبياء والأولياء للمقامات العالية كان أيضاً بواسطة العبوديّة؛ فعيسى عليه السلام جُعل نبيّاً وأوتي الكتاب ببركة عبوديّته: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[٢]، وأمّه مريم العذراء بلغت ما بلغت بالعبوديّة: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾[٣]. كما استحقّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله نيل الكتاب الإلهي لعبوديّته الخالصة لله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾[٤]، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾[٥]، وجاء في تشهّد الصلاة الشهادةُ له بالرسالة بعد الشهادة له بالعبوديّة: «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله».

### ملاحظة

إنّ نيل الدرجات الرفيعة مسبوق بالعبوديّة، ولا يكون بدونها، ولكن لا بمعنى أنّه معلول لها، فيكون ذلك مقدوراً لكلّ عابد، بل هناك شروط كثيرة مستورة، و﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٦].

### المعراج ثمرة العبوديّة

كان العروج سفراً استثنائيّاً مليئاً بالأحداث الفائقة العظمة بالنسبة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد عبّر القرآن عن عظمة عروج النبيّ وبلوغه النهاية فيه فقال:

---

١. بحار الأنوار، ج١٢، ص١٢؛ أصول الكافي، ج١، ص١٧٥.

٢. مريم: ٣٠.

٣. مريم: ١٦.

٤. الكهف: ١.

٥. الحديد: ٩.

٦. الأنعام: ١٢٤.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[١]، حتّىٰ أنّ جبرئيل عجز عن بلوغ مبلغه ﷺ وقال: «لو دنوت أنملة لاحترقت»[٢]. هنالك تلقّىٰ النبيّ الوحي من الله بلا توسّط جبريل[٣].

هذا كلّه كان بفضل العبوديّة، فقد ركب النبيّ الأكرم ﷺ موج العبوديّة فبلغ بها أن رأىٰ من آيات ربّه الكبرىٰ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾. وبعبارةٍ أخرىٰ: إنّه امتطىٰ براق العبوديّة قبل أن يمتطي البراق المرسل إليه من السماء، وقد وصف الله تعالىٰ ذلك السفر الذي كان من أوّله إلىٰ آخره عبوديّةً له بقوله عزّ وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٤]، وفي ذكر حصيلته ونهايته قال: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٥].

ومع أنّ المرويّ أنّ عروج النبيّ ﷺ كان من دار أمّ هاني أو دار خديجة أو شِعب أبي طالب[٦]؛ إلاّ أن أولىٰ آيات سورة الإسراء نصّت علىٰ أنّه كان من المسجد الحرام، وفي ذلك دلالة علىٰ أنّ عروجه ﷺ كان ببركة السجود والعبوديّة.

والحاصل: إنّ القرآن الكريم خصّ النبيّ الأكرم ﷺ من دون سائر الأنبياء

---

١. النجم: ٧ ـ ٩.

٢. بحار الأنوار، ج١٨، ص٣٨٢.

٣. ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الآيتين من آخر سورة البقرة تلقّاهما النبيّ ﷺ مشافهة من الله، قال: «إنّ هذه الآية مشافهة الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ ليلة أسرىٰ به إلىٰ السماء» (تفسير القمّي، ج١، ص٩٥، ذيل الآية الأخيرة من سورة البقرة).

٤. الإسراء: ١.

٥. النجم: ١٠.

٦. انظر: بحار الأنوار، ج١٦، ص٤١٢؛ ج١٨، ص٣٨٠.

يوصفه بصفة «عبد» مجرداً من اسمه[١]؛ وأمّا بقيّة الأنبياء فهو يذكر أسماءهم إلىٰ جنب تلك الصفة[٢]. وفي هذا الاختصاص دلالة علىٰ أنّه ﷺ بلغ في العبوديّة مبلغاً لم يبلغه أحدٌ سواه، فلمّا لم يشاركه فيه غيره كان التعبير عنه بـ «عبد» كافياً في تعيينه وتشخيصه.

وممّا سبق بيانه يتّضح:

**أولاً:** إنّ توصيف الملائكة بالكرامة أعظم تشريف لهم.

**ثانياً:** إنّ سبب اتّصافهم بذلك ومنصّة انطلاقهم إلىٰ سماء الكمالات هو عبوديّتهم؛ وبهذا يتّضح جواب السؤال الثاني أيضاً، فإنّ تكريمهم يكمن في توفيقهم لدرجات أرفع في مرتقىٰ العبوديّة.

إنّ العبوديّة لله تعالىٰ ليست خاصّة بأهل البيت عليهم السلام، والفرق بينهم وبين غيرهم أنّ نعمة العبوديّة الخالصة المحضة أفيضت عليهم، لدرجة أنّهم لا يجدون في بواطنهم إلاّ العبوديّة، وهذا ما لم يبلغه غيرهم؛ وبالتالي فهذه الإفاضة مدعاة تكريمهم وتشريفهم.

وقوله تعالىٰ بعد توصيفهم بالكرامة: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[٣]، إنّما هو لغرض بيان آثار العبوديّة الكاملة، فالمعنىٰ: أنّ تلك الذوات المقدّسة لا يتقدّمون علىٰ الله في شيء من الأفعال لأنّهم عباد كاملون، ويحتمل أن يكون ذلك تفسيراً لمعنىٰ التكريم لهم أيضاً.

**ملاحظة**

نحن نعلم أنّ الغرض الأول من الآيات والروايات والأدعية والأحكام و...

---

١. كما في الآيات: **٢٣ البقرة، ١ الكهف، ١ الفرقان، ٩ الحديد، ٤١ الأنفال، ١٠ النجم.**

٢. مثل: ﴿**عبدنا أيوب**﴾ (ص: ٤١)، ﴿**عبدنا داود**﴾ (ص: ١٧)، ﴿**عبده زكريّا**﴾ (مريم: ٢).

٣. الأنبياء: ٢٦.

هو تخلّق العباد بأخلاق الله والاتّصاف بصفاته. والغرض من توصيف الملائكة بالكرامة في هذه الآية محلّ الكلام، ومدح الأئمّة عليهم السلام بتطبّعهم بطبعٍ ملائكيّ في هذه الفقرة من الزيارة ترغيب لآحاد الناس للتحلّي بتلك الصفة الملائكيّة، وقد جاء مثل هذا الترغيب في بداية سورة الحجرات، حيث قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

إنّ المسلم لا يسعه فعل أيّ شيء يهواه؛ لأنّ مجيئنا إلىٰ هذا العالم وذهابنا منه ليس بإرادتنا، بل الله سبحانه خلقنا بإرادته وسيميتنا يوماً ما بإرادته أيضاً، وليس لنا من الاختيار إلاّ اختيار سبيل الخير أو الشرّ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[2]. وقد أرانا تعالىٰ طريق الهداية ودلّنا عليها، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]. وبذلك يتبيّن أنّ الإنسان لم يُترك سدىٰ، ليفعل ما يحلو له، بل هو في دائرة إرادة خالق الوجود، فيجب أن تكون إرادته تابعةً لإرادة الله تعالىٰ.

## إشارات

### ١ ـ هدف الخلقة

يرىٰ البعض أنّ غرض الله من الخلقة هو العبادة، ويستدلّ علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن

---

١ . الحجرات: ١.
٢ . الزمر: ١٧ ـ ١٨.
٣ . فصلت: ٣٣.

يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[١]. وهذه الرؤية وإن كانت صواباً إلاّ أنّه يجب الالتفات إلى أنّ العبادة غرضٌ للمخلوق لا للخالق. فصحيح أنّ كثيراً من المعاني والصفات التي نضيفها للمخلوقات يمكن استعمالها في توصيف الخالق أيضاً، لكنّ هذا الاستعمال ليس بمعنى اشتراك الخالق والمخلوق في كلّ حيثيّات وخصوصيّات تلك المعاني والصفات، بل لا بدّ أولاً من تجريدها من الخصوصيّات الماديّة واللوازم العدميّة قبل توصيف الله بها، ومن المعاني المشتركة الاستعمال «الهدفيّة في الأفعال».

«الهدف» عندنا ـ نحن المخلوقين ـ هو الفائدة المتوخّاة لنا حين القيام بعملٍ ما، ونسعى للحصول عليها، بحيث إنّه لو لم يؤتَ بذلك العمل على وجهه المطلوب، أو لم تحصل فائدته لمانعٍ ما، لكان عملنا عبثاً عديم الفائدة. ولا ريب في أنّ لكلّ عاقلٍ واعٍ هدفاً ومبتغى من فعله، وهو يرى أنّ مطلوبه ذاك كمال هو فاقدٌ له فعلاً، ومن ثمّ يعمل لتحصيله[٢]؛ لأنّه لن يتحرّك ما لم يعلمه كمالاً ذا فائدة، وحتّى من ينتحر، فإنّه يرى كماله في موته، ظنّاً منه أنّ العدم سيخلّصه من جهد البلاء. والحاصل: إنّ هدف العقلاء من فعالهم بلوغ الكمال[٣].

هذا كلّه بالنسبة لغير الله جلّ وعلا، أمّا هدفه تعالى من الخلق فيمكن بيانه كالتالي:

**أولاً**: هو تعالى حكيمٌ، وحكمته تقتضي كون أفعاله صادرة عن حكمة، لا عن عبث ولغو، وهذا ما جاء في عدد من الآيات، كآية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً

---

١ . الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨.

٢ . وقد يكون ذلك المطلوب ليس كمالاً حقيقيّاً، لكنّ الإنسان الغافل يظنّه كمالاً!

٣ . وهناك بحوث في هدفيّة أفعال بقية المخلوقات؛ ولكنّها خارجة عن نطاق البحث هنا.

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، وآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[2]؛ أجل... ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]، فهم الذين يحسبون أنّ نظام الخلقة عبثٌ لا غرض فيه وباطلٌ لا هدف له؛ إنكاراً للمعاد وفراراً من الحساب.

ثانياً: إنّ الله سبحانه كمالٌ مطلق وغنىً محض: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4]، فلا كمال تفتقده الذات الإلهيّة كي يحتاج الباري لفعلٍ في تحصيله؛ لعدم اجتماع الكمال المطلق والغنى المحض مع الفقر والاحتياج، وإن في أقلّ درجات الفقر؛ فلا يصحّ القول: إنّ لله في أفعاله غرضاً لذاته؛ لأنّه غير محتاج لشيء أبداً، ولا يصحّ أيضاً القول: إنّ أفعاله لا هدف منها؛ لأنّه حكيم.

وبعبارةٍ أخرى: نحن لا ننفي مطلق الهدفيّة في أفعاله، بل ننفي وجود هدفٍ له سبحانه خارج ذاته، بحيث يكون محتاجاً إليه في كمال الذات.

لهذا نقول: إنّ الأغراض العقلائيّة المشاهدة في أفعاله تعالى أغراض للفعل لا للفاعل، فهو لا يفعل شيئاً بقصد رفع حاجة أو نيل شيءٍ ما؛ لأنّه تعالى مطلوب كلّ طالب وقاضي حاجة كلّ محتاج، بل وقبلة قافلة الوجود بأسره، فلا وجود لمقصودٍ أعظم من ذاته المقدّسة لكي يفعل سبحانه ما يوصله إليه، فليس لفعله غاية يتوسّل به لبلوغها، كما هو الحال عند غيره، ليقال إنّ الله فعل كذا لينال ذلك الغرض؛ لذا قالوا: إنّ الأفعال الإلهيّة لا تُعلّل بالأغراض. وليس صواباً ما قاله بعض في توجيهها:

---

١. المؤمنون: ١١٥.

٢. الأنبياء: ١٦؛ الدخان: ٣٨.

٣. ص: ٢٧.

٤. لقمان: ١٢.

شعر:

لم أخلق الخلق لأنتفع بهم...

بل لأتفضّل وأجود على العباد[١]

لأنّ معناه أنّه لو لم يجُد بفضله على العباد لكان تعالى ناقصاً، فأراد تعالى بجوده وتفضّله عليهم نيل كمال، فحاله حال مَن ينشد كمال الجود والسخاء والتخلّص من نقص البخل ببناء المشافي وما شابه من المرافق الاجتماعيّة؛ اللهمّ إلاّ أن يُقال: إنّ مراد الشاعر أنّ التفضّل على العباد ليس هدفاً للفاعل لكي يدلّ على نقص الذات، بل هدف لفعله، وهذا رجوعٌ إلى ما قيل قبل قليل.

وعليه تكون عبادة الجنّ والإنس ونيلهم العبوديّة هدفاً للخلقة، وليس غرضاً للخالق ذاته. فإذا ما بلغ مخلوقٌ درجة العبوديّة فقد آتى «فعلُ» الله ثماره وبلغ هدفه، كالنواة تكون نخلةً، وإن لم ينلها لم يبلغ «فعلُ» الله هدفه، كالنواة تفسد في التربة. وعلى كلّ حال، فليس للذات الإلهيّة نفع في الصورة الأولى ولا ضرر يمسّها في الثانية، فلا معنى لأن يقال: إنّ لله غرضاً تارةً يصبه وأخرى يخطئه؛ لأنّه بذاته غرضٌ محض يطلبه الطالبون؛ ولذا قال: **﴿إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**[٢].

شعر:

لو كفرت كلّ الكائنات... لما أصاب رداءَ كبريائه هباءُ غبار[٣]

---

١ . نصّ البيت باللغة الفارسية:

من نكردم خلق تا سودي كنم　　　بلكه تا بر بندگان جودي كنم

٢ . إبراهيم: ٨.

٣ . نصّ البيت باللغة الفارسية:

گـر جمله كائنات كافر گردند　　　بر دامن كبريايش ننشيند گرد

ولأنّ الخِلقة دائمة متجدّدة ولحظة بلحظة، فغايتها ـ وهي العبادة والعبوديّة ـ يجب أن تكون أيضاً مستديمة ولحظة بلحظة، ولا يكفي أن تكون مرّة واحدة فقط.

ملاحظة

إنّ علاقة الله تعالىٰ بالعالم ليست علىٰ حدّ علاقة البنّاء والبناء، تنتهي الحاجةُ إليه بانتهاء الإيجاد، بل علىٰ حدّ ارتباط نور الشمس بالشمس، وحاجة المصباح المضيء إلىٰ مصدر الطاقة، لا يزال نورهما أبداً بحاجة إلىٰ المصدر المُمدّ. وقد شبّه مولانا جلال الدين الرومي ـ وهو ذو براعة خاصّة في التشبيه ـ موجودات العالم وحركاتها بتمثال أسدٍ منقوش علىٰ علَم، وبهبوب الهواء يخفق العلم فيبدو الأسدُ المنقوش وكأنّه في حالة هجوم وانقضاض، فقال في هذا الصدد: إنّ هجوم الأسد بادٍ لكنّ الهواء المحرّك ليس مرئيّاً للأنظار، فمن لا علم له بوجود الهواء يظنّ أنّ الهجوم والحركة صادرة من الأسد علىٰ الحقيقة؛ والحال أنّه لولا الهواء لما كان للهجوم وجود.

شعر:

نحن كلّنا أسود ولكن أسود [منقوشة] علىٰ علَم...

هجماتها [المترائية للأنظار بسبب تموّج العلم] من هبوب الهواء

تُرىٰ هجماتها، ولكنّ الهواء [المسبّب لها] لا يُرىٰ...

فلا نغفلنّ عمّن لا نراه بأبصارنا[1]

---

١ . مثنوي معنوي، الدفتر الأول، البيت ٦٠٢. ونصّ البيتين باللغة الفارسية هو:

ما همه شيران ولي شير عَلَم — حمله شان از باد باشد دم به دم

حمله شان پيدا و ناپيداست باد — آن كه ناپيداست از ما گم مباد

## ٢ ـ الاستنباط النهائي من الآية

إنّ آية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وإن استفيد منها أنّ غاية خلق المخلوق هي العبادة، إلاّ أنّ هذا فهم بدويّ وفي الجملة، لا استنباط وفهم نهائي وبتمام المعنى، بيان ذلك:

إنّ الآية هنا تنحلّ في الحقيقة إلى قضيّة موجبة وأخرى سالبة، فتفيد الحصر؛ لأنّ الجمع بين النفي والإثبات لا ينتج غير الحصر، والقضيّة المنحلّة إلى موجبة وسالبة تختلف جذريّاً عن القضيّة ذات البُعد الواحد، إيجاباً كان أو سلباً؛ فإنّ القضيّة ذات الإيجاب فقط مثل «خلقتُ الجنّ والإنس ليعبدون» لا تفيد الحصر بوجه، بخلاف مثل الآية محلّ الكلام، فإنّها تنطوي على إيجاب وسلب، ومفادها: إنّه لا غرض ولا غاية من خلق الثقلين إلاّ تعبّدهما في ساحة القدس الربوبي. وهذا يعني أنّه لو شغل إنسانٌ بعض وقته بأداء الفرائض الدينيّة، وتنزّه في بقيّة وقته عن الذنوب وشغله بشؤون يوميّة ليس بذات صبغة عباديّة، فهو بحسب القضيّة الموجبة فقط (خلقتُ الجنّ والإنس ليعبدون) قد حقّق الغرض المراد من خلقه؛ ولكنّه بحسب القضية المنطوية على إيجابٍ وسلب ـ كما في الآية محلّ البحث ـ أخلّ بذلك؛ لأنّ مفادها أنّ الباعث الحصريّ لخلق الإنس والجنّ والغرض منه هو العبادة لا غير، فإذا ما انشغل بغيرها في بعض وقته فقد خالف الغرض من خلقه؛ ولأجل تفادي ذلك عليه أن يصبغ كلّ أفعاله بصبغة العبادة، بما في ذلك المباحات، بأن يوظّفها لخدمة المجتمع وفعل الإحسان والبرّ والإيثار.

إنّ الإنسان الكامل بلغ هذه المرتبة الرفيعة من العبادة؛ ولذا قال النبيّ الخاتم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ونقرأ في

---

١ . الأنعام: ١٦٢.

زيارة «آل يس» في التسليم على الوصيّ الخاتم: «السلام عليك في آناء الليل وأطراف... وحين تصبح وتمسي». وهذه الشموليّة في السلام بسبب انصباغ شؤون تلك الذات القدسيّة كلّها بصبغة العبادة، مثلما ورد في أدعية أمير المؤمنين عليه السلام: «... وحالي في خدمتك سرمداً»[١].

وللأسف إنّ البعض غافل عن هذا الفيض العظيم، وفي غفلة عن هدف خلق البشر، ويعبد ما يجول في ذهنه من مفاهيم، ولا يحقّق مصاديقها العينيّة الخارجيّة، فمع أنّ للأسماء الإلهيّة الحسنى مسمّيات واقعيّة؛ لكنّ هؤلاء البعض يعبدون الاسم والمفهوم فقط، فضارعوا عبّاد الأوثان، بفارق أنّ معبود الوثنيّين محض اسم، ولا مسمىً له واقعاً، ومعبود هؤلاء له مسمّىً على الحقيقة، ولكنّهم ـ كالوثنيين ـ يعبدون الاسم فقط، ولنا أن نعبّر عنهم بتعبير الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[٢].

### ٣ ـ الهدف الأساس للخلق

ذكر الله تعالى أنّ هدف إيجاد نظام الوجود هذا هو معرفة البشر بعلمه وقدرته سبحانه، فقال عزّ وجل: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[٣]. تفيد هذه الآية الكريمة العلمَ بأنّه تعالى عالمٌ قادرٌ، وتخبرنا بحياته أيضاً، والحياة هي العنصر الأساس في الاتّصاف بالعلم والقدرة، وأنّه خالقٌ ومدبّر وحكيم؛ لأنّ هذه المنظومة الكونيّة المحكمة من خلقه وصنعه.

---

١ . مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٢ . الحج: ١١.

٣ . الطلاق: ١٢.

ويُفهم من مجموع الآية المذكورة آنفاً وآية سورة الذاريات أنّ الهدف من خلق العالم وآدم هو «المعرفة والعبادة»؛ فلو اتّصفت البشريّة بهما فقد بلغت الغاية، وإن لا؛ فهي الخاسر الخائب، والله هو الغنيّ الحميد.

## ٤ ـ مكانة العبادة في السير والسلوك

ليس لعنوان «العبادة» منزل خاصّ يُذكر فيه إلى جنب منازل السائرين الصالحين والسالكين الواصلين، بحيث تكون «العبادة» إحدى مراحل أهل السير؛ لذا لم يذكرها الخواجة الهروي وشارحو كتابه القيّم في عداد المنازل؛ ذلك أنّ العبادة أصلٌ جامع، تُظلّ كلّ المنازل وحاضرة في كلّ المراحل، وإن جرى كلامٌ في بعض مصاديقها[١]، كالتفكّر، وهو من أحسن العبادات، وكاليقين، وهو عائدها والأثر النافع المترتّب عليها. ولليقين درجات ثلاث: علم اليقين، عين اليقين، حقّ اليقين؛ وكلّ درجة منها أثرٌ لدرجةٍ من العبادة.

## ٥ ـ عجز المخلوقات عن حقّ العبادة

كما أنّ المعرفة الكاملة بالله معجِزٌ لا يمكن لأحدٍ إدراكه؛ فإنّ العبادة التامّة والجامعة له تعالى فائتٌ لا يُدرك، فليس بمقدور مخلوق ـ حتّى الملائكة ـ القيام بحقّ عبادته سبحانه؛ لأنّه كلّما تضاعفت عبادته وخلصت، أوجبت على العابد شكراً جديداً وعبادة جديدة تقديراً لهذا التوفيق الكمّي والكيفيّ فيها، مع أنّ نعمة الوجود وحدها لا يمكن تأدية شكرها وتقديرها بالعبادات المعروفة لنا؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في الملائكة، وهم من عُرفوا في استغراقهم في العبادة وخلوص النيّة وطهارة الذات: «لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقّروا أعمالهم، ولزروا

---

١. انظر: شرح منازل السالكين، عفيف الدين التلمساني، ص٨١و ٢٩٣.

على أنفسهم، ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك، ولم يطيعوك حقّ طاعتك»[١]، وعن الإمام السجّاد عليه‌السلام دعاءٌ يقرب معناه من هذا الكلام[٢].

## ٦ ـ غاية العبادة

إنّ الهدف تارةً يكون متوسّطاً وأخرى نهائيّاً؛ فالنخليّة ـ مثلاً ـ هدف متوسّط لنواة التمرة، لكنّ إيتاء أكلها هدف نهائي وأساسي؛ ونبات شتلات النوار وظهور براعمها، بل وبدو النوار، هدفان متوسّطان للبذرة، والغرض النهائي المطلوب هو عطرها الفوّاح وعصارة الورد؛ ليصان ويُحفظ بذلك من الجفاف والفساد نتيجة عرضه كما هو في الأسواق، ومن ثمّ يُنتفع به وقتَ الحاجة.

والعبادة فائدة الخلقة وهدفها، لكنّها هدف متوسّط، وهدفها النهائي أن تكون جسراً يوصل العابدَ إلى ساحة اليقين، وتُسكب العصارة على مدى سنين من العبادة في كأس اليقين؛ لأنّه ما لم يصل الإنسان إلى اليقين فمن الممكن أن يخسر كلّ عبادته وعقائده وأخلاقه، و...، وباليقين تطمئنّ نفسه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٣].

واليقين هو النورانيّة، هو شهود وصفاء الباطن، فمن يوفّق لذلك فقد حقّق في نفسه هدف العبادة وثمرتها، وبالتالي فقد بلغ غاية الخلقة، وإن لم يوفّق لصفاء الباطن فهو كشجرةٍ ذات ظلٍّ لكنّها غير مثمرة، بل ربّما شمله توعّد: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[٤]، وإن كان التوعّد بالويل لتاركي الصلاة والعبادة أشدّ وقعاً وأعظم تنكيلاً، هذا.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة١٠٩.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء٣.

٣. الحجر: ٩٩.

٤. الماعون: ٤.

والحرف «حتّى» في آية: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1]، ليس للتحديد، كي يُقال: إذا حصل اليقين فلا حاجة للعبادة، لوصول العابد إلى الغاية، فلمَ العبادة؟ لا، ليس الأمر هكذا، بل اليقين بركة العبادة ومنفعتها، لا النهاية التي تقف العبادةُ عندها. وعليه فمعنى الآية: واعبد ربّك عبادةً تورثك اليقين[2]. ومن هنا، فاليقين ليس حدّ العبادة بل من بركاتها وآثارها، منها يكون السالك من أهل اليقين مادام من أهل العبادة، وما إن يفرّط فيها حتّى يذهب حاصل عمره مع الريح، ويُبتلى بالكفر والارتداد والحرمان. ولأنّ درجات اليقين والشهود لا حدّ لها فبركات العبادة وفوائدها لا حصر لها أيضاً؛ لذا لا مجال لفرض حدّ ونهاية خطّ للعبادة وآثارها[3].

وقد استشهد بعض المفسرين بالآية: ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[4] على أنّ اليقين في الآية: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ بمعنى الموت؛ فيكون معناها: اعبد ربّك إلى آخر

---

١ . الحجر: ٩٩.

٢ . ونظير هذا التعبير ما جاء في الآية: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ (المنافقون: ٧)؛ فليس مرادهم أنّه لا تنفقوا إلى حين الانفضاض، وبعده فأنفقوا! بل هم ينهون عن الإنفاق؛ لأنّ عدمه يوجب تفرّق من عند الرسول. ونظير قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١ ـ ٢)؛ فليس معناها أنّه بعد عدّ القبور ينتفي عنهم التكاثر والتفاخر، بل بمعنى أنّهم تفاخروا بالكثرة حتّى بلغ بهم الأمر أن عدّوا قبور موتاهم، مبالغةً في التكاثر، لا إنهاءً له.

٣ . إنّ اليقين يحصل بالعبادة تارةً وبالحجّة أو المشاهدة أو المعجز وما شابه تارةً أخرى؛ ففرعون وأعوانه حصل لهم اليقين بالحجّة، لكنّ ظلمة الجحود والإنكار حجبت عقولهم وقلوبهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤)، ومثلهم أولئك الذين حصلوا على اليقين العلمي، ولكن لم يسطع منه نور يهتدون به، فلم يروا منه بركةً ولا خيراً؛ لأنّ يقينهم ذاك أنار لهم خارجهم فقط لا قلوبهم. أمّا اليقين الحاصل من العبوديّة فهو ينير ظاهر العابد وباطنه، فلا يغرّه بريق المعصية ولا يسيل لعابه لحلاوتها.

٤ . المدثر: ٤٧.

عمرك وحين موتك. لكنّ اليقين ليس بمعنىٰ الموت، بل هو اليقين لا غير، إلاّ أنّه لمّا كان الموت أمراً محتوماً ومتيقّناً من جهة؛ وكان كلّ امرئ سيوقن يوم المعاد بكثير من أسرار العالم الخافية عليه من جهة أخرىٰ؛ صحّ تطبيق عنوان اليقين علىٰ الموت.

## ٧ـ طريق نيل القرب الإلهي

إنّ العبوديّة هي السبيل الفرد للتقرّب إلىٰ الله سبحانه؛ ولذا كانت في صدارة رسالات الرسل كافّة، ومثّلت خلاصة دعواتهم. وجملة: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ﴾ هي دعوة الكثير من الأنبياء، وهي تفسير معبّر لجملة: «لا إله إلاّ الله». وقد عرفتَ قبلاً أنّ كلّ كمال يناله الإنسان، الأعمّ من الأنبياء وغيرهم، إنّما هو ببركة العبادة؛ لذا نلاحظ أنّ القرآن الكريم والروايات والأدعية حينما تكون بصدد بيان مقام الأنبياء تذكر أولاً عبوديّتهم لله، ومن ذلك أنّنا في تشهّد الصلاة نقول: «أشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله»، فنشهد له بالعبوديّة قبل الشهادة له بالرسالة؛ والسرّ في هذا أنّ العبوديّة قناة اتّصالهم وعنوان ارتباطهم بالمولىٰ سبحانه، والرسالة قناة اتّصالهم بالناس، بمعنىٰ أنّ فهم تأهّلهم للارتباط بالناس تعليماً وتبليغاً للرسالة يثبت بعد توثيق صلتهم بالله تعالىٰ بالعبوديّة. وبهذا يتّضح السبب في تقديم الإمام عليّ عليه‌السلام عنوان «عبد» علىٰ لقب «أمير المؤمنين» في صدر رسائله الرسميّة المرسلة لولاته؛ إذ كان يستهلّها بكتابة: «من عبد الله عليّ أمير المؤمنين...»[1]. وفي هذه الزيارة مُدح النبيّ الخاتم صلى‌الله‌عليه‌وآله بـ«العبد المنتجب»، فورد: «وأشهد أنّ محمّداً عبده المنتجب و...».

---

١. نهج البلاغة، الكتاب ١، ٢٤، ٣٨، ٥٠، ٥١، و...

## ٨ ـ أقسام العبوديّة

العبوديّة قسمان:

أ. **العبوديّة العامّة**: وتسمّى أيضاً العبوديّة التكوينيّة، ويُقصد بها الخضوع التكوينيّ والانقياد الوجودي للمبدأ المتعالي، والكينونة في مسير التكوين وقبول سيطرة نظام الوجود. وهذه العبوديّة لا تختصّ بالإنسان، بل تعمّ الموجودات كافّة؛ لأنّها ناشئة من المالكيّة التكوينيّة والحقيقيّة لله للعالم، ومعلولة لتدبيره وإشرافه على نظام الوجود، وما من موجود له القدرة والاستقلال في الإرادة مقابل مالكيّته وتدبيره التكويني.

والجزاء اللائق لهذه العبوديّة هي الرحمة العامّة من عند ربّ العالمين، وفي هذه الرحمة تنطوي النقمة والنعمة.

ب. **العبوديّة الخاصّة**: وتسمّى أيضاً العبوديّة التشريعيّة أو الاصطلاحيّة، ويُقصد بها الانقياد الاختياريّ في مسار الصراط المستقيم ومدار الهداية التوحيديّة. وهذه العبوديّة ناشئةٌ أيضاً من مالكيّة الله للعالم تكويناً وحقيقةً وتدبيره لنظام الوجود؛ غير أنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت جعل الإنسان مخيّراً في هذا النوع من العبوديّة، ليُفسح له المجال في ميدان الامتحان الإلهيّ لبلوغ الكمال المنشود بحسب قدرته.

وجزاء هذه العبوديّة الخاصّة رحمة خاصّة، تندرج فيها نعمة الجنّة وسائر الأفضال الإلهيّة. وهذه العبوديّة الخاصّة هي المقصودة في مثل هذه البحوث والدراسات.

## ٩ ـ حقيقة العبوديّة

إنّ جوهر العبوديّة هو أن لا يرىٰ الإنسانُ لنفسه ولا لسائر الموجودات شأناً وقدراً غير العبوديّة: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[٢].

وفي الوقت الذي تعدّ كلمة «أعبد» شعار عامّة الناس والسالكين المبتدئين في إظهار العبوديّة، تعتبر كلمة ﴿نَعْبُدُ﴾ شعاراً للعابد الكامل، فلسان حاله ومقاله: أنا ومجموعة نظام الوجود عباد لك، وفي عبادتك والتعبّد لك دائمون؛ وهو شعار مَن وعىٰ حقّاً أنّ الله هو ﴿ربُّ العَالَمِين﴾ واستأنس به.

قد يقول قائل: إنّ كلمة ﴿نعبد﴾ وإن كانت دليلاً علىٰ اختياريّة العبادة، إلاّ أنّها توهم الاستقلال، وأنّ هناك موجوداً بعنوان «أنا» يعبدك. ولأجل دفع هذا التوّهم يقول العابد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فهو يقرّر حقيقة أنّه محتاج في هذه العبوديّة إلىٰ عونه سبحانه، فهذه الآية تعبيرٌ عن «العبادة الخالصة والعبوديّة المحضة».

ثمّ إنّ إطاعة الموّحد لغير الله في طول إطاعته له تعالىٰ، لا في عرضها، وآية: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣] تقرّر إطاعة الرسول والأئمّة، وآية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٤] تقرّر إطاعة الأبوين.

والحاصل: إنّ العبد الحقّ هو من يرىٰ نفسه مملوكاً محضاً لله، ويقرّ بمالكيّته تعالىٰ، وأنّه المعبود ولا معبودَ سواه.

---

١. فصلت: ١١.

٢. مريم: ٩٣.

٣. النساء: ٥٩.

٤. الأنعام: ١٥١.

ولا ريب في أنّ من ينمّي هذه الإحساسَ في أعماقه سيكون قادراً على اقتلاع جذورُ الكِبْر منها، فالكِبْرُ باب الخروج من العبوديّة، ولن يرضى لنفسه أن تثبتَ لها إنيّةً مقابل مولاها ومالكها؛ لأنّ العبوديّة والكِبْر لا يجتمعان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]؛ وإن أمكن اجتماعهما في الشرك في العبوديّة والعبادة: ﴿ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[2]، وهو شرك منهيٌّ عنه بطبيعة الحال. مع العلم أنّ مراتب الشرك تختلف شدّةً وضعفاً بحسب مراتب العبوديّة.

## ١٠ ـ بعض آثار العبوديّة

إنّ من يستشعر في نفسه العبوديّة لله فليس لغير مولاه ومالكه الحقيقي نصيبٌ في ميوله ورغباته، وليس له طمع في كيس فلان، ولا يمدّ يده إلى مال فلان. وهو يتّخذ من الله وكيلاً، بل وليّاً وربّاً[3]؛ ولذا لا تجتمع الغفلة عن تكليف العبوديّة وما تقتضيه مع التفات العبد إلى عبوديّته وأنّه عبدٌ مكلّف بالعبادة.

إنّ كلّ إنسان مطالب بأن يكون عبداً محضاً لله في شؤونه كلّها، وأن لا يأتي بشيء لا يرتضيه مولاه، وإذا كان يرى نفسه عبداً حقّاً فليسلّم بحقّ مولاه في أمره

---

١ . غافر: ٦٠.

٢ . الكهف: ١١٠.

٣ . قد يقوم الموكِّل في الوكالة بإيكال القيام ببعض أعماله إلى الوكيل، أو يقوم هو ببعض العمل ويحوّل باقيه إلى وكيله لإتمامه، أمّا في الولاية التكوينيّة فليس للعبد بالنسبة لمولاه شيء من الأمر إطلاقاً؛ لذا فهو يفوّض أمره كلّه إلى مولاه، كما في ولاية الأب على ابنه الصغير. وتفترق الوكالة عن الولاية في: ١ ـ أنّ الوكالة تكون شرعيّة بإذن الموكِّل، أمّا في الولاية فشرطها قبول المولّى عليه فقط، ومشروعيّتها تُكتسب بإذن الله؛ لذا ينعزل الوكيل بعزل الموكِّل له، بينما ينعزل الوليّ بفقدانه لمقوّمات الولاية وشروطها. ٢ ـ أنّ الوكالة محدودة الفاعليّة بحسب توافق الوكيل والموكِّل، في حين أنّ حدود الولاية التشريعيّة منوط بالله تعالى. والفرق الجوهريّ بين الوكالة والولاية هو المذكور أولاً.

بكلّ ما يريد ونهيه عمّا لا يريد؛ لتيقّنه بأنّ الله تعالى أعلم بصلاحه من نفسه، وأنّه يريد الخير له: «يا ابن آدم! أطعني فيما أمرتك ولا تعلّمني ما يصلحك»[1]. وقد تجلّت هذه العبوديّة والتسليم المطلق في خليل الله إبراهيم عليه السلام، فقد أطاع ربّه في إسكان ذرّيته بوادٍ غير ذي زرع، وقام بتجديد بناء بيت التوحيد، وضحّى بابنه العزيز... وختم بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]؛ ولذا علّم اللهُ رسولَه الكريم صلى الله عليه وآله أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

## ١١ ـ الطريق إلى العبوديّة

لا بدّ لنيل العبوديّة من محاربة هوى النفس والشيطان، العدوّان اللدودان للإنسان؛ فإنّ الثاني يهجم من الخارج، والأوّل يهجم من الباطن، والهوى عدوّ متولّد من النفس، وهو أداة الشيطان، ولولا الهوى الباطنيّ لما أمكن للعدوّ الخارجيّ فعل شيء؛ ومن هنا فإنّ ضرر الشيطان كضرر السمّ، فإنّه لا يضرّ ولا يهلك ما لم يدخل البدن ويتفاعل ويؤثّر أثره القاتل بمعونة الجهاز الهضمي للبدن.

## ١٢ ـ عقلانيّة الطاعة والعبوديّة

إنّ أصل الخضوع والعبوديّة للأقوى والأعظم قدرةً أمرٌ مُتفهّم ومنطقيّ، وهو ينطوي على معنى استحقاق المعبود المقتدر والمطاع لذلك. وقانون نظام التكوين المقتضي لهذه الطاعة هو أنّ الضعيف مستكينٌ دوماً للقويّ، وهذا القانون ليس مختصّاً بالبشر، بل جارٍ في الموجودات بأسرها.

---

١ . بحار الأنور، ج٦٨، ص١٧٨.
٢ . الأنعام: ٧٩.
٣ . الأنعام: ١٦٢.

ولا يخفى أنّه لا ملكيّة تضارع ملكيّة الله ولا قدرةَ تماثل قدرته؛ لأنّ مالكيّة غيره للأشياء ملكيّة محدودة من جهة واعتباريّة محضة من جهةٍ أخرى؛ لذا فهي في مهبّ الزوال والفناء. أمّا مالكيّته تعالى فهي حقيقيّة ومطلقة وغير زائلة؛ من هنا كانت عبوديّة الموجودات له عبوديّة حقيقيّة، وعبوديّتها لبعضها عبوديّة جعليّة اعتباريّة.

وقد جاء النهي عن الشرك في مثل آية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[1] من باب أنّه لا نظير لمالكيّة الله وقدرته، فيجب على الموجودات كافّة إطاعته وعبادته في كلّ أزمانها وبكلّ ذرّة ذرّة في كيانها. أمّا عبوديّة بعض الموجودات لبعضها الآخر فهي نسبيّة، خاصّة ببعض الأمور، وتتعلّق ببعض الأعضاء، ومحدودة زمنيّاً[2].

والحاصل: إنّ مبدأ العبوديّة وطاعة بعض المخلوقات لبعضها أمرٌ يقبله العرف والعقل، ولها أمثلة في المجتمعات البشريّة، إلاّ أنّ العبوديّة بين الخلق والخالق أكمل وأظهر من العبوديّة الاجتماعيّة عند البشر، وتختلف عنها في الخصوصيات والآثار؛ لأنّ لواهب أصل الوجود والأرزاق الماديّة والمعنويّة مالكيّةً تكوينيّةً وحقيقيّةً، لا اعتباريّة، كما مرّ عليك.

**ملاحظة**

إنّ الدين الإسلامي وطّأ للبشريّة طريق الحريّة والتحرّر من العبوديّة لغير الله، من خلال تشريعاته الحيويّة وتعاليمه التحرريّة، وأحكامه العادلة هي أفضل بكثير من العبوديّة الحديثة والاسترقاق المعاصر.

---

١. الإسراء: ٢٣.

٢. يذكر الفقهاء في كتب الفقه في بحث العبيد والإماء مسائل العبد المبعَّض والمكاتَب والمدبَّر، وهم عبيد لمواليهم في أزمان معيّنة محدودة، يكونون فيها تحت تصرّف مواليهم.

والخلاصة: إنّ العبادة بمعنىٰ إظهار التذلّل والإطاعة المحضة عن تعبّد للمولىٰ. ولهٰذا التذلّل مظاهر عديدة، منها ما يكون عبر الجوارح، كالصلاة والصيام وما شابه، وهي ما يُصطلح عليهابـ «العبادة»، وهي عند الكثيرين مجرّد عادة! فهٰذه الأفعال الجوارحيّة إبراز لحالة العبوديّة، وتوثيقٌ رسميٌّ للعبوديّة، ووسيلة لإظهار حاجة العبد للمالك المعبود. فينبغي علىٰ هذا أن يكون المعبود مالكاً، وقادراً، ومدبّراً لعبده بما يصلح أموره.

وقد نبّه القرآن الكريم وهو بصدد تقبيح التذلّل الذميم وردّ العبوديّة الباطلة علىٰ نقاط ضعف المعبودات المزيّفة، فقال عزّ وجلّ: ﴿... فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[1].

ولقد أنكر النبيّ إبراهيم علىٰ قومه عبادة ما لا نفع له ولا ضرّ، وقبّحه وقبّح عابديه وسفّههم، فـ: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفلا تَعْقِلُونَ﴾[2]. وفي هذا اليوم أيضاً ينطق لسان حال حجّة العصر الإمام بقيّة الله الأعظم ﷺ وأولياء الله كافّة بقول: «أُفٍّ للشرك والمشركين».

١. الأعراف: ١٩٠ ـ ١٩٧.

٢. الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧.

وعليه فإنّ العبادة المأتيّ بها على الوجه الصحيح والمؤدّاة لمن يستحقّها ترتقي بصاحبها ـ وبحسب درجتها ـ إلى عُلا العبوديّة؛ وإن أُتي بها لغير مستحقّها فصاحبها مستحقٌّ للّعن وتسفيه وليّ الله وحجّة العصر.

**ملاحظة**

إنّ ظاهر الخضوع لله تذلّل وباطنه عزّ ورفعة، ظاهره تكليف وباطنه تشريف، ظاهره ثقلٌ وباطنه حقٌّ، ظاهره ضعة وباطنه كرامة؛ بينما ظاهر التكبّر عليه تعالى عزّة: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾[١]، وباطنه ذلّة، ظاهره رفعة وباطنه صغارٌ وضعة. وهذا البون الشاسع دليلٌ على أنّ المتكبّرين سيتعذبون يوم القيامة (وهو يوم ظهور الحقيقة كما هي) بعذاب روحيّ، هو عذاب الهوان والصغار والذلّ، زيادةً على العذاب الماديّ الناريّ.

## ١٣ ـ التفكّر أعلى عبادة

التفكّر أحد أنواع العبادة المذكورة بعنوانها في الروايات، فمن ذلك قول أمير المؤمنين في وصاياه للإمام المجتبى عليهما السلام: «لا عبادةَ كالتفكّر في صنعة الله عزّ وجلّ»[٢]. وعن الإمامين الرضا والعسكريّ عليهما السلام: «ليست العبادة كثرة الصيام والصلاة، إنّما العبادة كثرة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ»[٣]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كان أكثر عبادة أبي ذر رحمة الله عليه التفكّر والاعتبار»[٤]. وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في بيان قيمة التفكّر: «فكرة ساعة خيرٌ من عبادة سنة، ولا

---

١ . البقرة: ٢٠٦.

٢ . بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٤.

٣ . المصدر نفسه، ص٣٢٢و ٣٢٥.

٤ . المصدر نفسه، ص٣٢٣.

ينال منزلة التفكّر إلاّ من قد خصّه الله بنور المعرفة والتوحيد»[1].

إنّ أهميّة التفكّر تأتي من حيث إنّ الانسان إذا ما تمعنّ في أمر الله وصنعه، وتأمّل في دليل ربوبيّته ومربوبيّة ما سواه، وفهم أنّه تعالى كمالٌ صرف، وجمالٌ مطلق، وأنّ كلّ كمال وجمال لغيره ما هو إلاّ آية له تعالى ودليل دالّ عليه، وأدرك حقيقة ومعنى الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وأدرك أنّ حقّه تعالى وما يليق به صرف الربوبيّة والمالكيّة، وحقّ غيره وما يليق بوجوده المربوبيّة والمملوكيّة المحضة؛ إذا وعى كلّ هذا بالتفكّر فسيعي حقيقة العبادة. فالتفكّر في واقعه عبادةٌ علميّة، وهو مقدّمة لعبادة بدنيّة عمليّة (من صلاة وصيام و...)، فهو الأصل، والعبادة العمليّة الفرع، وهو الجذر والأساس، وهي الأغصان والأوراق، هو شجرة طوبى وهي ثمارها؛ ومن المعلوم أنّ الأصل والشجرة قبل الفرع والثمرة.

قال الإمام السجّاد عليه السلام في بيان العلاقة بين العبادة العمليّة وبين العبادة العلميّة كمّاً وكيفاً: «يا أيها الناس! إنّ اللهَ والله ما خلق العباد إلاّ ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه، فقال له رجل: بأبي أنت وأمّي يا بن رسول الله، ما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»[2].

وعلى هذا الأساس، فكيفيّة العبادة العمليّة مهما كانت هي حصيلة التفكّر، فكلّما كان أعمق وأجدى كانت الكيفيّة أفضل والعبادة أشدّ. ولذا قُسّمت العبادة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أقسام ثلاثة:

أ. «إنّ قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجّار،

---

١. بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٦.

٢. تفسير الصافي، ج٥، ص٧٥، ذيل الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

ب. وإنّ قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد،

ج. وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار»[١].

شعر:

كتب بعضهم لعاشق ولهان: أتتمنّى النار أم الجنان؟

فقال: كفّ عنّي لا تسأل هذا السؤال... لأنّي رضيت بما يرضاه لي من حال

وإن أنت حظيت بالقرب في حضرته... فلا تغفلنّ عن المَلك بسبب خِلعته

ليس من الطريقة أن يتمنّى الأولياء... شيئاً من الله غير الله

إن أنت نظرت بعين الطمع لإحسان حبيبك... فأنت ما زلت أسيرَ نفسك لا في جذبة الحبيب[٢]

## ١٤ ـ عبادة الأئمّة

الكلام في عبادة الأئمّة الأطهار عليهم السلام بحاجة إلى بحوث مطوّلة، نكتفي هنا بذكر بعض الروايات، معترفين بأنّها طلٌّ من بحر وذرّة شعاع من شمس:

أ. عُرف الإمام عليّ بن الحسين من بين الأئمّة عليهم السلام بزين العابدين وسيّد الساجدين لشدّة العبادة. قال الإمام الصادق عليه السلام: «... ولقد دخل أبو جعفر عليه السلام ـ ابنه ـ عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفرّ

---

١ . نهج البلاغة، الحكمة٢٣٧.

٢ . بوستان، ب٣، الحكاية ٨، ص١١٠ ـ ١١١. وهذا نصّ الشعر باللغة الفارسية:

| | |
|---|---|
| يكي پيش شوريده حال نبشت | كه دوزخ تمنّا يا بهشت؟ |
| بگفتا: مپرس از من اين ماجرا | پسنديدم آنچ او پسندد مرا |
| گرت قربي هست در بارگاه | به خلعت مشو غافل از پادشاه |
| خلاف طريقت بود كه اولياء | تمنّا كنند از خدا جز خدا |
| گر از دوست چشمت بر احسان اوست | تو در بند خويشي، نه در بند دوست |

لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبِرت جبهته، وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء، فبكيت رحمةً له، فإذا هو يفكّر، فالتفت إليّ بعد هنيهة من دخولي، فقال: يا بني! أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأعطيته، فقرأ فيها شيئاً يسيراً، ثمّ تركها من يده تضجّراً، وقال: من يقوىٰ علىٰ عبادة عليّ ابن أبي طالب عليه السلام؟»[١].

ب. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه صلّىٰ بالكوفة صلاة الكسوف، فقرأ فيها بالكهف والأنبياء وردّدها خمس مرات، وأطال في ركوعها حتّىٰ سال العرق علىٰ أقدام من كان معه، وغُشي علىٰ كثير منهم[٢].

فعليّ عليه السلام مثله مثل مَن يصل إلىٰ خلّه الحميم فيحادثه لساعات مديدة بلا فتور ولا ملال، بل ولا يهتمّ لمضيّ الوقت؛ أمّا المحرومون من عشق المعبود، الغافلون عن حبّه، فهم سرعان ما يتعبون ويضيقون ذرعاً وكأنّ الدنيا ـ علىٰ رحبها ـ صارت لهم ملالاً في ملال وضيقاً في ضيق.

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «أفضل الناس مَن عشق العبادة، فعانقها وأحبها بقلبه، وباشرها بجسده، وتفرّغ لها، فهو لا يبالي علىٰ ما أصبح من الدنيا علىٰ عسر أم علىٰ يسر»[٣].

ج. دخل أبو حنيفة علىٰ أبي عبد الله عليه السلام، فقال له: رأيت ابنك موسىٰ يصلّي والناس يمرّون بين يديه فلا ينهاهم، و فيه ما فيه! فقال أبو عبد الله عليه السلام: ادعوا لي

---

١. الإرشاد، ج٢، ص١٤٢؛ بحار الأنوار، ج٤٦، ص٧٥.

٢ وسائل الشيعة، ج٧، ص٤٩٩، ح٩٩٥٩، باب استحباب إطالة صلاة الكسوف بقدره حتّىٰ للإمام.

٣. بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٥٣.

موسى، فدُعي، فقال: يا بني! إنّ أبا حنيفة يذكر أنّك كنت تصلّي والناس يمرّون بين يديك فلم تنههم؟ فقال: «نعم يا أبتِ، إنّ الذي كنت أصلّي له كان أقرب إليّ منهم»[١].

ومثل هذه القضيّة حصلت للإمام الحسين والصادق عليهما السلام، وأجابا بجواب مشابه[٢].

إنّ هذه الروايات وما شابهها تبيّن الحالات المعنويّة للأئمّة الأطهار حالَ الصلاة، فهم يجدون أنفسهم فيها في ساحة الله، ويشاهدونه بحقيقة الإيمان؛ لأنّهم لا يعبدون من لا يرونه، كما قال أمير العارفين لذعلب اليماني: «أفأعبد ما لا أرى!»[٣].

❊ ❊ ❊

١. بحار الأنوار، ج٤٨، ص١٧١؛ وسائل الشيعة، ج٥، ص١٣٥، كتاب الصلاة، أبواب المكان، ب١١، ح٦١٣٧.
٢. وسائل الشيعة، ج٥، ص١٣٥، كتاب الصلاة، أبواب المكان، ب١١، ح٦١٣٠ و٦١٣٢.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

# الفهارس

# فهرس الآيات

# فهرس الروايات

| الحديث | الصفحة |
|---|---|
| قد كثرت عليّ الكذّابة... | ١٩٤ |
| فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه... | ١٩٥ |
| ذاك أخي علي بن... | ١٩٦ |
| إنّما أقضي بينكم... | ٢٠١ |
| من مات بغير وصيّة... | ٢٠٦ |
| ما أوذي نبيٌّ مثل... | ٢٠٧ |
| ما ينبغ لامرء مسلم | ٢١٠ |
| أما كان أبي رسول الله... | ٢١٩ |
| يا فاطمة ما بعث الله... | ٢٢٧ |
| إرفعوا أصواتكم... | ٢٣٤ |
| من صلّىٰ عليّ صلاةً... | ٢٣٩ |
| من صلّىٰ عليّ في كتاب... | ٢٣٩ |
| لا يرىٰ وجهي ثلاثة أقوام... | ٢٣٩ |
| من ذكرت عنده فلم يصلّ... | ٢٣٩ |
| لمّا رقيتُ الدرجة... | ٢٤٠ |
| ما اجتمع قومٌ ثمّ... | ٢٤٠ |
| إنّ هذا لمن المكتوم... | ٢٤٠ |
| لا تصلّوا عليّ الصلاة... | ٢٤٢ |
| اللهمّ صلّ علىٰ محمّد و... | ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٨٠ |
| اللهمّ صلّ علىٰ محمّد... | ٢٣٧ |
| أصحابي كالنّجوم بأيّهم... | ٢٤٧ |
| إنّك علىٰ خير | ٢٤٩ |
| إنتِ من صالح نسائي | ٢٤٩ |
| اللهمّ هؤلاء آل محمّد... | ٢٥٠ |
| شهرٌ دعيتم فيه... | ٢٦٢ |
| اللهمّ دعوتني فأجبت... | ٢٦٢ |

**● الإمام علي عليه السلام**

# فهرس الأعلام

# فهرس الكتب

# فهرس المصادر

القرآن الكريم.

**الاحتجاج**: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (القرن السادس)، دار الأُسوة، ط١، ١٤١٣هـ، قم، تحقيق: الشيخ ابراهيم بهادري، محمّد هادي به.

**أدب فناء المقرّبين**: آية الله الجوادي الآملي، مركز نشر إسراء، ط١، ١٣٨١ش، قم، تحقيق: محمّد صفايي.

**الأربعين (الترجمة الفارسية)**: الشيخ البهائي (٩٣٥ ـ ١٠٣٠هـ)، ترجمة: عقيقي بخشايشي، دفتر نشر نويد اسلام، ط٤، ١٣٧٣ش، قم.

**الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**: الشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ)، مؤسسة آل البيت، ط١، ١٤١٦ش، قم.

**إرشاد القلوب المنجي مَن عمل به من أليم العقاب**: الديلمي (القرن السادس)، دار الأُسوة، ط١، ١٣٧٥ش، قم، تحقيق: السيّد هاشم الميلاني.

**الكافي (الأُصول والفروع والروضة)**: ثقة الإسلام الكليني (م٣٢٨ أو ٣٢٩هـ)، دار الصعب ـ دار التعارف، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

**الأعلام**: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠م، بيروت.

**أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد**: سعيد الخوزي الشرتوني اللّبناني، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم، ١٤٠٣هـ.

**أمثال وحكم**: علي أكبر دهخدا، دار امير كبير، ط٥، ١٣٦١ش، طهران.

**أوصاف الأشراف**: الخواجة نصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ)، جمعية الغدير الإسلامية، ١٣٦٢ش.

**بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**: المولى محمّد باقر المجلسي (١٠٣٨ ـ ١١١١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

**بدائع الحكم**: آقا علي مدرّس الزنوزي (١٢٣٤ ـ ١٣٠٧هـ)، انتشارات الزهراء، ط١، ١٣٧٦ش، طهران، تحقيق: أحمد الواعظي.

**بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمّد** ﷺ: أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فرّوخ (الصفّار) (م٢٩٠هـ)، مؤسسة الأعلمي، ط٢، ١٣٧٤ش، طهران، تحقيق: الحاج ميرزا محسن الكوچه باغي.

**بوستان**: سعدي (المتوفى تقريباً ٦٩١هـ)، دار اقبال، ط١، ١٣٦٣ش، طهران.

**بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة**: العلاّمة الحاج الشيخ محمّد تقي التستري ﵀ (١٣٢٠ ـ ١٤١٥هـ)، امير كبير، طهران، ط١، ١٤١٨هـ، مؤسّسة نهج البلاغة.

**تتمّة المنتهى**: المحدّث القمّي، مكتبة داوري (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩هـ)، ط٣، ١٣٩٧هـ، قم، علي محدّث زاده.

**تجلّي ولايت در آيه تطهير**: آية الله الجوادي الآملي، مركز نشر اسراء، ط١، ١٣٧٩ش، قم، تحقيق: محمّد الصفائي.

**تحف العقول عن آل الرسول** ﷺ: الشيخ أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني (القرن الرابع الهجري)، جماعة المدرّسين، قم، ط٤، ١٤١٦هـ تحقيق: علي أكبر الغفّاري.

**التحقيق في كلمات القرآن الكريم**: حسن المصطفوي، مركز نشر الكتاب ـ وزارة الارشاد، طهران، ١٣٩٥هـ.

**تسنيم في تفسير القرآن الكريم**: آية الله الجوادي الآملي، مركز نشر اسراء، ط١، ١٣٧٨ش، قم.

**تفسير أبي السعود**: القاضي محمّد بن محمّد بن مصطفى العمادي (م٩٨٢هـ)، دار الفكر، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، بيروت، تحقيق: شيخ محمّد صبحي حسن الحلاّق.

**تفسير روح البيان**: البروسوي (م١١٣٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، بيروت.

تفسير الصافي: المولى محسن الملقّب بالفيض الكاشاني (م١٠٩١هـ)، مطبعة سعيد، مشهد، دار المرتضى، ١٤٠٢هـ.

**تفسير العياشي**: المحدّث الجليل أبو النضر محمّد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، المكتبة العلمية الإسلاميّة، طهران.

**تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: نظام الدين النيشابوري (م٧٢٨هـ)، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤١٦هـ، بيروت، تحقيق: الشيخ زكريّا عميرات.

**تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**: الفخر الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٤هـ)، دار الفكر، ط٣، ١٤٠٥هـ، بيروت.

**تفسير القمّي**: أبو الحسن علي بن ابراهيم القمّي (القرن الثالث والرابع)، مؤسسة دار الكتاب، ط٣، ١٤٠٤هـ، قم، تحقيق: السيّد طيّب الجزائري.

**تفسير منهج الصادقين في إلزام المخالفين**: المولى فتح الله الكاشاني (م٩٧٧هـ)، دار النشر العلمية الإسلامية، تحقيق: السيّد أبو الحسن المرتضوي ـ علي أكبر الغفّاري.

**تفسير نور الثقلين**: الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (م١١١٢هـ)، مؤسّسة اسماعيليان، ١٣٧٣ش، قم.

**التوحيد**: الشيخ الصدوق ﷺ (م٣٨١هـ)، مؤسّسة النشر الإسلامية (جماعة المدرّسين)، ط٦، ١٤١٦هـ، قم.

**تهذيب الأحكام في شرح المقنعة**: شيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي (م٤٦٠هـ)، دار الصعب ـ دار العارف، ١٤٠١هـ، قم.

**جامع الأسرار ومنبع الأنوار**: السيّد حيدر الآملي (م٧٨٧هـ)، دار النشر العلمي الثقافي، ١٣٦٤ش.

**الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي (م٦٦٨ أو ٦٧١هـ)، دار الفكر، بيروت، تحقيق: صدقي محمّد جميل ـ شيخ عرفان العشّا.

**جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام**: الشيخ محمد حسن النجفي (م١٢٦٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط٧، بيروت، تحقيق: الشيخ عبّاس القوچاني.

**حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**: أحمد بن محمّد الصاوي المصري (١١٧٥ ـ ١٢٤١هـ)، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤١٥هـ، بيروت، محمّد عبد السلام شاهين.

**الحقائق في محاسن الأخلاق**: الفيض الكاشاني (م١٠٩١هـ)، دار البلاغة، ط١، ١٤٠٩هـ، بيروت، تحقيق: الحاج محسن عقيل.

**الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: صدر الدين الشيرازي (م١٠٥٠هـ)، دار احياء التراث العربي، ط٣، ١٩٨١م، بيروت.

**حماسة وعرفان**: آية الله الجوادي الآملي، نشر اسراء، ط١، ١٣٧٧ش، قم، تحقيق: محمد الصفائي.

**الدرّ المنثور في التفسير المأثور**: جلال الدين السيوطي (م٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

**دعائم الإسلام**: النعمان بن محمّد بن منصور التميمي المغربي (م٣٦٣هـ)، دار المعارف، ط١، ١٣٨٣هـ القاهرة، تحقيق: آصف علي أصغر الفيضي.

**ديوان حافظ**: حافظ الشيرازي (القرن الثامن)، انتشارات صفي عليشاه، مطبعة مروي، ١٣٦٥ش، إعداد: الدكتور خليل خطيب رهبر.

**ديوان الفيض الكاشاني**: مولانا الفيض الكاشاني (م١٠٩٠هـ)، انتشارات مكتبة سنائي، ١٣٦٦ش، تصحيح: محمّد پيمان.

**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: الآلوسي البغدادي (م١٢٧٠هـ)، دار الفكر، ١٤١٤هـ بيروت، محمّد حسين العرب.

**روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه**: المولى محمّد تقي المجلسي (١٠٠٣ ـ ١٠٧٠هـ)، مؤسسة كوشانپور الإسلامية الثقافية، ١٣٩٨هـ قم، تحقيق: السيّد حسين الموسوي الكرماني، الشيخ علي پناه الاشتهاردي.

**رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين**: السيّد علي خان الحسيني المدني الشيرازي (١٠٥٢ ـ ١١٢٠هـ)، مؤسّسة النشر الاسلامي، ط٤، ١٤١٥هـ قم، تحقيق: السيّد محسن الحسيني الأميني.

**سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار**: المحدّث القمي (١٢٩٤ـ ١٣٩٥هـ)، دار الأُسوة، ط٢، ١٤١٦هـ، قم.

**سنن الترمذي**: أبو عيسى الترمذي (م٢٧٩هـ)، دار الفكر، ١٤١٤هـ بيروت، تحقيق: صدقي محمّد جميل العطا.

**شذرات المعارف**: آية الله الميرزا محمّد علي الشاه آبادي، لجنة تخليد مقام العرفان والشهادة، ط١، ١٣٨٠ش، طهران، تحقيق: مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية.

**شرح منازل السائرين**: عفيف الدين التلمساني (م٦٩٠هـ)، بيدار، ط١، ١٣٧١ش.

**شرح غرر الحكم ودرر الكلم**: عبد الواحد الآمدي (م٥١٠هـ)، انتشارات جامعة طهران، ١٣٧٣ش.

**شرح التجريد**: علاء الدين علي بن محمّد المعروف بالفاضل القوشجي، افست، طبعة حجرية، منشورات رضي ـ بيدار ـ عزيزي، قم.

**شرح گلشن راز (مفاتيح الإعجاز في شرح...)**: الشيخ محمّد لاهيجي (القرن التاسع)، مكتبة محمودي، مع مقدّمة كيوان سميعي.

**شرح المنظومة**: الملاّ هادي السبزواري (١٢١٢ ـ ١٢٨٩هـ)، مطبعة ناصري، افست، انتشارات مكتبة المصطفوي، قم.

**شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد المعتزلي (٥٨٦ ـ ٦٥٦هـ)، مؤسّسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٥هـ.

**شواهد التنزيل لقواعد التفضيل**: الحاكم الحسكاني (القرن الخامس الهجري)، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٣٩٣هـ بيروت، تحقيق: محمّد باقر المحمودي.

**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: إسماعيل بن حمّاد الجوهري (حدوداً ٣٣٢ ـ ٣٩٣هـ)، مطبعة گويا، ١٣٦٨ش، انتشارات اميري، طهران.

**الصحيفة السجادية الكاملة**: أدعية الإمام السجّاد عليه السلام، انتشارات اسلامية، ط٨، ١٣٧٩ش، طهران.

**الصواعق المحرقة**:

**الطبقات الكبرى**: محمّد بن سعد (م٢٣٠هـ)، دار الفكر، ط١، ١٤١٤هـ، بيروت، تحقيق: سهيل كيالي.

**العقد الفريد**: ابن عبد ربّه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٩هـ، بيروت.

**العروة الوثقى**: آية الله السيّد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي رحمه الله (م١٣٣٧هـ)، مؤسّسة اسماعيليان للطباعة، ١٤١٢هـ، قم.

**العين (ترتيب كتاب العين)**: الخليل بن أحمد الفراهيدي (م١٧٥هـ)، دار الأسوة، ط١، ١٤١٤هـ، قم.

**الغدير في الكتاب والسنّة والأدب**: العلاّمة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، دار الكتب الإسلاميّة، ط٥، ١٣٧١ش، طهران.

**فرائد الأصول**: الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله (١٢١٤ ـ ١٢٨١هـ)، دار الاعتصام، ط١، ١٤١٦هـ، قم.

**فصوص الحكم**: ابن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ)، مع شرح ابن تركه (٧٧٠ ـ ٨٣٥هـ)، انتشارات بيدار، ط١، ١٣٧٨ش، قم، تحقيق: محسن بيدارفر.

**فلاح السائل**: السيد بن طاووس رحمه الله، مركز انتشارات مكتب الإعلام الإسلامي، قم.

**الكافي**:

**كحل البصر في سيرة سيد البشر** صلى الله عليه وآله: المحدّث القمّي رحمه الله، (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩هـ)، مؤسسة الوفاء، ط٢، ١٤٠٤هـ.

**كشف الغمّة**: عليّ بن عيسى الأربلي، تبريز، تحقيق: السيد هاشم رسولي محلاّتي.

**الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ)، دار الفكر، ١٣٩٧هـ.

**كليّات الشيخ البهائي**: بهاء الدين محمّد العاملي (٩٥٣ ـ ١٠٣٠هـ)، مكتبة محمودي، ط٣، ١٣٧٣ش، إعداد: غلام حسين جواهري.

**كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال**: المتّقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، مؤسّسة الرسالة، ط٥، ١٤٠٥هـ بيروت.

گلستان: سعدي (المتوفّى تقريباً ٦٩١هـ)، إعداد: الدكتور خليل خطيب رهبر، انتشارات صفي عليشاه، مطبعة مروي، ١٣٦٦ش.

لغت نامه دهخدا: علي أكبر دهخدا، مؤسسة جامعة طهران للطباعة والنشر، بالتعاون مع دار نشر روزبه، ط١، ١٣٧٢ش، طهران.

مثنوي طاقديس: ملا أحمد النراقي (١١٨٥ ـ ١٢٤٥هـ)، انتشارات امير كبير، ط٢، ١٣٦٢ش، طهران.

مثنوي معنوي: جلال الدين محمّد البلخي (مولوي) (٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ)، انتشارات راستين، ط١، ١٣٧٥ش، وفقاً لنسخة رينولد نيكلسن.

مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي أمين الإسلام الطبرسي (٤٦٨ ـ ٥٤٨هـ)، دار المعرفة، ط٢، بيروت، ١٤٠٨هـ، تحقيق: السيد هاشم رسولي محلاّتي ـ سيد فضل الله يزدي طباطبائي.

المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء: المولى محسن الفيض الكاشاني ﷺ (م١٠٩١هـ)، مكتب النشر الإسلامي (جماعة المدرّسين)، ط٢، قم، تحقيق: علي أكبر الغفّاري.

مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ﷺ: المولى محمّد تقي المجلسي ﷺ (م١١١١هـ)، دار الكتب الإسلاميّة، ١٣٦٣ش، طهران، تحقيق: السيّد هاشم رسولي المحلاّتي.

مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: المحدّث النوري (ت١٣٢٠هـ)، مؤسسة آل البيت ﷺ، ط١، ١٤٠٧هـ، قم.

مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة: المنسوب الى الإمام الصادق عليه السلام، ترجمة: حسن المصطفوي، جمعية الحكمة والفلسفة في ايران، ١٣٦٠ش، طهران.

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمّد بن علي المقري الفيّومي (م٧٧٠هـ)، دار الهجرة، قم، ١٤٠٥هـ.

معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة: آية الله السيّد أبو القاسم الخوئي، منشورات مدينة العلم، ط٤، ١٤٠٩هـ بيروت.

معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري (القرن الرابع الهجري) ـ سيّد نور الدين الجزائري (م١١٥٨هـ)، جماعة المدرّسين، ١٤١٢هـ قم.

معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا، (م٣٩٥هـ)، مكتب الاعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، قم، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون.

معراج السعادة: ملاّ أحمد النراقي ﷺ (١١٨٥ ـ ١٢٤٥هـ)، مؤسّسة دار الهجرة للنشر، ط٢، ١٣٧٤ش، قم.

**مفتاح الفلاح**: الشيخ البهائي، ترجمة: علي بن طيفور بسطامي، دار الحكمة للنشر، ط١، ١٣٦٦ش.

**كليّات مفاتيح الجنان**: الحاج الشيخ عباس القمّي ﷺ (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩هـ)، دار الأُسوة.

**مفردات غريب القرآن**: الراغب الاصفهاني (م٤٢٥هـ)، دار القلم ـ دار الشامية، ط١، دمشق ـ بيروت، ١٤١٦هـ صفوان عدنان الداوودي.

**مقتل الحسين** عليه السلام: عبد الرزّاق الموسوي المقرّم، دار الثقافة، ط٢، ١٤١١هـ قم.

**من لا يحضره الفقيه**: أبو جعفر الصدوق ﷺ (م٣٨١هـ)، دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ، بيروت، محمد جعفر شمس الدين.

**الميزان في تفسير القرآن**: العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي ﷺ، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط٣، ١٣٩٣هـ، بيروت.

**النهاية في غريب الحديث والأثر**: ابن اثير (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ)، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة وبيروت، تحقيق: طاهر أحمد الزادي ـ محمود محمّد الطناحي.

**نهج البلاغة**: السيّد الرضيّ، محمّد بن الحسين بن موسى، (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ)، دار الأُسوة، تحقيق: صبحي الصالح.

**نهج الفصاحة الحاوي لقصار كلمات الرسول الأكرم** ﷺ: مؤسّسة انصاريان، قم، ط١، ١٣٧٩ش، تحقيق: غلام حسين المجيدي.

**وحي ونبوّت در قرآن**: آية الله الجوادي الآملي، مركز نشر اسراء، ط١، ١٣٨١ش، قم، تحقيق: علي زماني قمشه اي.

**وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**: الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي ﷺ (م١١٠٤هـ)، مؤسّسة آل البيت ـ دار احياء التراث، ١٤١٤هـ.

**ينابيع المودّة لذوي القربى**: القندوزي الحنفي (١٢٢٠ ـ ١٢٩٤هـ)، دار الأُسوة، ط٢، ١٤٢٢هـ قم، السيّد علي جمال أشرف الحسيني.

* * *